المستجاد من فعلات الأجواد

لأبي علي المحسن بن أبي القاسم التنوخي

المتوفى ٣٨٤هـ

ويليه

فضل العطاء على العسر

لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري

المتوفى ٣٨٢هـ

ويليه

الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود

لزين الدين عبد الرؤوف المناوي

المتوفى ١٠٣٢هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية بيروت لبنان

جميع الحقوق محفوظة
Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon
No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban
Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signé par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciares.

الطبعة الأولى
٢٠٠٥ م. ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢/ ١١/ ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun-ilmiyah.com

الكتاب: المستجاد من فعلات الأجواد
AL-MUSTAJĀD MIN FAᶜLĀT AL-ᵓAJWĀD
المؤلف: المحسّن بن أبي القاسم التنوخي
المحقق: أحمد فريد المزيدي
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات: 288
سنة الطباعة: 2005 م
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-4796-x
90000
9 782745 147967

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الكريم الجواد، الذي أنعم علينا بجوده وكرمه الفيّاض، وكفي بنعمته أن جعلنا من أمة خير العباد.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أصحاب الكرم والسخاء، وصحبه المقربين من بذلوا في سبيل خير عطاء وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد؛ فبين يديك أيها القارئ الكريم كوكبة مباركة من التراث الإسلامي والعربي، احتوت على فوائد عظيمة في مسألة الجود والكرم والسخاء، وذكر من عرفوا واشتهروا بذلك، فهو أنيس للجليس، ويصلح لمجلس الوعظ والتدريس، ومن لم يتحلَّ بأخلاق أهل الله فهو مازال في دائرة التفليس، ويسيطر عليه تلبيس إبليس فحقًا أخي الكريم: هذه الكتب الثلاثة من أفضل ما صُنف في نوعها، وآثرت جمعها حتى تتم الفائدة.

والكتاب الأول هو المستجاد من فعلات الأجواد للقاضي التنوخي، مخطوطته مصورة بمعهد المخطوطات العربية، رقم ٢٢٦٩ أدب عن المكتبة الحبيبية رقم (٤١٢٨) تقع في (١٠١) ورقة، وأسطرها ١٥ سطرًا، كتبت سنة ٨٩٩ هـ بخط سليمان بن حسين بن الأمير جانم اليشبكي.

والنسخة الثانية، بدار الكتب المصرية.

وكذلك مطبوعة العلامة البستاني رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

والكتاب الثاني: فضل العطاء على العسر لأبي هلال العسكري، طُبع سنة ١٣٢٦ هـ باسم الكرماء تحقيق الأستاذ الأديب محمود الجبالي باسم، ثم مطبوعة الأديب الضليع الأستاذ العلامة محمود محمد شاكر وهو أصح وأدق من سابقتها، وقد طبعت سنة ١٣٥٣ هـ.

وأما الكتاب الثالث: الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود لزين الدين عبد الرؤوف المناوي، مخطوطته من مصورات معهد المخطوطات العربية تحت رقم ٢٢٣ أدب) عن دار الكتب المصرية (٣٥٦ أدب) تقع في ٥٨ ورقة، كتبت سنة ١٠٧٤ بخط نسخ معتاد، وقد طبع من قبل.

هذا ولا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر لكل من ساهم في إخراج العلم ابتغاء وجه الله تعالى، وإلى والدي الشيخ فريد أحمد المزيدي رحمه الله رحمة واسعة، وإلى أمي تغمدها الله برحمته، وإلى مشايخي وأساتذتي.

وكذلك أتقدم بالشكر إلى زوجتي أم الحسن بنت عبد الفتاح آل نصير، حيث مساعدتها لي، حال تحقيقي لهذا السفر المبارك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتبه

أبو الحسن أحمد فريد المزيدي

كلية أصول الدين – جامعة الأزهر

ترجمة مختصرة لصاحب المستجاد

هو الإمام الأديب الشاعر القاضي التنوخي، أبو علي المحسن بن أبي القاسم علي بن محمد.

من مصنفاته:

١- كتاب الفرج بعد الشدة.

٢- ديوان شعر.

٣- نشوار المحاضرة (جامع التواريخ)

٤- المستجاد من فعلات الأجواد.

نزل بغداد وأقام بها وحدّث إلى حين وفاته، وكان سماعه صحيحًا، وكان أديبًا شاعرًا إخباريًا، تقلّد القضاء، والأعمال من قِبل الإمام المطيع لله.

ولد سنة ٣٢٧ هـ بالبصرة، وتوفي ببغداد سنة ٣٨٤.

ذكر الثعالبي ثم قال في حقه: هلال ذلك القمر ... وغصن هاتيك الشجر، والشاهد العدل بمجد أبيه وفضله، والفرع المشيد لأصله، النائب عنه في حياته والقائم مقامه بعد وفاته.

قال الذهبي: سمع أبا العباس الأثرم وأبا بكر الصولي، وابن داسة، وواهب بن محمد، وروى عنه ولده أبو القاسم علي.

وانظر: سير أعلام النبلاء (٥٢٥/١٦)، وتهذيب التهذيب (٣٠٨/٨)، والإكمال لابن ماكولا (٥٩/٧)، وكشف الظنون (١٧٠٦/٢) وأبجد العلوم (٢٩٢/٢)، (٨٤/٣)، والأعلام (٥٨٣/٥).

ترجمة مختصرة لأبي هلال العسكري

هو الإمام المحدث الأديب: الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، عالم بالأدب، له شعر حسن، نسبته إلى عسكر مكرم، من كور الأهواز، ولد سنة ٢٩٣ هـ.

من كتبه: ١- التلخيص في اللغة. ٢- معجم لغوي. ٣- جمهرة الأمثال. ٤- الحث على طلب العلم. ٥- الصناعتين بالنظم والنثر. ٦- شرح ديوان الحماسة. ٧- الأوائل. ٨- الفرق بين المعاني. ٩- العمدة. ١٠- ما تلحن فيه الخاصة. ١١- المحاسن في تفسير القرآن. ١٢- من احتكم من الخلفاء إلى القضاء. ١٣- التبصرة. ١٤- الدرهم والدينار. ١٥- ديوان شعره. ١٦- الفروق اللغوية. ١٧- ديوان المعاني.

وهو ابن أخت أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري وتلميذه.

توفي أبو هلال العسكري سنة ٣٨٢ هـ كما في الأعلام للزركلي (٤٠٢/٣).

ترجمة مختصرة للمناوي

هو الإمام الفقيه المحدث العلامة الشيخ زين الدين عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي الحدادي المناوي القاهري الشافعي.

من مصنفاته:

١- غاية الإرشاد في معرفة الحيوان والنبات والجماد.

٢- تهذيب تسهيل المقاصد إلى زوار المساجد للأقفهسي وكلاهما تحت قيد التحقيق.

٣- الفتح السماوي في تخريج أحاديث تفسير البيضاوي.

٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير للسيوطي.

٥- مناقب الإمام الشافعي.

٦- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية.

٧- الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية.

٨- الروض الباسم شرح شمائل المصطفى أبي القاسم.

٩- شرح التحرير للجرجاني.

وتوفي رحمه الله سنة ١٠٣٢، وقيل: ١٠٣١ هـ عن ٧٧ عامًا.

وانظر: البدر الطالع (١، ٣٥٧)، وخلاصة الأثر للمجبي (٢/٤١٢)، ومعجم كمالة (٥/٢٢٠، ٢٢١).

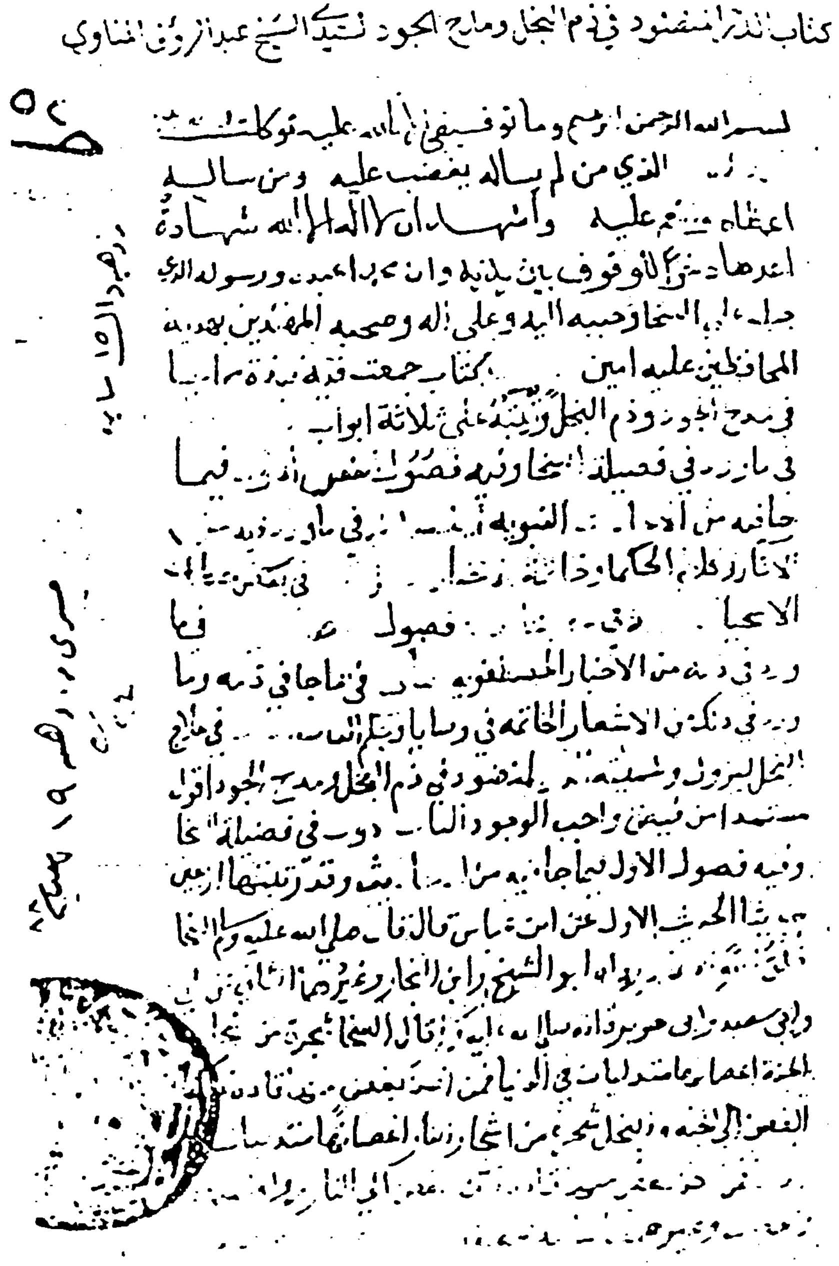

الصفحة الأولى من الدر المنضود

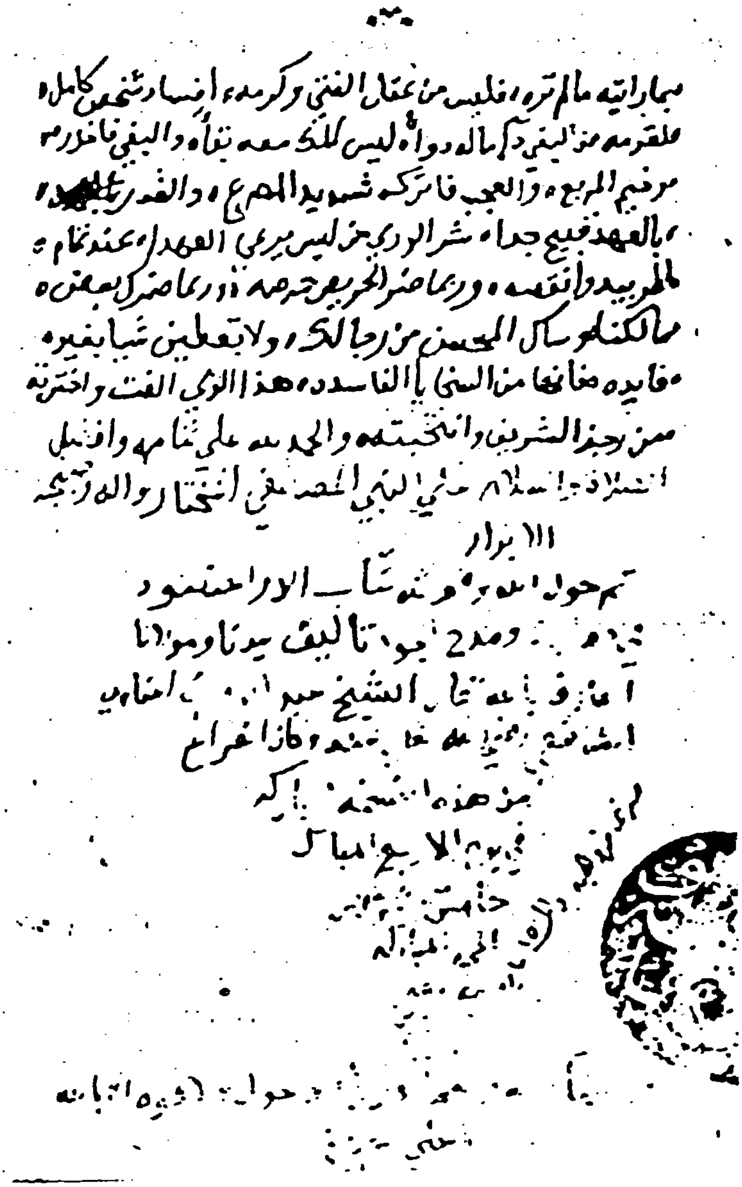
مما رأيته ما لم تره، فليس من عقال الغني وكرمه، إفساد شيء من كامله
فلقرمه من البغي ذكر ما له دواء، ليس للكذ معه بقاء، والبغي فاحذره
من خيم المربح، والعجب فاتركه شديد المصرع، والغدر [illegible]
بالعهد قبيح جداً، شر الورى من ليس يرعى العهد، عند تمام
المزيد وانقصه، وربما ضر الحريص حرصه، وربما ضر بعضه
ما لكلمة سال المحسن من رجا الكذ، ولا يعطين شيئاً بغيره
فائدة فإنها من السنن الفاسدة، هذا الذي ألفت واخترته
من حيز الشريف وانتخبته والحمد لله على تمامه وأفضل
الصلاة والسلام على النبي المصطفى المختار وآله وصحبه
الأبرار
تم بحول الله وقوته كتاب الدر المنضود
[illegible] ومدح [illegible] تأليف سيدنا ومولانا
[illegible] الشيخ [illegible]

الصفحة الأخيرة من الدر المنضود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الجود والكرم، ومسبغ الآلاء والنعم، وصلى الله على خير من مشى على قدم، محمد المبعوث إلى سائر الأمم، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وسلَّم.
أمرت أطال الله في النعمة عمرك وحسن مع التقوى عملك، وبلغك في السلامة أملك، وختم بالصالحات أجلك، أن أجمع لك من أخبار الأجواد أجودها، ومن فعلات الكرام أسناها وأبعدها. فسارعت على تقصيري إلى الامتثال، وتخيرت ما سنح لي في الحال مما أحسبه يستفيد به القارئ والسامع ويقع من القلوب أرفع المواقع. وألفتهُ كتابًا سميته «المستجاد من فعلات الأجواد» وأرجو أن يكون للقبه مطابقًا، ولغرضك موافقًا. ولما يُستحسن سابقًا، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الأخبار

حكاية (١)

فمن ذلك ما روي[١] عن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وسلامه أنه بات على فراش رسول الله ﷺ فأوحى الله تعالى إلى جبرائيل وميكائيل عليهما السلام أني قد آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختار كلاهما الحياة وأحبّاها. فأوحى الله تعالى إليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين محمد ﷺ فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرائيل عليه السلام ينادي بخ، بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

حكاية (٢)

قيل: سأل رجل الحسن بن علي عليهما السلام حاجة فقال له يا هذا حق سؤالك إياي يعظم لدي ومعرفتي بما يجب لك يكبر لدي. ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله. والكثير في ذات الله قليل. وما في ملكي وفاء لشكرك. فإن قبلت الميسور

(١) انظر: ثمرات الأوراق للحموي (ص ٨٢).

ورفعت عني مؤنة الاحتيال والاهتمام بما أتكلف من واجبك فعلت فقال: يا ابن رسول الله ﷺ أقبل القليل واشكر العطية وأعذر على المنع. فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال: هات الفاضل من الثلثمائة ألف، فأحضر خمسين ألفًا. قال: فما فعلت بالخمسمائة دينار؟ قال: هي عندي قال: فأحضرها. فأحضرت فدفع الدراهم والدنانير إليه وقال: هات من يحملها لك، فأتاه بحمالين. فدفع إليهما الحسن رداءه كرى الحمل، فقال له مواليه والله ما عندنا درهم، فقال ولكني أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم(١).

حكاية (٣)

قال أبو الحسن المدائني: خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر حجاجًا ففاتتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز في خباء لها فقالوا هل من شراب؟ قالت: نعم فأناخوا إليها وليس لها إلا شويهة في كسر الخيمة فقالت احلبوها وامتذقوا لبنها ففعلوا ذلك ثم قالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيئ لكم ما تأكلون — فقام أحدهم فذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعامًا فأكلوا وأقاموا حتى أرادوا. فلما ارتحلوا قالوا لها نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه. فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا فإنا صانعون إليك خيرًا ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال: ويحك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين: «نفر من قريش»، بعد مدة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها وجعلا ينقلان البعر ويبيعانه ويعيشان بثمنه فمرت العجوز في بعض سكك المدينة فإذا الحسن بن علي عليهما السلام على باب داره جالس. فعرف العجوز وهي له منكرة فبعث إليها غلامه فدعاها فقال لها يا أمة الله، أتعرفينني؟ قالت: لا قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا، قالت بأبي أنت وأمي، ثم أمر فاشترى لها من شياه الصدقة ألف شاة وأمر لها معها بألف دينار وبعث بها مع غلامه إلى الحسين عليه السلام فقال لها الحسين: بكم وصلك أخي؟ قالت: بألف شاة وألف دينار فأمر لها الحسين أيضًا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر رضي الله عنه فقال لها: بكم وصلك الحسن والحسين؟ قالت: بألفي دينار وألفي شاة فأمر لها عبد الله بن جعفر بألفي شاة وألفي دينار وقال لها لو بدأت بي

---

(١) انظر: ثمرات الأوراق للحموي (ص ٩٧).

لأتعبتهما فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف دينار وأربعة آلاف شاة[١].

حكاية (٤)

عن محمد بن المنكدر عن أم ذرة وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها قالت: إن ابن الزبير بعث إليها بمال في غرارتين ثمانين ألف فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس فلما أمست قالت: يا جارية هاتي فطوري فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم ذرة ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه فقالت لو كنت ذكرتني لفعلت.

حكاية (٥)

قال مصعب بن الزبير: حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة فقال الحسن بن علي لأخيه الحسين لا تلقه ولا تسلم عليه فلما خرج معاوية قال الحسن: إن علينا دينًا ولابد من إتيانه فركب في أثره فلحقه فسلم عليه وأخبره بدينه فمروا عليه ببختى عليه ثمانون ألف دينار قد أعيا وتخلف عن الإبل وقوم يسوقونه فقال معاوية ما هذا فذكروا له فقال: اصرفوه بما عليه إلى أبي محمد.

حكاية (٦)

اجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل البصرة فقالوا لنا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله وقد زوج ابنة له من ابن أخيه وهو فقير ليس عنده ما يجهزها به فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقًا فأخرج منه ست بدر وقال احملوا فحملوا فقال ابن عباس ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس الدنيا من القدر أن تشغل مؤمنًا عن عبادة ربه تعالى وما بنا من التكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى ففعل ففعلوا.

حكاية (٧)

ويروى أنه كان لعثمان على طلحة (ﷺ) خمسون ألف درهم فخرج عثمان يومًا إلى المسجد فقال له طلحة قد تهيأ مالك فاقبضه فقال هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك.

---

(١) انظر: قرى الضيف (٥/٤٤).

حكاية (٨)

وقالت سُعدى بنت عوف دخلت على طلحة فرأيت عليه ثقلاً فقلت مالك؟ فقال اجتمع عندي مال قد أغمني فقالت: وما تعمل ادع قومك فقسمه فيهم فقال: يا غلام علي بقومي فقسمه فيهم فسألت الخادم كم كان فقال أربعمائة ألف.

حكاية (٩)

قال الحارث المحاسبي: بلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة. فقالت عائشة رضي الله عنها ما هذا؟ فقيل لها عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف، قالت: صدق الله ورسوله فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها فقالت سمعت رسول الله ﷺ يقول **«إني رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلونها سعيًا ولم أر أحدًا من الأغنياء معهم إلا حبوا»** فقال عبد الرحمن بن عوف: فإن العير وما عليها في سبيل الله وإن أرقاءها أحرار لعلي أدخلها معهم سعيًا.

حكاية (١٠)

وعن أبان بن عثمان قال: أراد رجل أن يضار عبد الله بن عباس فأتى وجوه قريش فقال: يقول لكم عبد الله بن عباس تغدّوا عندي اليوم فأتوه حتى ملأوا عليه الدار فقال عبد الله بن عباس ما هذا؟ فأخبر الخبر فأمر عبد الله بشراء فاكهة وأمر قومًا فطبخوا وخبزوا وقدمت الفاكهة إليهم فلم يفرغوا منها حتى قدمت الموائد فأكلوا حتى صدروا فقال عبد الله لوكلائه أموجود كلما أردت مثل هذا؟ قالوا نعم قال فليتغدَّ هؤلاء عندنا كل يوم.

حكاية (١١)

وحكي أنه لما أجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال والله لأعلمن الشيطان أني عدوه فعال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار ثم عُزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم رهنهم حلى نسائه وقيمته خمسة عشر ألف ألف درهم فلما تعذر عليه ارتجاعه كتب إليهم ببيعه ودفع الفاضل منه عن حقوقهم إلى من لم تنله صلته.

حكاية (١٢)

قيل خرج عبد الله[1] بن عامر بن كُريز من المسجد يريد منزله وهو وحده فقام إليه

---

(١) هو عبد الله بن خال عثمان بن عفان، ولاه سنة ٢٩ هـ بالبصرة، وبلاد فارس، وكان عمره ٢٤ سنة.

غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه، فقال له عبد الله: ألك حاجة يا غلام؟ قال: صلاحك وفلاحك رأيتك تمشي وحدك فقلت أقيك بنفسي وأعوذ بالله إن طار بجناحك مكروه فأخذ عبد الله يده ومشى معه إلى منزله ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال استنفق هذه فنعم ما أدبك أهلك.

حكاية (١٣)

اشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بسبعين ألف درهم فلما كان الليل سمع بكاء آل خالد فقال لأهله ما لهؤلاء؟ قالوا يبكون لدارهم فقال: يا غلام ائتهم وأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعًا.

حكاية (١٤)

يروى أن عبد الله بن جعفر ﷺ خرج إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيها غلام أسود يقوم عليها فأتي بقوته ثلاثة أقراص ودخل كلب فدنا من الغلام فرمى إليه بقرص فأكله ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكلهما وعبد الله ينظر إليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت قال فلم آثرت هذا الكلب قال ما هي بأرض كلاب وإخاله جاء من مسافة بعيدة جائعًا فكرهت رده قال فما أنت صانع اليوم قال أطوي يومي هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء إن هذا أسخى مني فاشترى الحائط والغلام وما فيه من آلات ثم أعتق الغلام ووهب ذلك له(١).

حكاية (١٥)

قيل جرى بين الحسين وأخيه محمد بن الحنفية عليهم السلام كلام فانصرفا متغاضبين فلما وصل محمد إلى منزله أخذ رقعة فكتب فيها «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن علي بن أبي طالب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب. أما بعد فإن لك منزلة لا أبلغها وفضلاً لا أدركه فإذا قرأت رقعتي فالبس رداءك ونعليك وصر إليَّ فترضيني وإياك أن أسبقك إلى الفضل الذي أنت أولى به مني والسلام، فلما قرأ الحسين صلوات الله عليه الرقعة قال: يا غلام ردائي ونعلي فلبسهما ثم جاء إلى أخيه فترضاه وصالحه».

حكاية (١٦)

قال ودار بين الحسن والحسين عليهما السلام كلام فقيل للحسين: لو أتيت

---

(١) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (١/٣٤٩).

أخاك متنصلاً فقال إن الفضل للمبتدئ بالتفضل ولست أرى أن يكون لي على أخي فضل فبلغ ذلك الحسن فأتاه.

حكاية (١٧)

قال أبو الفرج الأصفهاني حدثني إسحاق قال حدثني ابن إسحاق قال حدثني مصعب الزبيري عن محمد بن عبد الله عن عبد الله بن أبي مليكة عن أبيه عن جده قال: كان بالمدينة رجل ناسك من أهل العلم والفقه وكان يغشى عبد الله بن جعفر، فسمع يومًا جارية مغنية لبعض النخاسين تغني شعرًا:

بانـت سـعاد وأمسـى حبلها انقطعا وانحلـت الغمـر فالجـدين فالفـرعا

وأنكـرتني ومـا كـان الـذي نكرت مـن الحـوادث إلا الشـيب والصلعا

فاشتهر بها وهام وترك ما كان عليه حتى مشى إليه عطاء وطاووس فلاماه فكان في جوابه لهما أن تمثل بقول الشاعر

يلـومني فـيك أقـوام أجالسـهم فمـا أبـالي أطـار اللـوم أم وقعـا

فبلغ عبد الله بن جعفر خبره فبعث إلى النخاس فاستعرض الجارية وسمع غناءها بهذا الصوت وقال لها ممن أخذتيه؟ قالت من عزة فابتاعها بأربعين ألف درهم ثم بعث إلى الرجل فسأله عن خبره فأعلمه إياه وصدقه عنه، فقال له أتحب أن تسمع هذا الصوت ممن أخذته تلك الجارية. قال نعم فدعا بعزة وقال غنه فغنته فصعق الرجل مغشيًا عليه. فقال ابن جعفر أثِمنا فيه؟ ثم قال الماء الماء فنُضح على وجهه فلما أفاق قال له أكل هذا بلغ بك عشقها قال وما خفي عنك أكثر قال أفتحب أن تسمعه منها؟ قال: قد رأيت ما نالني حين سمعته من غيرها وأنا لا أحبها فكيف يكون حالي إن سمعته منها وأنا لا أقدر على ملكها قال أفتعرفها إن رأيتها قال أو أعرف غيرها فأمر بها فأخرجت فقال خذها فهي لك ثم قال والله ما نظرت إليها من عرض فقبل الرجل يديه ورجليه وقال أنمت عيني وأحييت قلبي ونفسي وتركتني أعيش بين قومي ورددت إليّ عقلي ودعا له دعاء كثيرًا فقال ما أرضى أن أعطيكها هكذا يا غلام احمل معه مثل ثمنها لكيلا تهتم بها وتهتم بك[1].

---

(١) انظر: الأغاني (٣/١٣٥)، (٨/٢٢٦)، (١٧/١٧٩، ١٨٠) والمزهر في علوم اللغة للسيوطي (٢/٣٥٥).

حكاية ظريفة (١٨)

روى أبو موسى محمد بن الفضل بن يعقوب كاتب عيسى بن جعفر ووصيه قال حدثني أبي قال كنت آلف زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس وأكتب عنها أخبار أهلها وكان لها جارية يقال لها كُتاب وكانت كاتبة فوقعت في نفسي فبكرت إليها يومًا في حاجة لها قالت لي: سلني ما أحببت فقلت لها: إن كُتابًا جاريتك قد شغلت قلبي عليّ فهبيها لي فقالت اقعد أحدثك حديثًا كان أمس أنفع لك من كُتاب على وجه الأرض وأنت من كُتابُ على وعد.

قالت: كنت أمس عند الخيزران وعادتها إذا كنت عندها أن نجلس في عتبة باب الرواق المقابل للإيوان وأجلس بإزائها وفي الصدر مجلس للمهدي يقعد فيه وهو يقصدنا في كل وقت فيجلس ساعة ثم ينهض فبينما نحن كذلك إذ دخلت علينا جارية من جواريها اللاتي يحجبنها فقالت أعز الله السيدة، بالباب امرأة لها جمال وخلقة حسنة وليس وراء ما هي عليه من سوء الحال غاية وهي تستأذن عليك. وقد سألتها عن اسمها فامتنعت أن تخبرني، فالتفتت إليّ الخيزران وقالت: ما ترين؟ فقلت أدخليها فإنه لابد من فائدة أو ثواب فدخلت امرأة كأجمل النساء وأكملهن لا تتوارى فوقفت إلى جانب عضادة الباب ثم سلمت متضائلة ثم قالت: أنا مرية بنت مروان بن محمد الأموي، قالت زينب: وكنت متكئة فاستويت جالسة وقالت أنت مرية، فلا حيا الله ولا قرب والحمد لله الذي أزال نعمتك وهتك سترك وأذلك أتذكرين يا عدوة الله حين أتاك عجائز أهل بيتي ليسألنك أن تكلمي صاحبك في الإذن في دفن إبراهيم بن محمد فوثبت عليهن وأسمعتهن ما أسمعت وأمرت بإخراجهن فاخرجي على الحالة التي أخرجن عليها قال: فضحكت فما أنسى حسن ثغرها وعلو صوتها بالقهقهة ثم قالت أي بنت عم أي شيء أعجبك من حسن صنع الله بي على العقوق حتى رأيت أن تتأسي بي فيه والله إني فعلت بنساء أهل بيتك ما فعلت فأسلمني الله إليك ذليلة جائعة عريانة فكان هذا مقدار شكرك لله على ما أولاك فيَّ ثم قالت: السلام عليكم، وولت فصاحت بها الخيزران وقالت لها ليس هذا لك، علي استأذنت وإلي قصدت فما ذنبي فرجعت وقالت: لعمري لقد صدقت يا أختاه وكان ما ردني إليك إلا ما أنا عليه من الضر والجهد قالت زينب فنهضت إليها الخيزران لتعانقها فقالت لها ليس فيَّ لذلك موضع مع الحالة التي أنا عليها فقالت الخيزران لها فالحمام إذًا وأمرت جماعة من

جواريها بالدخول معها إلى الحمام فدخلت وطلبت ماشطة تري ما على وجهها من الشعر وخرجت جارية من جواري الخيزران وهي تضحك فقالت لها الخيزران: ما يُضحكك؟ قالت أضحك يا سيدتي من هذه المرأة وتحكمها علينا فإنها تفعل فعلاً ما تفعلينه أنت! فلم تزل حتى خرجت من الحمام فوافتها الخلع والطيبُ فأخذت من الثياب ما أرادت ثم تطيبت وخرجت إلينا فعانقتها الخيزران وأجلستها في الموضع الذي يجلس فيه المهدي إذا دخل فقالت لها الخيزران هل لك في الطعام فإنا لم نطعم بعد؟ فقالت: والله ما فيكن أحد أحوج مني إليه فعجلوه فأتي بالمائدة فجعلت تأكل غير محتشمة وتلقمنا وتضع بين أيدينا إلى أن اكتفت ثم غسلنا أيدينا فقالت لها الخيزران من وراءك ممن تعنين به قالت ما خارج هذه الدار أحد من خلق الله بيني وبينه سبب فقالت الخيزران إن كان هكذا فقومي حتى تختاري لنفسك مقصورة من مقاصيرنا وأحول إليها جميع ما تحتاجين إليه من الفرش والكسوة والحرائر والرقيق ثم تركناها فيها وخرجنا عنها فقالت الخيزران إن هذه المرأة قد كانت فيما كانت فيه وقد مسها ضر وليس يغسل ما في قلبها إلا المال فاحملوا إليها بخمسمائة ألف درهم فحملت إليها ووافانا المهدي فسألنا عن الخبر فحدثناه حديثها وما لقيتها به فوالله ما انتظر أن أعرفه جوابها حتى وثب مغضبًا في وجهي وقال: يا زينب والله إن هذا مقدار شكرك لله على نعمته وقد أمكنك الله من مثل هذه المرأة على هذه الحالة التي هي عليها فوالله لولا محلك من قلبي لحلفت أن لا أكلمك أبدًا. قلت فقد اعتذرت إليها وقد رضيت ثم قصصت عليه قصتها كلها وما فعلت الخيزران معها فقال لخادم كان معه احمل إليها مائة بدرة وادخل إليها فأبلغها مني السلام وقل لها إني والله ما سُررت منذ دهري سروري اليوم بمكانك وأنا أخوك ومن يوجب حقك فلا تدعي حاجة إلا وسألتها ولولا أني أكره أن أجشمك لصرت إليك مسلمًا عليك وقاضيًا لحقك فمضى الخادم بالمال والرسالة فأقبلت إلينا معه فسلمت على المهدي وشكرت له فعله وأثنت على الخيزران عنده وقالت: ما عليّ من أمير المؤمنين حشمة وأنا في عداد حرمه وقعدت ساعة ثم قامت إلى منزلها فخلفتها عند الخيزران كأنها لم تزل في ذلك القصر فهذا الحديث خير لك من كتاب وقد وهبت لك كتابًا قم فقمت وانصرفت من عندها.

حكاية (١٩)

قـــال أبو الفرج الأصفهاني حدثني الحسن بن علي قـــال حدثني عبد الله بن

أحمد بن حنبل قال حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال حدثنا يونس بن بُكير عن محمد بن إسحاق قال كان ناس من أهل المدينة يعيشون وما يدرون من أين معاشهم فلما مات علي بن الحسين عليهما السلام فقدوا ما كانوا يؤتون به بالليل[1].

حكاية (٢٠)

يُروى عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه عبر طائفًا بالمدينة أيام خلافته فإذا بجارية تبكي وتقول:

وهويته من قبل قطع تمائمي ... متماسيًا مثل القضيب الناعم
وكأن نور البدر يشبه وجهه ... يمسي ويصعد من ذؤابة هاشم

فقرع عليها الباب فخرجت إليه فقال لها أحرة أنت أم أمة؟ فقالت بل أمة يا صاحب رسول الله ﷺ فقال لها من هويت؟ فبكت وقالت بحق صاحب القبر إلا انصرفت عني فقال: لست ببارح مكاني حتى تعلميني فقالت:

وأنا التي قدح الفراق بقلبها ... فبكت لحب محمد بن القاسم

فصار أبو بكر ﷺ إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب ﷺ.

حكاية ظريفة (٢١)

أخبرنا أبو الحسن علي بن صالح البلخي بمصر قال أخبرنا بعض شيوخنا عن شيبة بن محمد الدمشقي قال كان في أيام سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم رجل يقال له خزيمة بن بشر من بني أسد بالرقة وكان له مروءة ونعمة حسنة وفضل وبر بالإخوان فلم يزل على تلك الحال حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يتفضل عليهم فواسوه حينًا ثم ملوه فلما لاح له تغيرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال لها يا ابنة عمي قد رأيت من إخواني تغيرًا وقد عزمت على لزوم بيتي إلى أن يأتيني الموت ثم أنه أغلق بابه عليه وأقام يتقوت بما عنده حتى نفد وبقي حائرًا في حاله وكان عكرمة الفياض الربعي واليًا على الجزيرة فبينما هو في مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد إذ جرى ذكر خزيمة بن بشر في مجلسه فقال عكرمة ما حاله؟ فقالوا صار من سوء الحال

---

(١) في الأغاني (٥/٣١٦).

إلى أمر لا يوصف فأغلق بابه ولزم بيته فقال الفياض وإنما سمي بذلك لأجل كرمه فما وجد خزيمة بن بشر مواسيًا ولا مكافئًا، قالوا لا فأمسك ثم لما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها في كيس واحد ثم أمر بإسراج دابته وخرج سرًا من أهله فركب ومعه غلام من غلمانه يحمل المال ثم سار حتى وقف بباب خزيمة ثم أخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه وتقدم فدفعه بنفسه فخرج إليه خزيمة فناوله الكيس، وقال أصلح بهذا شأنك فتناوله فرآه ثقيلاً فوضعه ثم أمسك بلجام الدابة وقال له: من أنت جعلت فداك؟ فقال يا هذا ما جئتك في هذه الساعة وأنا أريد أن تعرفني قال خزيمة فما أقبله أو تعرفني من أنت. قال أنا جابر عثرات الكرام قال: زدني قال لا مزيد ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس إلى امرأته فقال لها أبشري فقد أتى الله بالفرج والخير، ولو كان هذا فلوسًا فهو كثير قومي فأسرجي قالت لا سبيل إلى السراج فبات يلمسها فيجد خشونة الدنانير ولا يصدق فرجع عكرمة إلى منزله فوجد امرأته قد افتقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه منفردًا فارتابت فشقت جيبها ولطمت خدها فلما رآها على تلك الحال قال لها: ما دهاك قالت يا بن عمي غدرت قال: وما ذاك. قالت أمير الجزيرة يخرج بعد هدوء من الليل منفردًا من غلمانه في سر من أهله إلا إلى زوجة أو إلى سرية قال: لقد علم الله ما خرجت إلى واحدة منهما قالت فخبرني فيم خرجت قال يا هذه لم أخرج في هذا الوقت وأنا أريد أن يعلم بي أحد. قالت لا بد أن تخبرني بالقصة قال فاكتميه إذًا قالت أفعل فأخبرها بالقصة على وجهها وما كان من قوله له ورده عليه ثم قال لها أتحبين أن أحلف لك؟ قالت: لا فإن قلبي قد سكن إلى ما ذكرت قال فلما أصبح خزيمة صالح الغرماء وأصلح حاله ثم تجهز يريد سليمان بن عبد الملك بفلسطين فلما وقف ببابه دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهور المروءة وكان سليمان به عارفًا فأذن له فلما دخل عليه وسلم بالخلافة قال يا خزيمة ما أبطأك عنا؟ قال سوء الحال قال فما منعك من النهضة إلينا؟ قال ضعفي، قال فبم نهضت؟ قال لم أعلم بعد هدوء من الليل إلا ورجل طرق بابي فكان منه كيت كيت وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها فقال له هل تعرفه فقال ما عرفته يا أمير المؤمنين وذلك أنه كان متنكرًا وما سمعت منه إلا جابر عثرات الكرام قال فتلهف سليمان على معرفته وقال لو عرفناه لأعناه على مروءته ثم قال علي بقناة فعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة على عمل عكرمة الفياض فخرج خزيمة طالبًا الجزيرة فلما وصل إليها خرج عكرمة وأهل بلده

للقائه فسلم عليه ثم سارا جميعًا إلى أن دخلا جميعًا فنزل خزيمة دار الإمارة وأمر أن يؤخذ عكرمة بكفيل وأن يحاسب فحوسب فوجد عليه فضول كثيرة فطلبه بأدائها قال مالي إلى شيء منها سبيل قال: لابد منها قال ما هي عندي فاصنع ما أنت صانع فأمر به إلى الحبس ثم بعث إليه يطالبه فأرسل إليه لستُ ممن يصون ماله بعرضه فاصنع ما شئت فأمر به فكُبل بالحديد وضُيق عليه وأقام كذلك شهرًا وأكثر فأضناه ذلك وأضر به وبلغ ابنة عمه ضره فجزعت واغتمت لذلك ثم دعت مولاة لها ذات عقل وقالت امضي الساعة إلى باب هذا الأمير خزيمة بن بشر فإذا دخلت عليه فسليه أن يخليك فإذا فعل فقولي ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك أن كافأته بالحبس والضيق والحديد. قال ففعلت ذلك فلما سمع خزيمة قولها قال واسوأتاه! وأنه لهو قالت: نعم فأمر من وقته بدابته فأسرجت وبعث إلى وجوه أهل البلد فجمعهم وأتى بهم إلى باب الحبس ففتح ودخل خزيمة ومن معه فلقي عكرمة في قاعة الحبس متغيرًا قد أضناه الضر فلما نظر إليه عكرمة وإلى الناس أحشمه ذلك فنكس رأسه إليه وقال ما أعقب هذا منك قال كريم فعالك وسوء مكافأتي قال يغفر الله لنا ولك لما أمر بالحداد ففك القيد عنه وأمر خزيمة أن يوضع في رجل نفسه فقال: عكرمة تريد ماذا؟ قال أريد أن ينالني من الضر مثل ما نالك فقال أقسم عليك بالله أن لا تفعل فخرجا جميعًا إلى أن وصلا إلى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الانصراف فقال له: ما أنت ببارح قال فماذا تريد؟ قال أغير من حالك ما رث وحيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك ثم أمر بالحمام فأخلي فدخلا جميعًا ثم قام خزيمة فتولى خدمته بنفسه ثم خرجا فخلع عليه وحمله وحمل إليه مالاً كثيرًا ثم سار معه إلى داره واستأذنه في الاعتذار من ابنة عمه فأذن له فاعتذر إليها وتذمم من ذلك قال ثم سأله بعد ذلك أن يسير معه إلى أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ مقيم بالرملة فأنعم له بذلك فسارا جميعًا حتى قدما على سليمان بن عبد الملك فدخل الحاجب فأعلمه بقدوم خزيمة بن بشر فراعه ذلك وقال والي الجزيرة يقدم بغير أمرنا ما هذا إلا لحادث عظيم فلما دخل عليه قال له قبل أن يسلم عليه ما وراءك يا خزيمة؟ قال خير يا أمير المؤمنين قال فما الذي أقدمك؟ قال ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسرك لما رأيت من تلهفك عليه وتشوقك إلى رؤيته قال ومن هو؟ قال عكرمة الفياض، فأذن له بالدخول فدخل وسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه فقال له يا عكرمة ما كان خيرك لخزيمة إلا

وبالا عليك ثم قال له اكتب حوائجك كلها وما تختاره في رفعة. قال أو تعفيني يا أمير المؤمنين قال لابد من ذلك ثم دعا بدواة وقرطاس وقال اعتزل واكتب جميع حوائجك ففعل ذلك فأمر بقضائها جميعًا من ساعته وأمر له بعشرة آلاف دينار وبسفطين ثيابًا ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان وقال له أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته قال بل أرده إلى عمله ثم انصرفا جميعًا ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته.

حكاية إبراهيم بن سليمان (٢٢)

حدث الحسن بن خضر قال لما أفضت الخلافة إلى بني العباس اختفت رجال من بني أمية وكان ممن اختفى إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك حتى أخذ له داود أمانًا وكان إبراهيم رجلاً عالمًا محدثًا أديبًا فخص بأبي العباس فقال له يومًا: حدثني عما مر بك في اختفائك قال: كنت يا أمير المؤمنين مختفيًا بالحيرة في منزل شارع على الصحراء فبينما أنا على ظهر بيت إذ نظرت إلى أعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فوقع في روعي أنها تريدني فخرجت من الدار متنكرًا حتى أتيت الكوفة ولا أعرف بها أحدًا أختفي عنده فبقيت متلددًا فإذا أنا بباب كبير ورحبة واسعة فدخلت بها فإذا رجل وسيم الوجه حسن الهيئة على فرس قد دخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه فقال من أنت؟ وما حاجتك؟ فقلت: رجل مختف يخاف على دمه استجار بمنزلك فأدخلني منزله ثم صيرني في حجرة تلي حرمه فكنت عنده في كل ما أحب من مطعم ومشرب وملبس ولا يسألني عن شيء من حالي إلا أنه يركب في كل يوم ركبة فقلت له يومًا: أراك تدمن الركوب ففيم ذلك؟ فقال إن إبراهيم بن سليمان قتل أبي صبرًا وقد بلغني أنه مختف وأنا أطلبه لأدرك ثأر أبي منه فكثر والله تعجبي من إدبارنا إذ ساقني القدر إلى حتفي في منزل من يطلب حتفي ودمي وكرهتُ الحياة فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه فخبرني فعرفت أن الخبر صحيح وأني قتلت أباه صبرًا فقلت: يا هذا لقد وجب علي حقك من حقك أن أدلك على خصمك وأقرب عليك الخطوة قال: وما ذاك؟ قلت: أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك، فخذ بثأرك فقال: إني أحسبك رجلاً قد مضه الاختفاء فأحببت الموت فقلت: بل الحق قلت لك أنا قتلته يوم كذا وكذا بسبب كذا وكذا، فلما عرف صدقي أربد وجهه واحمرت عيناه وأطرق مليًا ثم قال: أما أنت فستلقى أبي فيأخذ بثأره منك وأما أنا فغير مخفر ذمتي

فاخرج عني فلست آمن من نفسي عليك بعدها وأعطاني ألف دينار فلم آخذها وخرجت من عنده فهذا أكرم رجل رأيته وهب لي دمي بعد أمير المؤمنين.

حكاية ظريفة (٢٣)

قيل: كان لعبد الله بن الزبير أرض متاخمة لأرض لمعاوية بن أبي سفيان قد جعل فيها عبيدًا له من الزنوج يعمرونها فدخلوا على أرض عبد الله فكتب إلى معاوية «أما بعد يا معاوية فإن عبدانك قد دخلوا أرضي فامنعهم عن الدخول إلى أرضي وإلا كان لي ولك شأن»، فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد فلما قرأه قال: يا بني ماذا ترى؟ قال: أرى أن تنفذ إليه جيشًا أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه. قال أو خيرًا من ذلك يا بني؛ عليّ بدواة وقرطاس فكتب: «وقفت على كتاب ابن حواري رسول الله ﷺ وآله وساءني ما ساءه والدنيا بأسرها عندي هينة في جنب رضاه وقد كتبت على نفسي صكًا بالأرض والعبدان وأشهدت عليّ فيه فليستضفها مع عبدانها إلى أرضه وعبيده والسلام»، فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب إليه «وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فلا عدم الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام». فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله رماه إلى ابنه يزيد فلما قرأه اصفر وجهه فقال له: يا بني إذا بليت بمثل هذا الداء فداوه بمثل هذا الدواء.

حكاية ظريفة (٢٤)

قال عبد الله بن سليمان: كنت بحضرة والدي في ديوان الخراج بِسُر من رأى وهو يتولاه إذ دخل عليهِ أحمد بن أبي خالد الصيرفي الكاتب فقام له أبي من مجلسه وأجلسه في صدره وتشاغل به أبي ولم ينظر في عمل حتى نهض ثم قام معه وأمر غلمانه بالخروج بين يديه فاستعظمت أنا وكل من في المجلس هذا لأن رسم أصحاب الدواوين صغارهم وكبارهم لا يقومون في الديوان لأحد ممن يدخل عليهم وتبين ذلك لأبي في وجهي فقال لي: يا بني إذا خلونا فسلني عن السبب فيما عملته مع هذا الرجل.

قال: وكان أبي يأكل في الديوان وينام فيه ويعمل عشيا الحسابات فلما جلسنا نأكل لم أذكرّه إلى أن رأيت الطعام قد كاد ينقضي فقال لي: يا بني شغلك الطعام عما قلت لك أن تذكرني به؟ فقلت: لا ولكن أردت أن يكون ذلك على خلوة؟ فقال: يا بني هذا وقت خلوة؟ ثم قال: ألست أنك أنكرت والحاضرون قيامي لأحمد بن أبي خالد في دخوله وخروجه وما عملته معه فقلت: بلى فقال: كان هذا يتقلد مصر

وصرفته عنها وقد كانت مدته فيها طالت فتتبعت آثاره فرأيت آثار رجل لم أر أجمل آثارًا منه ولا أعف عن أموال السلطان والرعية ولا رأيت رعية لعامل أشكر من رعيته له، وكان الحسين الخادم المعروف "بعرق الموت" صاحب البريد بمصر أصدق الناس له مع هذا وكان من أبغض الناس أشدهم اضطرابًا في أخلاقه فلم أتعلق عليه بحجة ووجدته وقد أخر رفع الحساب لسنة متقدمة وبسنته التي هو فيها ولم يستتمها له بصرفي عنها ولم ينفذه إلى الديوان فسمته أن يحط من الدخل ويزيد في النفقات والأرزاق ويكثر من البقايا في كل سنة مائة ألف دينار لآخذها لنفسي فامتنع من ذلك فأغلظت له وتوعدته ونزلت إلى مائة ألف عن السنتين وحلفت أيمانًا مغلظة مؤكدة أني لا أقنع منه بأقل منها على امتناعه وقال أنا لا أخون فكيف أخون لغيري وأزيل ما قام به جاهي من العفاف فحبسته وقيدته فلم يجب وأقام مقيدًا في الحبس شهورًا فكتب (عرق الموت) صاحب البريد بالخير إلى المتوكل وحلف له أن أموال مصر لا تفي بنفقتي ومئونتي ويصف أحمد بن أبي خالد ويذكر ميل الرعية إليه وعفته. فأنا ذات يوم على المائدة إذ وردت عليّ رقعة أحمد بن أبي خالد يسألني استدعاءه لمهم يلقيه إلي فلم أشك في أنه قد عرض بالقيد والحبس وقد عزم على الاستجابة لمرادي فلما غسلت يدي ودعوته فاستخلاني فأخليته فقال: أما آن لك يا سيدي أن ترق لي مما أنا فيه من غير ذنب إليك ولا جرم ولا قديم ذحل ولا عداوة؟

فقلت أنت اخترت لنفسك ذلك وقد سمعت يميني وليس لي منها مخرج فاستجب لما أريده منك فأخذ يستعطفني فجاءني بضد ما قدرته فيه فغاظني فشتمته وقلت هذا الأمر المهم الذي ذكرت لي في رقعتك أنك أردت إلقاءه إلي هو أن تستعطفني وتستجيرني وتخدعني فقال: يا سيدي فليس الآن عندك غير هذا فقلت: لا فقال: إذا كان ليس عندك غير هذا فاقرأ يا سيدي هذا، وأخرج لي كتابًا لطيفًا مختومًا في ربع قرطاس ففضضته فإذا هو بخط المتوكل الذي أعرفه إلي بالانصراف ولتسليم ما أتولاه إلى أحمد بن خالد والخروج إليه مما يلزمني ورفع الحساب إليه وطاعته والمسير عن مصر بعد ذلك فورد عليّ أقبح مورد لقرب عهد الرجل بشتمي له وأنه في الحال تحت حديدي ومكارهي فأمسكت مبهوتًا ولم ألبث إلى أن دخل أمير مصر إذ ذاك في أصحابه وغلمانه فوكل بداري وجميع ما أملك وبأصحابي وغلماني وجهابذتي وكتابي وجعلت أزحف من الصدر حتى صرت بين يدي أحمد بن أبي خالد وهو في قيوده

فدعا أمير البلد بحداد فحل قيوده فوثب قائمًا ثم قال لي: يا أبا أيوب أنت قريب عهد بعمالة هذا البلد ولا منزل لك فيه ولا صديق ومعك حسرم وحاشية وليس يسعك غير هذه الدار وكانت دار العمالة وأنا أجد عدة مواضع وليس لي كبير حاشية ومن نكبة وقيد خرجت فأقم بمكانك وخرج عني وصرف التوكيل عني وعن الدار وأخذ كتابي وأنسابي إليه فلما انصرف قلت لغلماني هذا الذي نراه في النوم انظروا من وكل بنا فقالوا ما وكل بنا أحد فعجبت من ذلك عجبًا شديدًا وما صليت العصر حتى عاد إلي من كان حمله معه من المتصرفين والكتاب والجهابذة مطلقين وقالوا أخذ خطوطنا برفع الحساب وأمرنا بالملازمة وأطلقنا فازداد عجبي.

فلما كان من غد باكرني مسلمًا ورحت إليه في عشية ذلك اليوم فأقمت ثلاثين يومًا إن سبقني إلى المجيء وإلا رحت إليه وإن راح إليّ وإلا باكرت إليه وفي كل يوم تجيئني هداياه وألطافه من الثلج والفاكهة والحيوان والحلوى والطيب فلما كان بعد ثلاثين يومًا جاءني فقال: قد عشقت مصر يا أبا أيوب والله ما هي طيبة الهواء ولا عذية فإنما تطيب لغير أهلها بالولاية فيها والاكتساب فلو دخلت إلى بغداد وسر من رأى لما أقمت إلا شهرًا وتتقلد أجل الأعمال قال: فقلت: والله ما أقمت إلا متوقعًا لأمرك في الخروج فقال أعطني خط كاتبك بأن عليه القيام بالحساب واخرج في حفظ الله فأحضرت كاتبي فأخذت خطه كما ذكر وسلمت الخط إليه فقال لي: اخرج أي وقت شئت ثم خرج من غد هو وأمير مصر وقاضيها ووجوهها وأهلها وشيعوني إلى ظاهر البلد وقال تقيم في أول منزل على خمس فراسخ إلى أن أزيح[1] عليك قائدًا يصحبك برجاله إلى الرملة فإن الطريق فاسد فاستوحشت من ذلك وقلت هذا إنما غرني حتى أخرجت كل ما أملكه وجميع ما كسبته فيتمكن منه في ظاهر البلد فيقبضه ثم يردني إلى الحبس والتوكيل والمطالبة ويحتج عليَّ بكتاب ثان يذكر أنه وصله فخرجت فأقمت بالمرحلة التي ذكر مستسلمًا متوقعًا للشر فما كان إلا ساعة وإذا أوائل الخيل مقبلة من مصر فقلت لعله القائد الذي يريد أن يُصحبني إياه أو لعله القائد الذي يريد أن يقبض علي به فأمرت غلماني بمعرفة ذلك وما الخبر فقالوا العامل أحمد بن أبي خالد قد جاء فلم أشك في أنه قد ورد للبلاد يورده فخرجت من مضربي فلقيته وسلمت عليه فلما

---

(١) في الفرج بعد الشدة للمصنف (١٣٢/١) أزيح كما هو مثبت.

جلس قال: أخلونا فلم أشك أنه للقبض عليّ فطار عقلي وقام من كان عندي فلما لم يبق عندي أحد قال: أنا أعلم أن أيامك لم تطل بمصر ولا حظيت بكثير فائدة وذلك الباب الذي سألتنيه في ولايتك ولم أجب إليه وأخرت الإذن لك في الانصراف منذ أول الأمر إلى الآن لأني تشاغلت بالفراغ لك منه وقد حططت من الارتفاع وزدت في النفقات في كل سنة خمسة عشر ألف دينار ليكون للسنتين ثلاثون ألف دينار وهو تقريب لا يظهر ولا يكون أيسر مما أردته مني ذلك الوقت وقد جمعته لك وهذا المال على البغال وقد جئتك به فتقدم إليّ من يتسلمه فتقدمت بقبضه وقبلت يده وقلت له: والله يا سيدي قد فعلت ما لم يفعله البرامكة فأنكر ذلك وتقبض منه وقبل يدي ورجلي وقال: ههنا شيء آخر أريد أن تقبله فقلت: ما هو قال خمسة آلاف دينار قد استخففتها من رزقي وامتنعت من ذلك وقلت فيما تفضله به كفاية فحلف بالطلاق أن أقبلها منه فقبلتها فقال: وههنا ألطاف من هدايا مصر أحببت أن أصحبك إياها فإنك تمضي إلى كتاب الدواوين ورؤساء الحضرة فيقولون لك: وليت مصر فأين نصيبنا من هداياها؟

ولم تطل أيامك فتعد ذلك لهم وقد جمعت لك منه على ما يشتمل عليه هذا الثبت وأخرج درجًا فيه ثبت جامع لكل شيء في الدنيا حسن ظريف جليل القدر من كل جنس من ثياب دبيقي وقصب وخدم وبغال ودواب وحمير وفرش وطيب حتى أقلام ومداد ما يكون قيمته مالاً عظيمًا فأمرت بتسليمه وزدت في شكره.

فقال لي: يا سيدي أنا مغرى بحب الفرش وقد استعملت لي بيت أرمني بأرمينيته عشرة مصليات بمخادها ومساندها ومساورها ومطارحها وبساطها وهو مذهب بطرز ذهبية قد قام عليّ بخمسة آلاف دينار على شدة احتياجي وقد أهديته لك فإن أهديته للوزير عبدك وإن أهديته إلى الخليفة ملكته وإن أبقيته لنفسك وتجملت به كان أحب إليك وإلي قال: وحمله إليّ فما رأيت مثله قطّ ولم تسمح نفسي بإهدائه إلى أحد ولا استعماله فما ابتذلت منه شيئًا إلا يوم إعذارك فإني نجدت منه الصدر ومسندة ومساوره ومخاده فتلومني يا بني على أني أقوم لهذا الرجل قال: فقلت: لا والله يا أبي ولا على ما هو أكثر من القيام لو كان مستطاعًا.

قال: وكان أبي بعد ذلك إذا صرف رجلاً عامله بكل جميل ويقول علمنا ابن أبي خالد أحسن الله جزاءه حسن الصرف.

حكاية (٢٥)

قيل: لما احترق المسجد بمصر ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فأحرقوا خانًا لهم وقبض السلطان جماعة من الذين أحرقوا الخان وكتب رقاعًا فيها القتل وفيها القطع وفيها الجلد فنثرها عليهم فمن وقعت له رقعة فُعل به ما فيها. فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال: ما كنت أبالي لولا أم لي وكان إلى جانبه بعض الفتيان فقال: في رقعتي الجلد وليست لي أم فادفع إليّ رقعتك وخذ رقعتي ففعلا ذلك فقتل ذاك وجلد هذا.

حكاية ظريفة للثوري (٢٦)

قال الأستاذ أبو علي لما رفع غلام خليل من الصوفية إلى الخليفة على قوم بالزندقة أمر بضرب أعناقهم فأما الجُنيد فإنه تستر بالفقه وكان يفتي على مذهب أبي ثور وأما الشحام والرقام والثوري وجماعة فقُبض عليهم وبُسط النِطعُ لضرب أعناقهم فتقدم الثوري فقال له السياف: أتدر لماذا تتقدم؟ قال: نعم قال: وما يُعجلك؟ قال: أؤثر أصحابي بحياة ساعة فتحير السياف ونمى الخبر إلى الخليفة فردهم إلى القاضي ليتعرف أخبارهم فألقى القاضي على أبي الحسن الثوري مسائل فقهية فأجاب عن الكل ثم أخذ يقول: وبعدُ فإن لله عبادًا إذا قاموا قاموا لله وإذا نطقوا نطقوا بالله وسرد ألفاظًا حتى أبكى القاضي فأرسل إلى الخليفة وقال إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم.

حكاية الحجاج (٢٧)

قال: لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير رحل إلى عبد الملك بن مروان ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله فلما قدم على عبد الملك لم يبدأ بشيء من الكلام سوى أن قال: قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز في الشرف والأبوة ولم أدع له والله فيها نظيرًا في كمال المروءة والأدب وحُسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القرابة من أمير المؤمنين إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله فافعل به يا أمير المؤمنين ما يستحق أن يفعل بمثله في أبوته وشرفه فقال له: يا أبا محمد أذكرتنا حقًا واجبًا ورحمًا قريبة ائذنوا لإبراهيم فلما دخل وسلم، أمره بالجلوس في صدر المجلس وقال له عبد الملك إن أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفك به في الأبوة والشرف فلا تدع حاجة من خاص أمرك وعامة إلا سألتها فقال إبراهيم: أما الحوائج التي ينبغي بها الزلف

ويُرجى بها الثواب فما كان لله خالصًا ولنبيه ﷺ ولك وللمسلمين عندي نصيحة لا أجد بدًا من ذكري إياها قال: أهي دون أبي محمد؟

قال: نعم قال: قم يا حجاج قال: فنهض الحجاج خجلاً لا يُبصر أين يطأ ثم قال: قل يا بن طلحة فقال يا أمير إنك عمدت إلى الحجاج في ظلمه وتغطرسه وتعذبه وبعده عن الحق وإصغائه إلى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من فيهما من أبناء المهاجرين والأنصار وأصحاب رسول الله ﷺ يسومهم الخسف ويطؤهم بالعسف بطعام أهل الشام ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا لإزاحة باطل فاعزله قال: فأطرق عبد الملك ثم رفع رأسه وقال: كذبت وردست يا بن طلحة ولقد ظن بك الحجاج غير ما هو فيك قم فربما ظن الخير بغير أهله. قال إبراهيم: فقمت وأنا ما أبصر طريقًا قال: وأتبعني حرسيا وقال: أشدد يدك به قال إبراهيم: فما زلت جالسًا ودُعي الحجاج فما زالا يتناجيان طويلاً حتى ساء ظني ولا أشك في أنه في أمري قال: ودعا لي فقمت فلقيني الحجاج في الصحن خارجًا فقبل بين عيني وقال إذا جزى الله المتواخن بفضل ودهم خيرًا فليحسن جزاءك والله لئن عشت لك لأرفعنَّ ناظرك ولأوطئن عقبك قال: فقلت في نفسي: يهزأ بي والله الحجاج ودخلت على عبد الملك فأجلسني مجلسي ثم قال: يا بن طلحة هل شركك في نصيحتك أحد؟ فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ولا أردت إلا الله ورسوله والمسلمين وأنت، قال: قد علمتُ ذلك وقد عزلت الحجاج عن الحرمين عندما كرهته وأعلمته أنك استقللت له ذلك وسألتني له ولاية كبيرة له ليلزمه من ذمامك ما يؤدي به عني إليك أجر نصيحتك فاخرج معه فإنه غير ذام صحبته.

حكاية الإسكندر (٢٨)

«قال القاضي أبو القاسم علي بن المحسن بن علي التنوخي في كتابه «**الفرج بعد الشدة**» ذكره»[(١)].

حدثني أبو الفرج الأصفهاني من حفظه قال قرأت في بعض أخبار الأوائل أن الإسكندر لما انتهى إلى الصين ونازل ملكها أتاه حاجبه وقد مضى من الليل شطره. فقال له: رسول ملك الصين بالباب يستأذن عليك فقال: ائذن له فلما دخل وقف بين يديه وسلم وقال: إن رأى الملك أن يخليني فليفعل فأمر الإسكندر من بحضرته

---

(١) في (٣/٢).

بالانصراف وبقي حاجبه فقال الرسول: إن الذي جئت به لا يحتمل أن يسمعه غيرك فأمر بتفتيشه ففتش فلم يوجد معه شيء من السلاح فوضع الإسكندر بين يديه سيفًا مجردًا وقال له: قف مكانك وقل ما شئت ثم أخرج كل من كان عنده فلما خلا المكان قال له الرسول: إني أنا ملك الصين لا رسوله وقد حضرت أسألك عما تريده مني فإن كان مما يمكن الانقياد له ولو على أصعب الوجوه أجبت إليه وغنيت أنا وإياك عن الحرب فقال له الإسكندر: وما آمنك مني؟ قال: علمي بأنك رجل عاقل وأنه ليس بيننا عداوة متقدمة ولا مطالبة بذحل وإنك تعلم أن أهل الصين إن قتلتني لا يسلمون إليك ملكهم ولم يمنعهم عدمهم إياي أن ينصبوا لأنفسهم ملكًا غيري ثم تنسب أنت إلى غير الجميل وضد الحزم، فأطرق الإسكندر مفكرًا في مقالته وعلم أنه رجل عاقل ثم قال له: إن الذي أريده منك ارتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلًا ونصف ارتفاعه في كل سنة — قال: هل غير ذلك شيء. قال: لا، قال: قد أجبتك قال: فكيف يكون حالك حينئذ قال: أكون قتيل أول محارب وأكلة أول مفترس قال: فإن قنعت منك بارتفاع سنتين كيف يكون حالك حينئذ؟ قال: أكون أصلح مما أكون إذا ألزمت بما تقدم ذكره قال: فإن قنعت منك بسنة واحدة قال يكون ذلك مجحفًا بملكي ومذهبا لجميع أحزاني قال: فإن اقتصرت منك على السدس قال: يكون السدس موفرًا والباقي لجيشي ولأسياف الملك قال: قد اقتصرت على هذا فشكره وانصرف فلما أصبح وطلعت الشمس أقبل جيش الصين حتى طبق الأرض وأحاط بجيش الإسكندر حتى خافوا الهلكة وتواثبت أصحابه فركبوا واستعدوا للحرب فبينما هم كذلك إذ ظهر ملك الصين عليه التاج فلما رأى الإسكندر ترجل فقال له: أغدرت قال: لا والله فقال: فما هذا الجيش قال أردت أن أعلمك أني لم أطعك من أقلة ولا ضُعف ولأن ترى الجيش وما غاب عنك منه أكثر لكني رأيت العالم الأثير عليك مقبلاً ممكنًا لك فعلمت أنه من حارب العالم الأثير غُلب فأردتُ طاعته بطاعتك والذلة لأمره بالذلة لك فقال الإسكندر: فليس مثلك من يؤخذ منه شيء فما رأيت بيني وبينك أحد يستحق التفضيل والوصف بالعقل غيرك وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرف عنك فقال ملك الصين: أما إذا فعلت ذلك فلست تخسر فلما انصرف الإسكندر أتبعه ملك الصين من الهداية والألطاف بضعف ما كان قرر معه.

حكاية ظريفة (٢٩)

حدث نُمير الهلالي قال: كان في فتيان بني هلال فتى يقال له بشر بن عبد الله وكان يُعرف بالأشتر وكان من سادات بني هلال وأحسنهم وجهًا وأسخاهم كفًا وكان معجبًا بجارية من قومه تدعى جيداء وكانت بارعة الجمال ثم اشتهر أمره وأمرها وظهر خيرهما ووقع الشر بين أهليهما إلى أن كانت بين الفريقين دماء ثم افترقوا وابتعدت منازلهم قال نمير: فلما طال على الأشتر الفراق وتمادى البُعد جاءني فقال: يا نمير هل من خير قلت: عندي فقل ما أحببت فقال: أتساعدني على زيارة جيداء فقد أذهب الشوق روحي قلت: نعم بالحب والكرامة فانهض بنا إذا شئت فركب وركبت معه وسرنا يومنا وليلتنا والغد حتى إذا كان العشاء أنخنا رواحلنا في شعب قريب من الفريق فقال: يا نمير اذهب فتأنس بالناس واذكر إن لقيت أحدًا أنك طالب ضالة ولا تعرض بذكري بين شفة ولسان إلا أن تلقى جاريتها فلانة راعية غنمهم فاقرئها مني السلام وسلها عن الخبر وأعلمها موضعي قال: فخرجت لأعد ما أمرني به حتى لقيت الجارية وأبلغتها الرسالة وأعلمتها بمكانه وسألتها عن الخبر فقالت: هي والله مشدد عليها محتفظ بها ولكن موعدكم أولئك الشجرات اللواتي عند أعقاف البيوت مع صلاة العشاء قال: فانصرفت إلى صاحبي فأعلمته الخبر ثم نهضت أنا وهو نقود رواحلنا حتى أتينا الموعد فلم نلبث إلا قليلاً وإذا جيداء تمشي قريبًا منا، فوثب الأشتر فصافحها وسلم عليها وقمت أنا موليًا عنهما فقالا: نُقسم عليك إلا رجعت فو الله ما نحن في مكروه ولا بيننا ما يُستر عنك فرجعت فجلست معهما فقال لها: ما فيك حيلة يا جيداء فنتعلل الليلة قالت لا والله ما إلى ذلك سبيل إلا أن يرجع الذي عرفت من البلاء والشر فقال لها لابد من ذلك ولو كان ما عسى أن يكون قالت فهل في صاحبك هذا من خير قلتُ قولي ما بدا لك فإنني أنتهي إلى رأيك ولو كان في ذلك ذهاب نفسي فخلعت ثيابها وقالت البسها وأعطني ثيابك ففعلت ثم قالت: اذهب إلى بيتي وادخل إلى ستري فإن زوجي سيأتيك فيطلب منك القدح فيحلب فيه ثم يأتيك بعد فراغه من الحلب والقديد فلان فيقول هاك غبوقك فلا تأخذه منه حتى يطول ذلك عليه ثم تأخذه أو دعه حتى يضعه ثم يذهب ولست تراه حتى يُصبح إن شاء الله تعالى قال: فذهبت وفعلت ما أمرتني حتى إذا جاء بالقدح فلم آخذه منه حتى طال نكدي عليه ثم أهويت لآخذه منه وأهوى هو ليضعه فاختلفت أيدينا على الإناء فانكفأ وأريق اللبن فقال إن

هذا لطماح جدًا وضرب بيده إلى مقدم البيت وأخرج سوطًا ملويًا مثل الثعبان ثم دخل فهتك الستر علي واتبع السوط مني تمام عشرين سوطًا- ثم جاءت أمه وأخته فانتزعتاني من يده فلا والله ما فعلا ذلك بي حتى زال عقلي وهممت أن أوجزه بالسكين وإن كان فيها الموت فلما خرجوا شددت ستري وقعدت كما كنت فلم ألبث إلا قليلاً حتى دخلت أم جيداء فكلمتني وهي لا تشك في أني ابنتها فاندفعت في البكاء والنحيب وتغطيت بثوبي ووليتها ظهري فقالت: يا بنيه اتقي الله في نفسك ولا تعرضي للمكروه زوجك فذلك أولى بك وأما الأشتر فلك آخر الدهر وخرجت من عندي وقالت: سأرسل إليك أختك تؤنسك الليلة فلبثت غير كثير فإذا الجارية قد جاءت وجعلت تبكي وتدعو على من ضربني وأنا لا أكلمها ثم انضجعت إلى جنبي فلما استمكنت منها شددت يدي في فيها وقلت: يا هذه تلك أختك مع الأشتر وقُطع الليلة بسببها ظهري وأنت أولى بالستر عليها فاختاري لنفسك ولها فوالله لئن تكلمت بكلمة لأصيحن أنا بجهدي حتى تكون الفضيحة شاملة ثم رفعت يدي عن فيها فاهتزت كما يهتز القضيب فلم أزل بها حتى أنست فباتت والله معي أحسن رفيق رافقته ولم نزل نتحدث وتضحك مني ومما نالني وتمكنت منها تمكن لو رام ريبة قدر عليها ولكن الله عصم فله الحمد ولم نزل كذلك حتى برق الفجر فإذا جيداء قد دخلت علينا فلما رأتنا ارتاعت وقالت: ويحك من هذه؟ قلت: اختك قال: وما الخبر؟ فقلت: هي تخبرك فإنها والله نعم الأخت فأخذت ثيابي ومضيت إلى صاحبي فركبت أنا وهو وحدثته ما أصابني وكشفت له عن ظهري فإذا فيه ضرب رمى الله ضاربه بالنار وكل ضربة يخرج منها الدم فلما رأى ذلك قال لقد عظم صنيعك ووجب شكرك وطال برك فلا حرمني الله مكافأتك ولم يزل لي شاكرًا معترفًا.

حكاية ظريفة (٣٠)

حدث عبد الرحمن بن عمر الفهري عن رجال سماهم قال: أمر المأمون بن الرشيد أن يحمل إليه عشرة من البصرة كانوا قد رموا بالزندقة عنده فحملوا فبينما أحد الطفيليين جائزًا إذ رآهم مجتمعين يمضى بهم إلى الساحل للمسير إلى بغداد فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة فانسل معهم ودخل في جملتهم ومضى بهم إلى الموكلين إلى البحر فأطلعوهم في زورق قد أعد لهم فقال الطفيلي: لا شك أنها نزهة فصعد معهم في الزورق فلم يكن بأسرع من أن قيد القوم وقيد الطفيلي معهم فعلم أنه قد وقع فرام

الخلاص فلم يقدر ثم دفع الملاح وساروا إلى أن وصلوا بغداد وحملوا حتى أدخلوا على المأمون بن الرشيد فأمر بضرب أعناقهم فاستدعي بأسمائهم رجلاً رجلاً وهو يقتل حتى لم يبق إلا الطفيلي وفرغت العدة فقال للمتوكلين بهم: ما هذا؟ فقالوا: والله ما ندري يا أمير المؤمنين غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به فقال المأمون: ما قصتك ويلك، فقال يا أمير المؤمنين امرأته طالق إن كان يعرف من أقوالهم وحديثهم شيئًا ولا يعرف غير لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ وإنما أنا رأيتهم مجتمعين فظننت أنهم يدعون إلى وليمة أو دعوة فالتحقت بهم.

قال: فضحك المأمون وقال من شؤم التطفيل إلى أن أحل بصاحبه هذا المحل؟ لقد سلم هذا الجاهل من الموت ولكن يؤدب حتى يتوب قال: وكان إبراهيم بن المهدي حاضرًا يومئذ فقال: يا أمير المؤمنين هبه لي حتى أحدثك بحديث عن نفسي في التطفل عجيب. قال قد وهبته لك هات حديثك فقال: يا أمير المؤمنين خرجت يومًا متنكرًا أنظر إلى سكك بغداد فاستهواني التفريج وانتهى بي المشي إلى موضع شممت منه رائحة طعام وأبازير قد فاحت فاشتاقت نفسي إليها ووقفت يا أمير المؤمنين لا أقدر على المضي فرفعت بصري وإذا بشباك ومن داخله كف ومعصم ما رأيت أحسن منه فوقفت حائرًا ونسيت روائح الطعام بذلك الكف والمعصم وأخذتُ في إعمال الحيلة إلى الوصول فنظرت وإذا خياط قريب من ذلك الموضع فتقدمت عليه فرد عليّ السلام فقلت: يا سيدي لمن هذه الدار؟ فقال: لرجل من البزازين قلت ما اسمه؟ قال: فلان بن فلان.

قلت: أهو ممن يشرب الخمر؟ قال: نعم وأحسست أن اليوم عنده دعوة وليس ينادم إلا تجارًا مثله وبينما نحن في كلام إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان فقال: هذان ندما فقلت: ما أسماؤهما؟ فقال: فلان وفلان: وما كنيتهما؟ قال: فلان وفلان فحركت دابتي فلحقتهما وقلت: جعلت فداءكما قد استبطأكما فلان أعزه الله وسايرتهما حتى أتينا الباب فدخلت ودخلا خلفي فلما رآني صاحب الدار معهما لم يشك في أني منهما بسبيل فرحب بي فأجلسني في أفضل المواضع حتى جيء بالمائدة ونُقلت إليها الألوان فكان طعمها يا أمير المؤمنين ألذ وأطيب من روائحها فقلت في نفسي: هذه الألوان قد من الله عليّ ببلوغ الفرض منها بقي الكف والمعصم ثم جيء بالماء فغسلنا أيدينا ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة فإذا هو أشكل منزل وأدفه في سائر أموره وجعل

صاحب المنزل يتلطف بي ويقبل علي في الحديث لظنه أني ضيف لأضيافه وهم لي على مثل ذلك يظنون أن إكرامه عن معرفة متقدمة وصداقة حتى إذا شربنا أقداحًا خرجت علينا جارية كأنها غصن بان في غاية الظرف وحسن الهيأة فسلمت غير خجلة وأثنيت لها وسادة فجلست وأتي بعود فأخذته وجسته أحسن جس وإذا هي حاذقة واندفعت تغني فغنت:

توهمها طرفي وأصبح خدها　　وفيه مكان الوهم من نظري أثر

وصافحها كفي فآلم كفها　　فمن ضم كفي في أناملها عقر

فهيجت يا أمير المؤمنين بلابلي وطربت لحسن شعرها وحذقها ثم اندفعت فغنت أيضًا:

أشرت إليها هل عرفت مودتي　　فردت بطرف العين أني على العهد

فحدث عن الإظهار عمدًا بسرها　　وحادت عن الإظهار أيضًا على عمد

فصحت السلاح وجاءني من الطرب ما لم أملك نفسي معه وطرب القوم طربًا شديدًا ثم غنت:

أليس عجيبًا أن بيتًا يضمني　　وإياك لا نخلو ولا نتكلم

سوى أعين تُبدي سرائر أنفس　　وتقطيع أنفاس على النار تضرم

إشارة أفواه وغمز حواجب　　وتكسير أجفان وكف تسلم

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذقها وإصابتها معنى الشعر لأنها لم تخرج من الفن الذي ابتدأت به، فقلت: قد بقي عليك يا جارية شيء فرمت بالعود وقالت متى كنتم تحضرون في مجالسكم البغضاء؟ فندمت على ما كان مني ورأيت القوم كأنهم قد تنكروا بي فقلت في نفسي: فاتني جميع ما أملت إن لم أتلاف قصتي، فقلت: أعندكم عود آخر قالوا: نعم فأتيت بعود مليح الصنعة فأصلحت ما أردت فيه ثم اندفعت فغنيت:

ما للمنازل لا تجيب حزينًا　　أصممن أم قدم البلى فبلينا

راحوا العشية روحة مذكورة　　إن متن متن وإن حيين حينا

فما استتمته يا أمير المؤمنين حتى وثبت الجارية فأكبت على قدمي ويدي

تقبلهما وتقول: معذرة إليك يا سيدي، والله ما علمت مكانك ولا سمعت مثل هذه الصنعة من أحد ثم زاد القوم في إكرامي وتبجيلي وطربوا غاية الطرب وشربوا بالطاسات فلما رأيت طربهم اندفعت وغنيت:

قضى الله أن تمسي ولا تذكريني ... وقد سجمت عيناي من ذكرك الدما

إلى الله أشكو بخلها وسماحتي ... لها عسل مني وتبذل علقمًا

فردي مصاب القلب أنت قتلته ... ولا تتركيه ذاهب القلب مغرما

إلى الله أشكو أنها أجنبية ... أكون لها ما عشت بالود محرمًا

فرأيت من طرب القوم شيئًا حسبت أنهم قد فارقوا عقولهم فأمسكت عنهم ساعة حتى راجعوا أمرهم وهدأت نفوسهم ثم اندفعت فغنيت(١):

هذا محبك مطوي على كمده ... وجدًا مدامعه تجري على جسده

له يد تسأل الرحمن راحته ... مما به ويد أخرى على كبده

يا من رأي كلفًا مستهزءًا دنفا ... كانت منيته في عينه ويده

فجعلت تصيح هذا والله الغناء، لا ما نحن فيه وشرب القوم وسكروا وبقي في صاحب الدار مسكة لجودة شربه فأمر غلمانه بحفظهم وحملهم إلى منازلهم وانصرفوا وخلوت معه وشربت أقداحًا ثم قال: يا سيدي ذهب ما مضى من عمري هدرًا إذ لم أعرف مثلك ولم أحاضر ريسًا يشبهك فبالله يا مولاي من أنت لأعرف نديمي؟ فأخذت أروي عليه وهو يُقسم عليَّ إلى أن أعلمته من أنا على الحقيقة فوثب قائمًا على قدميه وقال: لقد عجبت أن يكون هذا الفضل إلا لمثلك ولقد أسدى الزمان إليّ يدا أقوم بشكرها ومتى طمعت بأن تزورني الخلافة؟ فأقسمت عليه إلى أن جلس ثم أخذ يسألني ما السبب في حضوري عنده بألطف معنى؟

فأخبرته يا أمير المؤمنين بالقصة من أولها إلى آخرها وما سترت منها شيئًا ثم قلت: أما الطعام فقد نلت منه بغيتي، فقال: والكف والمعصم إن شاء الله تعالى ثم قال: يا فلانة قولي لفلانة جارية له تنزل. ثم جعل يستدعي واحدة واحدة ويعرضها علي

---

(١) أورد الجاحظ هذه الأبيات في المحاسن والأضداد (ص٢٣) وقائلها: خالد الكاتب.

وأنا لا أرى صاحبتي إلى أن قال: والله ما بقي غير أمي وأختي ووالله لأنزلنهما فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت: جعلت فداك ابدأ بالأخت فقال: حبا وكرامة، ثم نزلت أخته فأراني يديها فإذا هي التي رأيتها فقلت حسبك هذه الجارية فأمر غلمانه لوقته باستدعاء عشرة مشايخ سماهم لهم ثم قام فأخرج بدرتين فيهما عشرون ألف درهم وحضرت المشايخ فقال لهم: هذا سيدي إبراهيم بن المهدي يخطب لي أختي فلانة وأشهدكم أني قد زوجتها له وأمهرتها عنه عشرة آلاف درهم فقلت: قد رضيت وقبلت النكاح فشهدوا علينا ثم دفع البدرة الواحدة إلى أخته والأخرى دفعها إلى المشايخ ثم قال: اعذروا فهو ما حضر على هذا الحال فشكروا ودعوا له وانصرفوا ثم قال: يا سيدي أمهد لك بعض الوقت فتنام مع أهلك فأحشمني ما رأيت من كرمه أن أخلو بها إلى منزلي فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل إليّ من الجهاز ما ضاقت عنه منازلنا على سعتها فأولدتها هذا الغلام القائم بين يدي أمير المؤمنين فعجب المأمون من كرم هذا الرجل فقال: لله دره! ما سمعت قط بمثل هذا فعلة ثم أطلق الطفيلي وأجازه وأمر إبراهيم بإحضار الرجل ليشاهده فأحضره بين يديه فاستنطقه فأعجب به وصار من جملة خواصه ومحاضريه.

حكاية (٣١)

حكى شيخ من أهل العلم قال: كان شيخ يجلس إليّ فأي شيء تكلمت به من العلوم بكى حتى طال ذلك عليّ فقلت له يومًا من الأيام وقد خلونا: أراك ملازمًا مجلسي لم لا تسأل عن شيء؟ ولا أزال أراك باكيًا فما حالك؟ قال: نعم يا سيدي، كنت رجلاً أشتري الغلمان وأبيعهم لأجل الفائدة فوقع لي دفعة غلام وضيء الوجه، كامل الخلقة، وكان صغيرًا فابتعته بثلاثمائة دينار وزينته وهيأته لمن يرغب فيه وفي ابتياعه فعبر بنا ذات يوم غلام شاب حسن الوجه فلما رأى الغلام نزل عن دابته وقال: هذا الغلام للبيع؟ قلت: نعم فقلب الغلام واستعرضه وقال: ما اسمك وما جنسك وما الذي تُحسن أن تعمل؟

ثم قال: بكم هو؟ قال: فقلت: بألف دينار فغمز يد الغلام غمزة ثم انصرف فنظرت فإذا في يد الغلام صُرة فاعتبرتها فإذا هي مائة دينار فقلت له: أتعرف الرجل؟ فقال: لا. فلما كان من الغد جاء ففعل كفعله بالأمس، فلما كان اليوم الثالث جاء ففعل كفعله في اليومين المتقدمين فقلت في نفسي ما وهب هذا لهذا ثلاثمائة دينار إلا

وهو يهواه وليس يقدر على ما ذكرته له فتبعته حتى عرفت منزله فلما كان وقت العشاء أمرت الغلام بلبس أفخر الثياب وطيبته وزينته وقلت له: إن هذا الرجل قد صار إلينا منه مثل شنك وقد عزمت على حملك إليه فكن له طوعًا وأعلمني بما يجري لك معه.

وسرت به إلى منزل الرجل بعد صلاة العشاء الآخرة فنقرت الباب نقرات فخرج وفتح الباب فلما رآنا بهت ثم استرجع وقال: ما الذي جاء بكما فقلت: إن هذا الغلام قلبته علي بعض الملوك البغداديين الساعة ولم ينفصل لي أمر معه وأخاف عليه الطائف فبيته لي عندك إلى الغداة فقال: ادخل فبت معه إلى بكرة؟ فقلت: لا أتمكن من ذلك فدعه عندك وإياك أن يخرج من يدك وحُكمك إلى أن آتيك باكرًا وانصرفت وأويت إلى فراشي مفكرًا في أمره فإذا الغلام قد أتاني مذعورًا يبكي فقلتُ: ما وراءك فقال لي: مات الرجل الساعة فقلت: ويحك وكيف كان ذلك؟ قال: دخلت معه فأحضر لي طعامًا أكلت وغسلت يدي وطيبني ونيمني ثم جاء فوضع إصبعه على خدي ثم قال: أشهد الله أنك لحسن وما تدعوني إليه نفسي عنك لقبيح وما وعد الله عليه من العقوبة أقبح وأشد ثم استرجع ثم وضع إصبعه على خدي أيضًا ثم قال: أشهد أنك لحسن والعفة عنك أحسن منك وما وعد الله عليها من الجزاء والثواب أحسن وأحسن ثم سقط فحركته فإذا هو قد مات، قال الشيخ: فأنا أبكي على ذلك الشاب وظرفه وحسنه في عفته إلى أن أموت.

حكاية (٣٢)

قال أبو الفرج الأصفهاني: أخبرني الحسن بن علي قال: حدثنا أحمد بن الحرث الخزاز المدائني عن أبي بكر الهذلي قال: لما أطلق عمر بن الخطاب ﷺ الحطيئة من حبسه قال له: يا أمير المؤمنين اكتب لي كتابًا إلى علقمة بن علاثة لأقصده به فقد منعتني التكسب بشعري قال: لا أفعل بذلك فقلت له: يا أمير المؤمنين وما عليك من ذلك، علقمة ليس بعاملك فتخشى أن تأثم وإنما هو رجل من المسلمين تشفع له إليه فكتب له بما أراد فمضى الحطيئة بالكتاب فصادف علقمة قد مات والناس ينصرفون عن قبره فوقف عليه ثم أنشد:

لعمري لنعم المرء من آل جعفر ... بحوران أمسي علقته الحبائل

فإن تحى لا أملك حياتي وإن تمت ... فما في حياتي بعد موتك طائل

وما كان بيني لو لقيتك سالماً ... وبين الغنى إلا ليال قلائل

فقال له ابنه: كم ظننت أن علمقةِ يعطيك؟ قال: مائة ناقة يتبعها مائة من الأولاد قال: هي لك، فأعطاه إياها.

حكاية (٣٣)

قال أبو الفرج أيضًا أخبرني أبو زيد قال: أخبرني عمي عن أبيه عن ابن الكلبي عن أبيه قال: أخبرني شيخ من بني نبهان قال: أصابت بني شيبان سنة ذهبت بالأموال فخرج رجل منه بعياله حتى أنزلهم الحيرة فقال: كونوا قريبًا من الملك يصبكم من خيره حتى أرجع وآلى على نفسه ألا يرجع حتى يكسبهم خيرًا أو يموت فتزود زادًا ثم مشى يومًا إلى الليل فإذا هو بمُهر مقيد يدور حول خباء فقال: هذا أول الغنمية فذهب يحله ويركبه فنودي به حل عنه واغنم نفسك فتركه ومضى سبعة أيام حتى انتهى الى عطن إبل مع تطفيل الشمس فإذا خباء عظيم وقبة من أدم قال: فقلت في نفسي ما لهذا الخباء من أهل؟ وما لهذه القبة بد من رب وما لهذا العطن بد من إبل؟

فنظرت في الخباء فإذا شيخ كبير قد اختلفت ترقوتاه كأنه نسر فجلست خلفه فلما وجبت الشمس إذا فارس قد أقبل لم أر فارسًا قط أعظم منه ولا أحشم، على فرس مشرف ومعه أسودان يمشيان جنبيه وإذا مائة من الإبل مع فحلها، فبرك الفحل وبركن حوله فقال لأحد عبديه: احلب فلانة ثم اسق الشيخ فحلب في عس حتى ملأه ووضعه بين يدي الشيخ وتنحى، فكرع منه الشيخ مرة أو مرتين ثم نزع وسرت إليه فشربته فرجع إليه العبد وقال: يا مولاي قد أتى على آخره ففرح بذلك وقال: احلب له فلانة فحلبها ووضع العس بين يدي الشيخ فكرع منه واحدة ثم نزع فسرت إليه فشربت نصفه وكرهت أن آتي على آخره فأنهم.

فجاء العبد فأخذه وقال: يا مولاي قد شرب وروي قال: دعه ثم أمر بشاة فذبحت وشوي للشيخ منها ثم أكل هو وعبداه فأمهلت حتى ناموا وسمعت الغطيط وسرت الى الفحل فحللت عقاله وركبته فاندفع بي وتبعته الإبل، فمشيت ليلتي حتى الصباح فلما أصبحت نظرت فلم أر أحدًا فشللتها حينئذ شلاً عنيفًا حتى تعالى النهار ثم التفت التفاته فإذا بشيء كأنه طائر فما زال يدنو حتى تبينته فإذا هو على فرس وإذا هو صاحبي بالأمس فعلقت الفحل ونكثت كنانتي ووقفت بينها وبين الإبل أحلل عقاله فقلت: كلا والله لقد خلفت نسوة بالحيرة وآليت ألية ألا أرجع حتى أفدهن خيرًا أو أموت.

فقال: فإنك ميت حل عقاله لا أم لك؟ فقلت: هو ما قلت. فقال: لمغرور انصب لي خطامه واجعل فيه خمس عجب ففعلت فقال: أين تحب أن أضع سهمي؟ فقلت: في هذا الموضع فرماه فكأنما وضعه بيده ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمس بخمسة رأسهم فرددت نبلي وحططت قوسي ووقفت مستسلمًا فدنا مني فأخذ السيف والقوس ثم قال: ارتدف خلفي وعرف أني الذي شربت عنده اللبن فقال: كيف ظنك بي؟ قلت: حسن قال: فكيف قلت لما لقيت من تعب ليلتك وقد أظفرك الله بي؟ ثم قال: أترانا كنا نهيجك بسور وقد بت تنادم مهلهلاً قلت: أزيد الخيل أنت؟ قال: نعم أنا زيد الخيل فقلت: كن خير آخذ.

فقال: ليس عليك بأس فمضى إلى موضعه الذي كان به ثم قال: أما لو كانت هذه الإبل لي لسلمتها إليك ولكنها لابنة مهلهل فأقم عليّ فأنا على شرف غارة فأقمت عنده أيامًا ثم أغار على بني نُمير فأصاب منهم بعيرًا فقال: أهذه أحب إليك أم تلك؟ فقلت: هذه فقال: دونكها وبعث معي خفراء حتى وردوا إلى ماء الحيرة فلقيني نبطي فقال يا أعرابي أيسرك أن يكون لك بإبلك بستانًا من هذه البساتين فقلت كيف؟ قال هذا قُرب مخرج نبي الله ﷺ يخرج فيملك هذه الأرض ويحول بين أربابها وبمنها حتى أن أحدكم ليبتاع البستان بثمن بعير قال: فاحتملت بأهلي حتى انتهيت إلى موضع فبينما نحن بالشطين على ماء لنا وقد كان الحوقر بن شريك أغار على بني تميم فجاءنا رسول الله ﷺ فأسلمنا وما مضت الأيام حتى اشتريت بثمن بعير من إبلي بستانًا بالحيرة.

حكاية (٣٤)

قال: أخبرني محمد بن الحسن بن درية قال: أخبرنا الحرمازي عن العباس بن هشام عن أبيه قال: كانت عتبة بنت عقبة وهي أم حاتم ذات يسار وكانت من أسخى الناس وأقراهم للضيف وكانت لا تُبقي شيئًا تملكه فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ومنعوها مالها فمكثت دهرًا لا يُدفع إليها شيء منه حتى إذا ظنوا أنها قد وجدت ألم ذلك فأعطوها صرمة من إبلها فجاءتها امرأة من مازن كانت تأتيها في كل سنة تسألها قالت لها: دونك هذه الصرمة فخذيها فوالله لقد عضني من الجوع ما لا أقدر أن أمنع معه سائلاً أبدًا ثم أنشأت تقول:

لعمــري لقــد ما عضني الجوع عضة فآلــيت أن لا أمــنع الدهــر جائعًــا

فقولا لهذا اللائم اليوم أعفني فإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا
فماذا عليكم أن تقولا لأختكم سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا
وهل ينظرون اليوم إلا طبائعا فكيف بتركي يا ابن أم الطبائعا [1]

حكاية (٣٥)

حدث الهيثم بن عدي عمن حدثه عن ملحان ابن أخي ماوية امرأة حاتم قال: قلت لماوية: يا عمتاه حدثيني ببعض عجائب حاتم فقالت: أمره عجب فعن أيها تسأل؟ قال: قلت حدثيني ما شئت قالت: أصاب الناس سنة فأذهبت الخُف والظلف فإني وإياه وقد أسهرنا الجوع فأخذ عديًا وأخذت سفانة وجعلنا نعللهما حتى ناما ثم أقبل علي يحدثني ويعللني بالحديث حتى أنام فرفقت له لما به من الجهد فأمسكت عن كلامه لينام فقال لي: أنمت؟ مرارًا فلم أجبه فسكت فنظر في فتق الخباء وإذا امرأة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا سفانة أتيتك من عند صبيان يتعاوون كالذئاب جوعًا، فقال: أحضري صبيانك فوالله لأشبعنهم.

قالت: فقمت مسرعة فقلت: بماذا يا حاتم فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل فقال: والله لأشبعن صبيانك مع صبيانها فلما جاءت قام إلى فرسه فذبحها ثم قدح نارًا وأججها ودفع إليها شفرة: وقال اشوي وكلي ثم قال: أيقظي صبيانك قالت: فأيقظتهم ثم قال: إن هذا اليوم يأكلون وأهل الصرم حالهم مثل حالكم وجعل يأتي بيتًا بيتًا، فيقول: انهضوا عليكم النار قال: فاجتمعوا حول تلك الفرس وتقنع بكسائه وجلس ناحية فما أصبحوا ومن الفرس على الأرض قليل ولا كثير إلا عظم وحافر وإنه لأشد منهم جوعًا وما ذاقه[2].

حكاية (٣٦)

أخبرني محمد بن محمد بن البزاز الأطروش قال: حدثنا علي بن حرب قال: حدثنا هشام بن محمد قال: حدثنا أبو مسكين جعفر بن المخزوم بن الوليد عن أبيه قال: قال: الوليد جده وهو مولى لأبي هريرة: سمعت محرز بن أبي هريرة يتحدث قال: كان رجل يقال

---

(١) انظر: الأغاني (١٧/٣٦٦)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (ص١٢٤).
(٢) انظر: الأغاني (١٧/٣٨٥، ٣٩٠).

له: أبو البحتري مر في نفر من قومه بقبر حاتم وحوله أنصاب مقابلات من حجارة كأنهن نساء قال: فنزلوا به فبات أبو البحتري ليلته كلها يقول: يا أبا جعفر أقر أضيافك قال: فيقال له: مهلا ما تكلم من رمة بالية فقال: إن طيئا يزعمون أنه لم ينزل به أحد وهو ميت إلا أقراه قال: فلما كان في آخر الليل وثب وجعل يصيح: وا راحلتاه.

فقال له أصحابه: ويلك مالك، قال: خرج والله حاتم بالسيف وأنا أنظر إليه حتى عقر ناقتي قالوا: كذبت قال: بلى فنظروا إلى راحلته فإذا هي منجزلة ما تنبعث، فقالوا: قد والله قراك فذبحوها وظلوا يأكلون من لحمها ثم أردفوه وانطلقوا فساروا ما شاء الله ثم نظروا إلى راكب فتبينوه فإذا هو عدي بن حاتم راكب وهو يقود جملاً أسود فلحقهم فقال: أيكم أبو البحتري؟ قالوا: هذا فقال جاءني أبي في النوم فذكر لي شتمك إياه وأنه أقرى راحلتك أصحابك وقد قال في ذلك أبياتًا ورددها حتى حفظتها وهي:

أبـــا بحتـــري وأنـــت امـــرؤ ... ظلـــوم العشـــيرة شـــتامها

فمـــــاذا أردت إلى رمـــــة ... بداويـــــة صـــيحت هامهـــــا

أتبغـــي أذاهـــا وإعســـارها ... وحـــولك عـــوف وأنعامهـــا

وإنــــا لــــنُطعم أضـــيافنا ... مـــن الكـــوم بالســـيف نعـــتامها

وقد أمرني أن أحملك على بعير فدونكه فأخذه فركبه وذهبوا(١).

حكاية (٣٧)

حدث سليمان بن وهب قال: لما نكبني الواثق قال لمحمد بن عبد الملك الزيات: عذب سليمان وضيق عليه وحاوره وطالبه بالأموال، قال سليمان: فألبسني جبة صوف وقيدني وضيق علي وكان يُحضرني في دار الواثق ويخاطبني أغلظ مخاطبة، ويهددني ويعاملني أقبح معاملة وأشنعها ويكتب المخبرون بذلك إلى الواثق فيعجبه، فإذا كان الليل أمر بنزع قيودي وتغيير ثيابي ويطرح لي مصلى ويأنس بي ويأكل معي ويشرب ويشاورني في الأمور ويفضي إلي بأسراره فإذا كان وقت انصرافي عنه ضرب بيده على كتفي وقال: يا أبا أيوب هذا حق المودة وذلك حق السلطان لا تنكر هذا ولا تنكر ذلك فاشكر له فعله فإذا كنا في غد عدنا إلى ما كنا عليه كأننا ما تفارقنا.

---

(١) انظر: الأغاني (١٧/٣٧٤، ٣٨٨).

حكاية (٣٨)

حدث حماد بن إسحاق عن أبيه قال: دخلت إلى الفضل بن الربيع وقد بلغ الرشيد إطلاقه يحيى بن عبد الله بن حسن وقد كان أمره بقتله فلم يظهر له أنه قتله فسأله عن خبره هل قتلته؟ فقال: لا قال: فأين هو؟ قال: أطلقته قال: ولم؟ قال: لأنه سألني بالله ورسوله وقرابته منه ومنك وحلف لي أنه لا يحدث حدثًا وأن يجيبني متى طلبته قال: فأطرق ساعة ثم قال له: امض بنفسك في طلبه حتى تجيء به واخرج الساعة فخرج قال: فدخلت عليه مهنئًا بالسلامة فقلت له: ما رأيت أثبت من جأشك ولا أصح من رأيك فيما جرى وأنت والله كما قال أشجع:

بديهــته وفكــرته ســواء إذا مـا نابـه الخطـب الكـبير

وأحـزم مـا يكـون الدهـر رأيـا إذا عمـي المشـاور والمشـير

وصـدر فـيه للـهم اتسـاع إذا ضـاقت مـن الهـم الصـدور

فقال الفضل: انظروا كم أخذ أشجع على هذه القصيدة فاحملوا إلى أبي محمد مثله قال: فوجدوا قد أخذ بها ثلاثين ألف درهم فحملت إلى أبي محمد[1].

حكاية (٣٩)

قال أبو الفرج: حدثني أحمد بن محمد بن الجعدي ومحمد بن يحيى قالا: حدثنا محمد بن زكريا العلاني قال: حدثنا ابن عائشة قال: حج هشام بن عبد الملك في خلافة الوليد أخيه ومعه رؤساء أهل الشام فجهد يستلم الحجر فلم يقدر من ازدحام الناس فنصب له منبر فجلس عليه ينظر إلى الناس فأقبل زين العابدين علي بن الحسين عليهم السلام وهو أحسن الناس وجهًا وأنظفهم ثوبًا وأطيبهم رائحة فطاف بالبيت فلما بلغ الحجر تنحى الناس عن الحجر وأخلوه ليستلمه هيبة له وإجلالاً، فغاظ ذلك هشام وبلغ منه فقال رجل لهشام: من هذا أصلح الله الأمير؟ قال: لا أعرفه وكان به عارفًا ولكن خاف أن يرغب فيه أهل الشام ويسمعوا منه فقال الفرزدق وكان لذلك كله حاضرًا:

أنا أعرفه فسلني يا شامي من هو؟ فقال: ومن هو؟ فقال [البسيط]:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبـيت يعـرفه والحـل والحـرم

---

(١) انظر: الأغاني (١٨/ ٢٤٦).

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينسب الكرم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
فليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
أي الخلائق ليست في رقابهم ... لأولية هذا أوله نعم
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم
ما قال لا قط إلا في تشهده ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم

فحبسه هشام فقال الفرزدق:

أتحبسني بين المدينة والتي ... إليها قلوب الناس يهوى منيبها
يقلب رأسًا لم يكن رأس سيد ... وعينا له حولاء باد عيوبها

فبعث هشام إليه فأخرجه ووجه إليه علي بن الحسين صلوات الله عليهما عشرة آلاف درهم، وقال: اعذر يا أبا فراس فلو كان عندنا في هذا الوقت أكثرُ من هذا لوصلناك بها فردها وقال: ما قلت ما كان إلا لله وما كنت لأرزاك ردها فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: قد رأى الله مكانك فتنكرت ولكنا أهل بيت إذا أخرجنا شيئًا لا نرجع به إلينا وأقسم عليه فقبلها(1):

حكاية (٤٠)

قيل: تذاكر جلساء معاوية بحضرته يومًا أشراف الناس وذوي الوجاهة والبيوت الجليلة والحسين حاضر فقال معاوية: من تعرفون أكرم الناس أبًا وأما وجداً وجدة وعمًا وعمة وخالاً وخالة؟ فقالوا: أمير المؤمنين أعلم فأخذ بيد الحسين بن علي عليهما السلام وقال: هذا أبوه علي بن أبي طالب وأمه فاطمة ابنة محمد ﷺ وجده رسول الله ﷺ وجدته خديجة رضوان الله عليهما وعمه جعفر بن أبي طالب وعمته هالة ابنة أبي طالب وخاله القاسم بن رسول الله

---

(١) انظر: خزانة الأدب (٣٧٨/٢)، الأغاني (٣٧٨/١٠، ٣٨٠)، (٣١٥/١٥، ٣١٦)، وديوان الحماسة (٢٨٤/٢)، ونفع الطيب (٦٨٥/٢).

ﷺ وخالته زينب ابنة محمد عليه السلام(١).

حكاية (٤١)

قال أبو الفرج الأصفهاني في كتابه: أخبرني أحمد بن عبد الله بن عمار قال: حدثنا سليمان بن أبي شيخ، قال: حدثني محمد بن الحكم عن عوانة أن عبيد الله بن أبي بكيرة كتب إلى يزيد بن أبي ربيعة بن مفزع: إني قد توجهت إلى سجستان فالحق بي فلعلك إن قدمت علي أن لا تندم ولا تذل رأيك فتجهز ابن مفزع وخرج حتى قدم سجستان ممسيًا فدخل عليه فشغله بالحديث وأمر له بشراء منزل وفرش وخدم وجعل يطاوله حتى علم أنه قد استتم ما أمر به ثم صرفه إلى المنزل الذي هيئ له ثم دعا به في اليوم الثاني، فقال له: يا ابن مفزع إنك قد تحملت إلي مشقة بعيدة وقد اتسع لك الأمل فرحلتُ لأقضي عنك دينك وأغنيك عن الناس وقلت أبو حاتم بسجستان فمن لي الغني بعده؟ فقال. والله ما أخطأت أيها الأمير فيما كان في نفسي شيئًا فقال عبيد الله أما والله لأفعلن ولأقلن لبثك عندي ولأحسنن صلتك فأمر له بمائة ألف درهم ومائة وصيفة ومائة وصيف ومائة بختية وأمر له بما ينفقه إلى أن يبلغ إلى بلده سوى المائة ألف وبمن يكفيه الخدمة من غلمانه ومواليه.

وقال له: إن خفة السفر أن لا تهتم بخف ولا حافر وكان مقامه عنده سبعة أيام ثم ارتحل وشيعه عبيد الله بن أبي بكيرة إلى قرية على بعد أربعة فراسخ يقال لها «زالق» ثم قال: يا ابن مفزع إنه ينبغي للمودع أن ينصرف وللمتكلم أن يسكت، وأنا من قد عرفت فانفق على الأمل وحسن ظنك بي ورجائك في فإذا بدا لك أن تعود فعد والسلام.

ثم سار ابن مفزغ حتى أتى الأهواز فرجعت عنه رسل عبيد الله وقالوا: قد بلغنا حيث أمرنا قال: أجل ثم أمر أناهيد ابنة أعنق امرأة كان يهواها أن تفتح الباب وقال لها: كلما دخل دارك فهو لك، وأقام بالأهواز ودعا ندماء كانوا له من فتيان العرب فلم يبق ظريف ولا مغن إلا أتاه واستماحه جماعة قصدوه من أهل البصرة والكوفة والشام فأعطاهم ولم يفارق أناهيد ومعه شيء من المال وجعل القوم يسألونه عن عبيد الله بن أبي بكيرة وكيف هو وأخلاقه فقال:

---

(١) انظر: جمهرة خطب العرب (١٢٧/٢).

يُسائلني أهل العراق عن الندى فقلت عبيد الله حلف المكارم
فتى حاتمي في سجستان رحله وحسبك جود أن يكون كحاتم
سما لينال المكرمات فنالها بشدة ضرغام وبذل الدراهم
وحلم إذا ما سورة الحرب أطلقت حبا القوم عند الفادح المتفاقم
وإن له في كل حي صنيعة يحدث بها الركبان أهل المواسم
دعاني إليه جوده ووفاؤه ومن دون مرآه عداة الأعاجم
فلم اثو إلا جمعة في جواره ويومين حلا من ألية آثم
إلى أن دعاني زانه الله بالعُلا فأنيت من ريشي مهيض القوادم
وقال إذا ما شئت يا ابن مفزع فعد عودة ليست كأضغاث حالم
فقلت له لا يبعد الله داره أعود إذا ما جئتكم غير حاشم
واحمدت وردي إذ وردت حياضه وكل كريم نهزه للأكارم
وإن عبيد الله هيأ رفده سراحًا وأعطي خيره غير عاقم(١)

حكاية (٤٢)

وقال أبو الفرج أيضًا: أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري، وحبيب بن نصر المهلبي قالا: حدثنا عمرو بن شيبة قال: حدثنا القحذمي قال: لزم يزيد بن مفزع غرماؤه بدين فقال لهم: انطلقوا نجلس على باب الأمير عسى أن يخرج الأشراف فيروني فيقضوا عني فانطلقوا به فكان أول من خرج أبو عمرو بن عبيده بن معمر وأما طلحة الطلحات فلما رآه قال: أبا عثمان ما أقعدك ههنا؟ قال: غرمائي هؤلاء الزموني بدين لهم علي قال: وكم هو؟ قال: سبعون ألفًا، قال علي منها عشرة آلاف، ثم خرج الآخر على الأثر فسأله عما سأله صاحبه فقال: هل خرج أحد قبلي؟ قال: نعم فلان، قال: فما صنع؟ قال: ضمن عنه عشرة آلاف درهم قال: فعلي مثلها قال: وجعل الناس يخرجون فمنهم من يضمن الألف إلى أكثر من ذلك حتى ضمنوا أربعين ألفًا.

---

(١) انظر: الأغاني (٨/٣٠٣).

وكان يأمل عبيد الله بن أبي بكيرة فلم يخرج حتى غربت الشمس فخرج مُبادرًا فلم يره حتى كاد يبلغ بيته فقيل له: إنك مررت بابن مفزع ملزومًا وقد مر به الأشراف فضمنوا عنه قال: وا سوأتاه! وإني لخائف أن يظن أني تغافلت عنه فكر راجعًا فوجده قاعدًا، فقال: أبا عثمان ما يجلسك ههنا؟ قال: غرمائي هؤلاء يلزمونني قال: وكم عليك؟ قال: سبعون ألفًا، قال: وكم ضمن عنك؟ قال: أربعون ألفًا، قال فاستمتع بها وعليّ دينك أجمع فقال فيه:

لو شئت لم تعن ولم تنصب ... عشت بأسباب أبي حاتم
عشت بأسباب الجواد الذي ... لا يختم الأموال بالخاتم
من كف بهلول له غرة ... ما إن لمن عاداه من عاصم
المُطعم الناس إذا حوذرت ... نكباؤها في الزمن العارم
والفاضل الخطبة يوم اللحا ... الأمر عند الكربة اللازم
جاورته حينًا فأحمدته ... أثني وما الحامد كاللائم
كم من عدو كاشح شامت ... أخزيته يومًا ومن ظالم
أذقته الموت على غرة ... بأبيض ذي رونق صارم(١)

حكاية (٤٣)

قال: وحدثني محمد بن جرير الطبري عن شيوخه إلى أن بلغ إلى يحيى بن عُروه ابن أذينة قال: أتى أبي وجماعة من الشعراء هشام بن عبد الملك فنسبهم فلما عرفه قال له: أنت القائل:

لقد علمت وما الإسراف من خُلقي ... أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنيني تطلبه ... ولو قعدت أتاني لا يعنيني
إن كان حظ امرئ عندي سيبلغه ... لابد أن يجتازه دوني
لا خير في طمع يُدني لمنقصة ... وغيره من كفاف العيش يكفيني

(١) انظر: الأغاني (١٨/٣٠٦).

لا أركب الأمر تزري بي عواقبه ... ولا يعاب به عرضي ولا ديني
كم من فقير غني النفس تعرفه ... ومن غني فقير النفس مسكين
ومن عدو رماني لو قصدت له ... لم يأخذ النصف مني حين يرميني
ومن أخ لي طوى كشحا فقلت له ... إن انطواءك عني سوف يطويني
إني لأنطق فيما كان من أربي ... وأكثر الصمت فيما ليس يعنيني
لا أبتغي وصل من يبغى مفارقتي ... ولا ألين لمن لا يشتهي ليني(١)

فقال له ابن أذينة: نعم أنا قائلها، قال: أفلا قعدت في بيتك حتى يأتيك رزقك وغفل عنه هشام فخرج من وقت فركب راحلته ومضى منصرفًا فافتقده هشام فعرف خبره فأتبعه بجائزة وقال للرسول: قل له أردت أن تكذبنا وتصدق نفسك، فمضى الرسول فلحقه وقد نزل على ماء يتغذى عليه فأبلغه رسالته ودفع إليه الجائزة، فقال له: قل له قد صدقني ربي وكذبك، قال يحيى بن عروة: وفرض له فريضتين فكنت أنا في إحداهما.

حكاية (٤٤)

قال الواقدي: كان إبراهيم بن المهدي قد ادعى الخلافة لنفسه في بغداد لبعد المأمون عنها(٢) وأقام إبراهيم مالكها سنة وأحد عشر شهرًا واثني عشر يومًا وله أخبار كثيرة أحسنها عندي ما حكاه لي، قال: لما دخل المأمون بغداد طلبني أشد الطلب وازداد حذري وخوفي على نفسي وشددت على الاحتياط والتواري فأفضت إلى منزل بزاز كنت أعرفه بباب الطاق وشدد المأمون في طلبي حتى أحضر إسحاق بن إبراهيم وأغلظ له في الكلام وخرج إسحاق من عنده وجد بأصحاب الشرط حتى أوقع ببعضهم مكاره ونادى ببغداد من الجانبين أنه من جاء به أو دل عليه فله مائة ألف درهم ومن خبأه بعد النداء ووجد عنده ضرب خمسمائة سوط وهدمت داره وأخذ جميع ماله وخلد في السجن طول عمره فلم أشعر إلا بصاحب الدار وقد دخل عليَّ

---

(١) انظر: الأغاني (١٨/٣٣٣).

(٢) انظر: شعب الإيمان للبيهقي (٦/٤٤)، وسير أعلام النبلاء (٩/٦٧)، وتاريخ الطبري (٥/١٤٠).

وأخبرني بخبر النداء وقال: والله ما بقي لي قدرة على سترك ولا آمن زوجتي ولا جاريتي ولا غلامي أن يدلوا عليك رغبة في المال قال: فقلت: إذا جاء الليل خرجت فقال: ومن يطيق الصبر إلى الليل فإن وجُدت عندي قبل الليل كيف يكون حالي هذا وقت حد وقد طال عهد الناس بك فتنكر واخرج. فقلت: وكيف أتنكر؟ قال: تلبس الخف والشقة والنقاب وتخرج في زي النساء فاستحيت من ذلك وخرجت وأنا لا أعلم أين أتوجه، فسرت على وجهي ولم أدر أين أتوجه حتى حصلت في زقاق لا ينفذ فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون وبقيت حائرًا وإذا برجل يفتح باب دار بمفتاح رومي، فقلت: هذا أعزب ليس عنده أحد فتقدمت إليه وقلت: استرني سترك الله، فقال: ادخل، فدخلت عنده الدار وإذا هي في نهاية الكمال وبت عنده أطيب مبيت.

فلما أصبحنا خرج وتركني في الدار وغاب ساعة وعاد ومعه حمالان على رأس أحدهما خبز ولحم وفاكهة وثلج وغير ذلك، وعلى رأس الآخر حصير ومخدة وجرار جدد وكيزان جدد وغضائر جدد وقدر جديد فوضع الجميع بين يدي فعذلته وقلت: لم تكلفت هذا؟ فقال: يا سيدي أنا رجل حجام وأخاف أن تستقذرني وقد أقررت هذا لك فاطبخ وكل وأطعمني في غضارة أجئ فيها من عندي ففعلت ذلك فلما قضيت أربي من ذلك قال: يا سيدي هل لك في شراب فإنه يلي الهم ويطيب الفم ويحيد النفس عن الغم؟ فقلت: ما أكره ذلك رغبة في المؤانسة لك، فأتى بقطرميز[1] ودنين مملوءتين من شراب مطيبة ثم قال، لي: روق لنفسك فروقت شرابًا في نهاية الجودة وأحضر لي قدحًا جديدًا وأنقالاً مختلفة وفواكه كذلك في طسوت من فخار جديد.

قال: ثم شرب وشربت معه ثم دخل إلى مخدع له في الدار فأخرج عودًا مصفحًا ثم قال: يا سيدي ليس من قدري أن أسألك تغني ولكن قد وجب على مروءتك حرمتي فإن رأيت أن تشرف عبدك وتغني لنفسك فافعل، فقلت ومن أين لك المعرفة بأنني أحسن الغناء؟ فقال متعجبًا: يا سبحان الله أنت أشهر من ذلك أنت إبراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون لمن دل عليه مائة ألف درهم، فلما قال ذلك عظمت همته عندي المروءة وعلمت أنه غزير فتناولت العود وأصلحته وغنيت

---

(١) الذي في الأصل (بقرطامين) والصواب، ما أثبت ومعنى قطرميز: قلة كبيرة من الزجاج، وهي لفظة يونانية.

وقد مر بخاطري فراق أهلي وولدي قلت:

فعسى الذي أهدى ليوسف أهله ... وأعزه في السجن وهو أسير
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا ... فالله رب العالمين قدير

فقال: يا سيدي أتجعل ما تغنيه بما افتصل الحال عليه؟ قلت: نعم، فقال: غن لي فغنيت:

إن الذي عقد النهى انعقدت به ... عقد المكاره فيك يحسن حلها
فاصبر فإن الله يعقب راحة ... فلعلها أن تنجلي ولعلها

فغنيته ولم أكن أعرف لحنه لكني لحنته في الوقت وتفاءلت به وحسن عندي إيراده ثم شربت وشرب ثم قال غن يا سيدي فغنيت:

فلا تجزع وإن أعسرت يومًا ... فقد أيسرت في الزمن الطويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر ... لعل الله يغني عن قليل
ولا تظنن بربك غير خير ... فإن الله أولى بالجميل

وكنت أعرفه فغنيته ثم شرب وشربت وقال: لله عليّ نذر إذ آنسني بقربك وما كنت أحسب أن الزمان يسمح لي بذلك وكونك في منزلي ثم قال لي: إن رأيت أن تغني، فغنيت:

وإذ تنازعني نفسي فقلت لها اصبري ... موت يريحك أو علو المنبر
ما قد قُضي سيكون فاصطبري له ... ولك الأمان من الذي لم يُقدر

فغنيته وحسن عندي إيراده وأنست به واستظرفته ثم قال: يا سيدي أتأذن لي أن أغني ما سنح، وإن كنت من غير أهل هذه الصنعة؟ فقلت: أنت وذاك فأخذ العود وغنى:

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذلك أن النوم يغشى عيونهم ... سريعًا ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا ما دنا الليل المضر بذي الهوى ... جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا

فلـو أنهـم كانـوا يلاقـون مـثلما ... نُلاقـي لكانـوا في المضاجع مثلنا[١]

فوالله لقد أحسنت بالبيت وقد سارني وذهب عني كل ما كان عندي من الهلع وأنسيته وسألته أن يغني فغنى:

تعيرنـا أنـا قلـيل عديـدنا ... فقلـت لهـا إن الكـرام قلـيل

ومـا ضـرنا أنـا قلـيل وجارنـا ... عزيـز وجـار الأكثـرين ذلـيل

وإنـا لقـوم لا نـرى القـتل سـبة ... إذا مـا رآه عامـر وسـلول

يقـرب حـب المـوت آجالـنا لنا ... وتكـرهه آجـالهم فـتطول

فتداخلني من الطرب ما لا مزيد عليه إلى أن عاجلني السكر وإياه فلم استيقظ إلا بعد المغرب فعاودني فكري في نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه وكيف اقتضاني من الغناء ما أراد به أن يسليني به غناني ما فيه إشارة إلى تخصصه فقمت وغسلت وجهي وأيقظته وأخذت خريطة كانت صُحبتي وفيها دنانير لها قيمة فرميت بها إليه وقلت: أستودعك الله فإنني ماض من عندك وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهماتك ولك عندي المزيد أن أمنت من خوفي فأعادها إلي منُكرًا، وقال: يا سيدي إن الصعلوك منا لا قدر له عندكم من ذوي الرئاسات ويظن به الظنون الرديئة آآخذ على ما أوهبنيه الزمان من قربك وحلولك عندي ثمنًا؟!

فألححت عليه، فأومى إلى موسى له وقال: والله لئن راجعني في ذلك لأقتلن نفسي، فخشيت عليه فأخذت الخريطة فأعدتها إلى كُمي وقد أثقلني حملها فلما انتهيتُ إلى باب داره معولاً على المضي قال: يا سيدي إن هذا الموضع أخفى لك من غيره وليس في مئونتك ثقلة، فأقم عندي إلى أن يفرج الله عنك فرجعت وسألته أن يكون نفقتنا من الخريطة فلم يفعل وكان يفعل في كل يوم مثل ما كان يفعله في يوم حلولي به، فأقمت أيامًا في أطيب عيش فتذممت من ذلك ومن الإقامة في مئونته واحتشمت من التثقيل عليه فتركته وقد مضى يجدد لنا حالنا فقمتُ وتزييت بزي النساء بالخف والنقاب وخرجت فلما صرت في الطريق داخلني من الخوف أشد ما يكون وجئت لأعبر الجسر فلما توسطته وإذا بجندي من الذين كانوا في أيام خلافتي فحقق النظر في

---

(١) الأبيات في مصارع العشاق للسراج (ص ١٣١).

فعرفني وقال: طلبة أمير المؤمنين، وعدل إلى فقبضني فلحلاوة النفس دفعته ودابته فوقع في سفن الجسر فتبادر الناس لتخليصه وأسرعت أنا في المشي من غير عدو لئلا يُنكر حتى عبرت الجسر فدخلتُ زقاقًا وإذا بامرأة جالسة على باب دار مفتوح فقلت لها: يا امرأة أنا خائف من القتل فهل لك أن تجيرني وتحفظي دمي؟

فقالت: ادخل فدخلت الدار وأومأت بيدها إلى غرفة فصعدتها وأغلقت الباب فبينما أنا جالس وإذا بالباب قد طرق فقامت وفتحت الباب فدخل زوجها فتأملته وإذا هو صاحبي الذي دفعته على الجسر وهو مشدود الرأس واليدين ودمه يجري على ثيابه وهو يتأوه من شجة لحقته في رأسه فسألته المرأة عن حاله فقال: لها إن دابتي قد انكسرت وقد نقدت بها إلى بياع اللحم وقد فاتني الفتى وجعل يشتمني وهو لا يعلم أنني في داره.

قال: فجعلت المرأة ترفق به حتى يسكن ألمه، فلما نام صعدت المرأة إليّ وقالت: أظنك صاحب القصة مع هذا الرجل؟ فقلت لها: نعم، فقالت قد سمعت ما عنده فاتق الله في نفسك واخرج فدعوت لها وخرجت أريد دار مولاة لنا بباب التين فدققت عليها الباب ففتحت فلما رأتني بكت وحمدت الله تعالى على سلامتي فلما كان وقت السحر خرجت وتركتني في الدار فلم أشعر إلا بإسحاق بن إبراهيم بخيله ورجله وقد أحاط بالدار فأخرجني فأوقفني بين يدي المأمون فسلمت عليه بالخلافة فقال: لا سلم الله عليك ولا حياك ولا رعاك، فقلت: على رسلك يا أمير المؤمنين إن وليّ الثأر محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى ومن تناولته يدُ الاغترار بما أمد له من أسباب الرجاء لم يأمن من عادية الدهر، وقد جعلك الله فوق كل ذي عفو كما جعل كل ذي ذنب دون عفوك فإن تأخذ فبحقك، وإن تعف فبفضلك ثم أنشدت:

ذنـــبي إلـــيك عظـــيم وأنـــت أعظـــم مـــنه
فخـــذ بحقـــك أو لا فاصـــفح بحلمـــك عـــنه
إن لم أكـــن في فعـــالي مـــن الكـــرام فكـــنه

فرفع رأسه إلى فبدرته وقلت[1]:

---

(١) انظر: أحسن ما سمعت للثعالبي (ص ١٣٨).

أتـــيت ذنـــبًا عظـــيمًا وأنـــت للعفـــو أهـــل

فـــإن عفـــوت فمـــن وإن جـــزيت فعـــدل

فرق إليّ المأمون فاستروحت روائح الرحمة في شمائله ثم أقبل على أخيه أبي إسحاق وابنه العباس وجميع من حضر من خاصته، وقال: ما ترون في أمره؟ فكل منهم أشار بقتلي إلا أنهم اختلفوا في القتلة كيف تكون؟ فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد: ما تقول يا أحمد؟ قال: يا أمير المؤمنين إن قتلته وجدت مثله قد قتل، وإن عفوت عنه لم تجد مثلك قد عفا عن مثله فنكس المأمون رأسه وجعل ينكت بإصبعه في الأرض وقال متمثلاً:

قومـــي هـــم قـــتلوا أمـــيم أخـــي فـــإذا رمـــيت يصـــيبني ســـهمي

فلـــئن عفـــوت لأعفـــون تجلـــلا ولـــئن ســـطوت لأوهـــنن عظمـــي

فكشفت رأسي وكبرت تكبيرة عظيمة وقلت: عفا والله عني أمير المؤمنين فقال المأمون: لا بأس عليك يا عم، ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أتفوه معه بعذر، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ولكن أقول:

إن الـــذي خلـــق المكـــارم حازهـــا في صـــلب آدم للإمـــام الســـابع

ملـــئت قلـــوب الـــناس مـــنك مهابة وتظـــل تكلـــؤهم بقلـــب خاشـــع

فعفـــوت عمـــن لم يكـــن عـــن مثله عفـــو ولم يشـــفع إلـــيك بشـــافع

ورحمـــت أطفـــالاً كأفـــراخ القطـــا وحـــنين والـــدة بقلـــب جـــازع

رد الحـــياة علـــي بعـــد ذهابهـــا كـــرم المليـــك العـــادل المتواضـــع

فقال لي المأمون: لا تثريب عليك اليوم يا عم، قد عفوت عنك ورددت عليك مالك وضياعك فقلت[1]:

رددت مـــالي ولم تـــبخل علـــيّ بـــه وقـــبل ردك مـــالي قـــد حقنت دمي

فأبـــت عـــنك وقـــد خولـــتني نعمًا هـــي الحـــياتان مـــن موت ومن عدم

---

(١) انظر: العقد الفريد (٣/٤٩).

فلو بذلت دمي أبغي رضاك به والمال حتى أسل النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية رجعت إليك لو لم تعرها كنت لم تلم
فإن جحدتك ما أوليت من نعم إني إلى اللؤم أولى منك بالكرم

قال المأمون: إن من الكلام كلامًا كالدُر وهذا منه وأمر لإبراهيم بمال وخلع عليه وقال: يا إبراهيم إن أبا إسحاق والعباس أشارا عليّ بقتلك، فقلت: إنهما نصحا لك يا أمير المؤمنين ولكن ما أتيت إلا ما أنت أهله ودفعت بما رجوت فقال المأمون: قد مات حقدي بحياة عُذرك وقد عفوت عنك وأعظم من عفوي عنك أني لم أجرعك مرارة الشافعين، ثم سجد المأمون طويلاً ثم رفع رأسه وقال: يا إبراهيم أتدري لم سجدت؟ فقلت: شكرًا لله تعالى إذ أظفرك بي فقال: ما أردت هذا ولكن شكرًا لله تعالى على ما ألهمنيه من العفو عنك، فحدثني الآن حديثك فشرحت له صورة أمري وما جرى لي مع الحجام والجندي وامرأته والمولاة التي سلمتني، فأمر المأمون بإحضارها وكانت في الدار تنتظر الجائزة، فقال لها: ما حملك على ما فعلت مع إنعامه وإنعام أهله إليك؟ فقالت: الرغبة في المال، فقال: هل لك ولد أو بعل أو أخ؟ قالت: لا، فأمر بضربها مائتي سوط وأن تخلد بالسجن، ثم قال: علي بالجندي وامرأته فأحضرا فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على ما فعل فقال: الرغبة في المال، فقال المأمون: أنت أولى أن تكون حجامًا أصلح من أن تكون في أوليائنا ووكل به من يسومه تعليم الحجامة واستخدم زوجته قهرمانة في قصره بعد الإحسان إليها وقال: هذه امرأة دينة عاقلة تصلح أن تكون عندنا ثم قال للحجام: لقد ظهر من مروءتك ما يجب معك من المحافظة عليك ثم سلم إليه دار الجندي ودوابه وخلع عليه وأثبته برزقه بعد إعطائه ألف دينار في كل سنة ولم يزل بخير إلى أن مات[1].

حكاية (٤٥)

قال أبو الفرج: أخبرني محمد بن عمران الصيرفي والحسن بن علي الخفاف عن شيوخهم قال: دخل يزيد بن مزيد على الرشيد فقال: يا يزيد من الذي يقول فيك:

لا يعبق الطيب خديه ومفرقه ولا يمسح عينيه من الكحل

---

(١) انظر: الأغاني (٦/٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٤).

قــد عــود الطــير عــادات وثقن بها فهــن يتبعــنه في كــل مــرتحل

فقال: لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين، فقال له هارون: أيقال فيك مثل هذا الشعر ولا تعرف قائله؟ فخرج من عنده خجلاً فلما صار إلى منزله دعا حاجبه فقال: من بالباب من الشعراء؟ قال: مسلم بن الوليد قال: وكيف حجبته عني ولم تُعلمني بمكانه؟ قال: أخبرته أنك مضيق وأنه ليس في يدك شيء تعطيه وسألته الإمساك والمقام أيامًا إلى أن يتسع عليك فأنكر ذلك عليه وقال: أدخله إلينا، فأدخله فأنشده قوله فيه:

أجــررت حــبل خلــيع في الصبا غزل وشمــرت همــم العــذال بالعــذل
رد الــبكاء علــى العين الطموح هوى مفــرق بــين توديــع ومــرتحل
أمــا كفــى الــبين أن أرمــي بأسهمه حــتى رمــاني بلحــظ الأعــين النجل
فمــا جــنت لي وإن كانت منى صدقت صــبابة خلــس التســليم بالمقــل[1]

ويقول فيها في مديحه:

مــوف علــى مهــج في يوم ذي رهج كأنــه أجــل يســعى إلى أمــل
تــراه في الأمــن في درع مضــاعفة لا يــأمن الدهــر أن يدعــى على عجل
لا يعــبق الطــيب خديــه ومفــرقه ولا يمســح عينــيه مــن الكحــل
إذا انتضــى ســيفه كانــت مســالكه مســالك المــوت في الأحشاء والقلل
وإن خلــت بحــديث الــنفس نظرته عــاش الــرجاء ومات الخوف من أجل
كالليــث إن هجــته فالمــوت راحــته لا يســتريح إلى الأيــام والــدول
قــد عــود الطــير عــادات وثقن بها فهــن يتبعــنه في كــل مــرتحل
لله مــن هاشــم في أرضــه جــبل وأنــت وابــنك ركــنا ذلــك الجــبل
صــدقت ظــني وصــدقت الظنون به وحــط جــودك عقد الرحل عن جمل

(١) انظر: الأغاني (١٢/١٧٧)، (١٩/ ٤١، ٤٣).

قال له: أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقبضها واعذر، فخرج حاجبه فقال: قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم، خمسون ألفًا منها لك وخمسون ألفًا لنفقته فأعطاه إياها فكتب صاحب الخبر بذلك إلى الرشيد فأمر له بمائتي ألف درهم وقال: اقبض الخمسين ألف التي أخذتها للشاعر وزده مثلها وخذ مائة ألف لنفسك فافتك ضيعته وأعطى مسلمًا خمسين ألفًا أخرى(١).

حكاية (٤٦)

قال: كان مخارق يهوى جارية لأم جعفر يقال لها: نهار وكان بها كلفًا ولما علم أن الخبر قد نم وبلغ أم جعفر قطعها وتحاماها إجلالاً لأم جعفر وطمعًا في السلو عنها وضاق ذرعه ذات ليلة في زلال له وقد انصرف من دار المأمون ودار أم جعفر تشرف على دجلة بغداد إذ حاذى دارها فرأى الشمع يزهر فيها فلما صار بمسمع منها ومرأى اندفع فغنى بشعر العباس بن الأحنف:

إن تمنعوني ممري قرب دارهم — فسوف أنظر من بُعد إلى الدار
لا يقدرون على منعي ولو جهدوا — إذا مررت وتسليمي بإضمار
ما ضر جيرانكم والله يُصلحكم — لولا شقائي وإقبالي وإدباري
سيما أهوى ظهرت حتى عرفت بها — إني محب وما بالحب من عار

فقالت أم جعفر: مخارق والله ردوه فصاحوا بملاحه قدم فقدم وأمر الخدم بالصعود فصعد وأمرت له أم جعفر بكرسي وصينية فيها نبيذ فشرب وخلعت عليه وأمرت الجواري فغنين ثم ضربن عليه فغنى وكان أول ما غنى بشعر العباس أيضًا:

أغب عنك بود ما يغيره — نأي المحل ولا صرف من الزمن
فإن أعش فلعل الله يجمعنا — وإن أمت فقتيل الهم والحزن
قد حسن الله في عيني ما صنعت — حتى أرى حسنًا ما ليس بالحسن

قال: فاندفعت نهار فغنت تتابعه وإنما أجابته عن معنى ما عرض لها به:

تعتل بالشغل عنا ما تلم بنا — الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

---

(١) انظر: الأغاني (٩/٤٢).

ففطنت أم جعفر أنها خاطبته بما في نفسها فضحكت وقالت: ما سمعنا بأحسن ما صنعتما ووهبتها له[1].

حكاية (٤٧)

قال أبو زيد: أغار قوم من العرب على نعم لأحمد بن عنقاء الفزاري فاستاقوها حتى لم يبق منها شيء فأتي ابن أخيه فقال له: يا ابن أخي إنه قد نزل بعمك ما ترى فهل من حيلة؟ قال: نعم يا عم يروح المال وابلغ مُرادك، فلما راح ماله قاسمه إياه وأعطاه شطره فقال ابن عنقاء[2]:

رآني علـى مـا بي عميلة فاشتكى ... إلى مـا لـه حـالي أسر كما جهر

غـلام رمـاه الله بـالخير يافعًـا ... لـه سيمياء لا تشق علـى البصر

كـأن الثـريا علقت في جبينـه ... وفي خـده الشعرى وفي أنفـه القمر

ولمـا رأى المجـد استردت ثـيابه ... تـردى رداء واسـع الـذيل وائتـزر

إذ قـيلت العـوراء ولى كأنـه ... ذلـيل بـلا ذل ولـو شـاء لانتصر

دعـاني فآسـاني ولـو ضـنّ لم ألم ... علـى حـين لا بدو يرجى ولا حضر[3]

حكاية (٤٨)

عن ابن عمر قال: رأى إسحاق بن إبراهيم الظاهري في منامه النبي ﷺ وهو يقول: «أطلق القاتل» فاستيقظ مرتاعاً ودعا بشمعة وأحضر الكتب الواردة من الجسور فلم ير فيها ذكر قاتل فأمر بإحضار السندي وعباس وسألهما عن الخبر فقال له العباس: نعم قد كتبنا بخبر قاتل فأعاد النظر فيها فوجد الكتاب في أضعاف القراطيس وإذا رجل قد شهد عليه بالقتل وأقر به فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه ورأى ما به من الارتياع قال له: إن صدقت أطلقتك.

فابتدأ يخبره وذكر أنه كان هو وعدة معه يرتكبون كل عظيمة ويستحلون كل محرم وكان اجتماعهم بمدينة أبي جعفر يعتكفون على كل بلية فلما كان في بعض الأيام

---

(١) انظر الأغاني (١٨/٣٨٢).

(٢) انظر: شرح ديوان الحماسة للتبريزي (٤/٦٨).

(٣) انظر: الأغاني (٩/٢٢٣)، دلائل الإعجاز للجرجاني (ص١٢٣).

جاءتهم عجوز كانت تختلف إليهم للفساد ومعها جارية بارعة في الجمال فلما توسطت الجارية الدار ورأتنا صرخت صرخة عظيمة ثم أغمي عليها فلما أفاقت قالت اتق الله فيّ فإن هذه العجوز خدعتني وأعلمتني أن في جيرانها قومًا لهم حق لم ير مثله وشوقتني إلى النظر إليه فخرجت معها واثقة بقولها فهجمت بي عليكم وجدي رسول الله ﷺ وأمي فاطمة وأبي الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فاحفظوهم في فكأنهما والله إنما أغرتهم بنفسها فقمت دونها ومنعت عنها وقاتلت من أرادها فنالتني جراحات فتعمدت إلى أشدهم في أمرها وأكلبهم فقتلته وتخلصت الجارية منه آمنة، وأخرجتها سالمة.

فسمعتها تقول مخاطبة لي: سترك الله كما سترتني وكان لك كما كنت لي فسمع الجيران الضجة فدخلوا علينا والسكين في يدي والرجل متشحط في دمه فرُفعتُ على هذه الحالة فقال إسحاق: قد عرفت لك ما كان ووهبتك لله ورسوله فقال الرجل: وحق من وهبتني له لا عُدت إلى معصية أبدًا.

حكاية (٤٩)

وقال أبو الفرج الأصفهاني يرفعه إلى علي بن عمرو قال: حدثني مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغواني قال: كنت يومًا جالسًا في دكان خياط بإزاء منزلي إذ رأيت طارقًا ببابي فقمت إليه فإذا هو صديق لي من أهل الكوفة قد قدم من قم فسررت به وكأن إنسانًا لطم وجهي إذ لم يكن عندي درهم واحد أنفقه عليه فقمت فسلمت عليه وأدخلته منزلي وأخذت خفين كانا لي أتجمل بهما فدفعتهما إلى جاريتي وكتبت معهما رقعة إلى بعض معارفي في السوق أسأله أن يبيع الخفين ويشتري لحمًا وخبزًا بشيء سميته له فمضت الجارية وعادت إليّ وقد اشترى كلما حددت له وقد باع الخف بتسعة دراهم فكأنها غنيمة وصلت إليّ وإنما جاءتني بخفين جديدين فقعدت أنا وضيفي نطبخ وسألت جارًا لي أن يسقينا قارورة نبيذ فوجه بها إلي وأمرت الجارية أن تغلق باب الدار فإنا لجالسان نطبخ حتى طرق الباب طارق فقلتُ للجارية: انظري من هو فنظرت من شق الباب فإذا رجل عليه سواد وشاشية ومنطقة ومعه شاكري فخبرتني بموضعه فأنكرت أمري ثم رجعت إلى نفسي وقلتُ: لست بصاحب دعاوى ولا للسلطان عليّ سبيل، ففتحت الباب وخرجت إليه فنزل عن دابته وقال: أنت مسلم بن الوليد؟ قلت: نعم — قال: كيف لي بمعرفتك؟ قلت: الذي دلك على معرفة منزلي يصحح لك معرفتي فقال لغلامه: امض إلى الخياط فسله عنه — فمضى فسأله عني فقال: هو مسلم بن الوليد. فأخرج إليّ كتابًا من خفه وقال: هذا كتاب الأمير يزيد بن مزيد يأمرني أن لا أفضه إلا عند لقائك فإذا فيه «**إذا لقيت مسلم بن الوليد فادفع**

إليه هذه العشرة آلاف درهم التي أنفذتها تكون في منزله وادفع إليه ثلاثة آلاف درهم لنفقته ليحمل بها إلينا» فأخذت الثلاثة إلى العشرة ودخلت إلى منزلي والرجل معي فأكلنا ذاك الطعام وازددت فيه وفي الشراب واشتريت فاكهة وأوسعت الإنفاق ووهبت لضيفي من الدراهم ما يهُدى به هدية لعياله وأخذت في الجهاز ثم مازلت معه حتى صرنا إلى الرقة إلى باب يزيد فدخل الرجل فإذا هو أحد حجابه فوجده في الحمام فخرج إلي فجلس معي قليلاً ثم خبر الحاجب بأنه قد خرج من الحمام فأدخلني عليه فإذا هو على كرسي جالس وعلى رأسه وصيفة بيدها غلاف مرآة وبيده هو مرآة ومشط يسرج لحيته، فقال لي: يا مسلم ما الذي أبطأك عنا؟ فقلت: أيها الأمير قلة ما في اليد، قال: فأنشدني، فأنشدته قصيدتي التي جئته بها:

أجــررت حــبل خلــيع في الهوى عزل وقصــرت همــم العــذال عــن عذل

فلما صرت إلى قولي:

لا يعــبق الطــيب خديــه ومفــرقه ولا يمســح عينــيه مــن الكحــل

وضع المرآة من يده في غلافها وقال للجارية: انصرفي فقد حرم مسلم علينا الطيب فلما فرغت من القصيدة قال لي: يا مسلم أتدري ما الذي جرأني على أني وجهت إليك؟ فقلت لا والله لا أدري، فقال: كنتُ عند الرشيد منذ ليال أغمز رجليه إذ قال لي يا يزيد من القائل فيك:

كالدهــر لا ينــثني عمــا يهــم بــه قــد أوســع الــناس إنعامــا وإرغاما

ســل الخلــيفة سـيفًا مــن بــني مطر يمضــي فيخــترم الأجــياد والهامــا

فقلت: لا والله ما أدري، فقال الرشيد: يا سبحان الله إنك مُقيم على أعرابيتك، يقال فيك مثل هذا الشعر ولا تدري من قائله؟ فسألت عن قائله فأخبرت أنك هو فقم حتى أدخلك على أمير المؤمنين، فدخل على الرشيد فما علمت حتى خرج لي الإذن فأذن لي فدخلت على الرشيد فأنشدته ما كان لي فيه من الشعر فأمر لي بمائتي ألف درهم، فلما انصرفت إلى يزيد أمر لي بمائة وتسعين ألفًا وقال: لا يجوز لي أن أعطيك مثل ما أعطاك أمير المؤمنين، وأقطعني إقطاعات بمبلغ مائتي ألف درهم، قال مسلم: فأفضت الأمور بعد ذلك إلى أن أغضبني فهجوته فشكاني إلى الرشيد فدعاني فقال: أتبيعني عرض يزيد؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين فقال: بكم؟ فقلت: برغيف، فغضب حتى خفته على نفسي وقال قد كنت أرى أن أشتريه منك بمال جسيم فلست أفعل ولا كرامة وقد علمت إحسانه إليك وأنا نفيّ عن أبي ثم والله والله لئن بلغني أنك هجوته لأنزعن لسانك من بين فيك، فأمسكت عنه بعد

ذلك وما ذكرته بخير ولا شر[1].

حكاية (٥٠)

قال الواقدي كان لي صديقان أحدهما هاشمي والآخر عامي كنا كنفس واحدة فنالتني ضائقة شديدة وحضر العيد فقالت لي امرأتي: أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم لأنهم رأوا صبيان جيراننا وقد تزينوا في عيدهم وهم على هذه الهيئة فلو احتلت فيما تصرفه في كسوتهم، قال: فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة علي مما حضر فوجه إليّ كيسًا مختومًا ذكر أنه ألف درهم فما استقر قراره حتى كتب إلي الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي فوجهت إليه الكيس على حاله وخرجت إلى المسجد على حالي، فأقمت فيه ليلتي مستحيًا من امرأتي، فلما دخلت عليها استحسنت ذلك ولم تعنفني عليه فبينما أنا كذلك إذ وافاني صديقي الهاشمي ومعه الكيس على هيئته فقال: اصدقني فيما فعلته في ما وجهت به إليك فعرفته الخبر على جهته، فقال: إنك وجهت إلي ولم أملك على الأرض إلا ما بعثت به إليك، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجه إليّ بكيسي هذا وخاتمي عليه، قال فأخرجنا للمرأة مائة درهم وتقاسمنا الباقي بيننا أثلاثًا ونمى الخبر إلى المأمون فدعاني وسألني عنه فشرحت له ما وقع بيننا فأمر لنا بسبعة آلاف دينار منها ألف للمرأة وألفان ألفان لكل واحد منا.

حكاية (٥١)

وقال أبو الفرج[2]: حدثني عمي قال: حدثني أحمد بن طاهر قال: حدثني أبو دعامة علي بن يزيد قال: حدثني التيمي، أبو محمد قال: دخلتُ على الحسن بن سهل فأنشدته مديحًا في المأمون ومديحًا فيه وعنده طاهر بن الحسين فقال له طاهر: هذا والله أيها الأمير الذي يقول في محمد المخلوع:

لابد من سكرة على طرب … لعل روحًا يدال من كرب

خليفة الله غير منتخب … لخير أم من هاشم وأب

خلافة الله قد توارثها … آباؤه في سوالف الكتب

فهي له دونكم لمورثه … عن خاتم الأنبياء في الحقب

---

(١) انظر: الأغاني (١٩/٤٢).

(٢) في الأغاني (٢٠/٦٥).

يـا ابـن الـذي في ذوائـب الشرف الأقـدم أنـتم دعـائم العـرب

فقال الحسن عرض والله ابن اللخناء بأمير المؤمنين والله لأعلمنه، وقام إلى المأمون فأخبره فقال المأمون: وما عليه في ذلك؟ رجل أمل رجلاً فمدحه والله لقد أحسن بنا وأساء إليه إذ لم يتقرب إليه إلا بشرب الخمر ثم دعاني فخلع علي وحملني وأمر لي بعشرة آلاف درهم(١).

حكاية (٥٢)

قيل: خرج عبد الملك بن مروان يومًا إلى الغوطة متنزهًا فبينما هو يسير إذ مر على قنطرة منصوبة على بعض مياهها وقد تأخر عنه العسكر وانفرد عن حشمه فلما نزل عن القنطرة جاءه رجل من العرب على فرس فراغه ذلك فقال له: من أنت وما أمرك؟ فقال: يا أمير المؤمنين أنا أحد فرسان العرب وقد دعاني إليك أملي إياك وتعويل أهل الحاجة عليك فارددني إلى أهلي سالمًا ومن مالك موفورًا – قال: يا أخا العرب أما سمعت قول الشاعر:

اعـص العـواذل وارم النـبل عـن عـرض بـذي سـبيب يقاسـي لـيله خببًا

حـتى تمـول مـالا أو يقـال فـتى لاقـى الـذي يشـعب الفتـيان فانشـعبا

قال: وكذلك قال الشاعر يا أمير المؤمنين قال: نعم، قال: سأعمل بما قال: وقال: سلام عليكم: وولى بفرسه وذهب موليًا فلما غاب عن عين عبد الملك تندم وتلاحق به عسكره فتقدم بطلبة الرجل فلم يدركه، ثم ضرب الدهر ضربة فورد على عبد الملك أن رجلاً خرج في بعض النواحي وانضاف إليه جماعة وأن مالاً حُمل إلى عبد الملك فقطع عليه الطريق وأخذه فأنفذ إليه عبد الملك جيشًا فكسره ثم لم تطل الأيام حتى استفحل أمره واشتدت شوكته فكتب إليه عبد الملك يستخبره ما دعاه إلى الخروج عن الطاعة والمبارزة بالحرب فكتب إليه: «أنا الفارس صاحب الغوطة وقد عملت بما أشرت به ولم أر منه إلى الآن إلا خيرًا» فكتب إليه عبد الملك يرغبه ويؤمنه ويعده أنه متى صار إليه طائعًا أحسن مكافأته وحمل إليه مالاً وترك له قدر، فانصرف إليه ما كان بصدده وكان من المتقدمين عنده وحسن بلاؤه.

حكاية (٥٣)

قيل: دخل مسلم بن الوليد على الفضل بن يحيى وقد كان أتاه خبر سره فجلس للشعراء فمدحوه وأثابهم ونظر في حوائج الناس فقضاها وتفرق الناس عنه وجلس للشراب

---

(١) انظر: الأغاني (٢٠/٦٥).

ومسلم غير حاضر لذلك وإنما بلغه حين انقضاء المجلس فدخل عليه فاستأذن في الإنشاد فأذن له فأنشده قوله فيه:

أتـــتك المطايـــا تهـــتدي بمطـــية ... علـــيها فـــتى كالنصـــل مونسه النصل

ويقول فيها:

وردت رواق الفضـــل آمـــل فضـــله ... فحـــط إليـــنا الجـــزل نائلـــه الجـــزل

فـــتى ترتعـــي الآمـــال مـــزنة جـــوده ... إذا كـــان مـــرعاها الأمـــاني والمطـــل

تســـاقط يمناه الندى عمن شماله الردى ... وعـــيون القـــول مـــنطقه الفضـــل

أخ علـــى الأيـــام يفـــري خطـــوبها ... علـــى مـــنهج ألفـــى أبـــاه بهـــا قـــبل

أنـــاف بـــه العلـــياء يحـــيى وخالـــد ... فلـــيس لـــه مـــثل ولا لهمـــا مـــثل

فـــروع أصـــابت مغرسًـــا متمكـــنًا ... وأصـــلاً فطالـــت حيث وجهها الأصل

بكـــف أبي العـــباس يســـتمطر الندى ... ويشـــترك النعمـــى وتســـترعف النصل

قال فطرب الفضل طربًا شديدًا وأمر بأن تعدُّ الأبيات فعدَّت فكانت ثمانين بيتًا فأمر له بثمانين ألف درهم، وقال: لولا أنها أكثر ما وصل به شاعر لزدتك لكنه شأو لا يمكن تجاوزه يعني أن الرشيد رسمه لمروان بن أبي حفصة وأمره بالجلوس معه والمقام عنده لمنادمته، فأقام عنده[1].

حكاية (٥٤)

وقال أبو الفرج بإسناد ذكره: أن عمرو بن ثابت قال ركبت يومًا إلى دار صالح بن الرشيد فاجتزت لمحمد بن جعفر بن موسى الهادي وكان معاقرًا للصبوح فألفيته في ذلك اليوم خاليًا منه فسألته عن السبب في تعطيله إياه فقال نيران عليّ غضبى يعني جارية كانت لبعض النخاسين ببغداد وكانت إحدى المحسنات وكانت بارعة الجمال ظريفة اللسان وكان قد أفرط في حبها حتى عرف فيه فقلت له ما تحب قال تجعل طريقك على مولاها فإنه سيخرجها إليك فإذا فعل دفعت رقعتي هذه إليها ودفع إليه رقعة فيها:

ضـــيعت عهـــد فـــتى لعهـــدك حافظ ... في حفظـــه عجـــب وفي تضـــييعك

---

(١) انظر: الأغاني (٩/٦٥).

ونأيــــت عـــنه فمالـــه مـــن حـــيلة إلا الوقـــــوف إلى أوان رجـــــوعك
متخشـــعًا يـــذري علـــيك دمـــوعه أســـفًا ويعجـــب مـــن جمود دموعك
أن تقتلـــــيه وتـــــذهبي بفـــــؤاده فبحســـن وجهـــك لا يحســُ صنيعك

فقلت له: نعم أنا أتحمل هذه الرسالة وكرامة على ما فيها حفظًا لروحك عليك فإني لا آمن أن يتمادى بك هذا الأمر، فأخذت الرقعة وجعلت طريقي على منزل النخاس فبعثت إلى الجارية اخرجي فخرجت فدفعت إليها الرقعة وأخبرتها بخبري فضحكت ورجعت إلى الموضع الذي خرجت منه فجلست جلسة خفيفة وإذا بها ومعها رقعة فيها:

فمـــا زلـــت تُقصـــيني وتُغري بي الردى وتهجـــرني حـــتى حـــويت على الهجرى
وتقطـــع أســـبابي وتنســـى مـــؤذني فكـــيف ترى يا مالكي في الهوى صبري
فأصـــبحت لا أدري أيأسًـــا تصـــبري علـــى الهجـــر أم حـــد التصبر لا أدري

قال: فأخذت الرقعة منها وأوصلتها إليه وسرت إلى منزلي فصنعت لأبيات محمد بن جعفر لحنًا وفي أبياتها لحنًا ثم سرت إلى الأمير صالح بن الرشيد فعرفته ما كان من خبري وغنيته الصوتين فأمر بإسراج دوابه فأسرجت وركب وركبت معه إلى النخاس مولى نيران فما برحنا حتى اشتراها منه بثلاثة آلاف دينار وحملها إلى دار محمد بن جعفر فوهبها له وأقمنا يومنا عنده[1].

حكاية (٥٥)

حدث أحمد بن أبي داود قال: ما رأيت رجلاً عرض على الموت فلم يكترث به ولا عدل عما أراد إلا تميم بن جميل الخارجي وكان قد خرج على المعتصم ورأيته وقد جيء به أسيرًا فأدخل عليه في يوم موكب وقد جلس المعتصم للناس جلوسًا عامًا ودعا بالسيف والنطع فلما مثل بين يديه نظره المعتصم فأعجبه حسنه وقده ومشيته إلى الموت غير مكترث به فأطال الفكر فيه ثم استنطقه لينظر أين عقله ولسانه من جماله فقال: يا تميم إن كان لك عذر فأت به. فقال: أما إذا أذن أمير المؤمنين في الكلام فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله سلالة من ماء مهين يا أمير المؤمنين تخرس الألسن وتصدع الأفئدة واسم الله لقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة وسيئ الظن ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك وأنت إلى العفو أقرب وهو بك أشبه وأليق

---

(١) انظر: الأغاني (٢٠/٩٢).

وأنشده[(١)]:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكثر ظني أنك اليوم قاتلي ومن ذا الذي مما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يأتي بعذر وحجة وسيف المنايا بين عينيه مُصلت
يعز على الأوس بن تعلب موقفي يهز عليه السيف فيه ويسكت
وما جزعي أني أموت وإنني لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعي إليهم وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا
فإن عشت عاشوا آمنين بغبطة أذود الردى عنهم وإن مُتُ موتوا
وكم قاتل لا يُبعد الله داره وآخر جدلان يسر ويشمت

قال فبكى المعتصم وقال: إن من البيان لسحرًا كما قال رسول الله ﷺ، ثم قال: يا تميم كاد والله أن يسبق السيف العذل، وقد وهبتك لله ولصبيتك وعفوت عن زلتك ثم عقد له ولاية على عمله وخلع عليه وأعطاه خمسين ألف دينار[(٢)].

حكاية (٥٦)

قيل: وقف أعرابي بباب داود بن المهلب سنة لم يؤذن له فلما أذن للناس إذناً عامًا دخل في جملتهم فقضى داود حوائج الناس على طبقاتهم وبقي هو فرفع داود رأسه إليه وقال حاجة يا بدوي؟ فقال: نعم أصلح الله الأمير إني أتيتك ممتدحًا بأبيات من الشعر آمل بكل بيت منها ألف درهم فقال، له داود قل فاندفع ينشد:

آمنت بداود وجود يمينه من الحدث المخشى والبؤس والفقر
فأصبحت لا أخشى بداود نكبة ولا حدثانا إذ شددت به ظهري
فما طلحة الطلحات ساواه في الندى ولا حاتم الطائي ولا خالد القسري

---

(١) انظر: العقد الفريد (٣/٢٣٦).
(٢) انظر: جمهرة خطب العرب (٣/١٤٦).

لـــه حلـــم لقمـــان وصـــورة يوســـف ومـــال ســـليمان وصـــدق أبي ذر
فـــتى تهـــرب الأمـــوال مـــن جود كفه كمـــا يهـــرب الشـــيطان من ليلة القدر
لــــه همـــم لا منتهـــى لكـــبيرها وهمـــته الصـــغرى أجـــل مـــن الدهر
وراحـــته لـــو أن مُعشـــار عشـــرها علـــى الـــبر كـــان السائدي من البحر

فقال داود: أحسنت يا أعرابي أيما أحب إليك أعطيك على قدرك أو على قدري أو على قدر الشعر؟ فقال بل على قدر الشعر، فأمر له بكل بيت ألف درهم فأخذها وانصرف فقال له بعض جلسائه: لو استعدته أيها الأمير فاستخبرته لم اختار على قدر الشعر ولم يختر على قدرك؟ فأمر برده عن ذلك فقال أيها الأمير نظرتُ إلى الدنيا وإذا هي لا تفي بمعشار عشر قدرك فأشفقت أن أسألك ما لم تُطق. فقال له أحسنت والله هذا أحسن من شعرك وأضعف له الجائزة فأخذها وانصرف.

حكاية (٥٧)

وقال الأصمعي: مررت ببعض أحياء العرب وكنت أروي أشعارهم وأطرف بأخبارهم فخرجت من الحي وكأني لم أدخله فرماني الدهر إلى بعض الأفاريق فاستسقيت من أهل الفريق ماء فلم أسق فخرجت من الحي فانتهيت إلى بيت مفرد فاستسقيت أهله ماء فخرجت إليّ جارية وبيدها قعب من لبن وفي الأخرى وعاء فيه ماء فقالت: يا هياه هذا ماء وهذا لبن فأيهما شئت فابدأ به وإن أردت الطعام فهو لك معد فعجبت من سخائها عند بخل قومها وهي بينهم فشكوت إليها بخل قومها فقالت: يا فتى، اسمع مني ثم طفقت تقول:

خـــذ مـــن الـــناس مـــا تيســـر ودع مـــن الـــناس مـــا تعســـر
فإنمـــا الـــناس مـــن زجـــاج إن لم تـــرفق بـــه تكســـر

فانصرفت بالبيتين وهما أحب إليّ من مائتي دينار ثم رأيت نشرًا عاليًا عليه بيت مُنفرد فقلت: ما هذا البيت الذي أرى إلا لذي كرم ولعلي أجده عالمًا فأممته فلما دنوت منه إذا رجل قائم على الباب فلما رآني ولج البيت فولجت في أثره فنظر إليّ ثم وقف فبكى بكاء عاليًا وأنشد يقول:

وقفـــت وقـــوف الشـــك ثم استمر بي يقـــين بـــأن المـــوت خـــير من الفقر
وقائلـــة تخشـــى علـــيّ مـــن الـــردى وللمـــوت خـــير مـــن حياة على عسر
سأكســـب مـــا لا أو أمـــوت بـــبلدة يقـــل بهـــا فـــيض الدموع على قبري

فقلت: يا هذا، كلام أديب، وشعر لبيب فزدني من كلامك زادك الله من كل خير فقال:

رُزقـــت لـــبا ولم أرزق مـــروءته ... ومـــا المـــروءة إلا كثـــرة المـــال

إذا أردت مســـــاواة تقاعـــــدني ... عمـــا يـــنوه باسمـــي رقـــة الحـــال

قلت له: إني جليس الخليفة فلعلي أزرع لك عنده خيرًا فزدني من حسن كلامك ونطقك فطفق يقول:

مـــن يـــزرع الخـــير يحصد ما يسر به ... وزارع الشـــر مـــنكوس علـــى الرأس

إن الأولى كـــان يرجـــى فضـــل نائلهم ... أضـــحوا لـــذي جدث في بطن أرماس

إن الجديـــدين مـــع طـــول اختلافهما ... لا ينقصـــان ويجـــري النقص في الناس

فأتيت بمقالته إلى الرشيد فأعجب بها ودفع إليّ ألف دينار، وأمرني بالرجوع قبل إلمامي بأهلي وقال: تدفعها إلى الرجل وإن لم تلقه فادفع المال إلى أقرب الناس إليه، فأتيت الحي وقصدت البيت فإذا البيت قد قوض فسألت عنه فقيل إنه دُعي فأجاب فسألت أقرب الناس إليه فقيل لي: صاحبة هذا البيت المفرد، فأتيته فإذا هي صاحبتي التي سقتني الماء فسألتها عن أخيها فقالت لي: يا هيا، كان والله يحتمل المغارم ويبتني المكارم ويدفع العظائم فأسلمه قومه للنوائب وتركوه للمصائب فهلك والله ضياعًا، ولم يخلف متاعًا ، فقلت لها: يا هذه إن معي ألف دينار حياك بها أمير المؤمنين، فقالت: وصل الله أمير المؤمنين بالكرامة وأجز له الثواب في دار المقامة، ثم قالت: والله لنحن أكرم من أن يجتمع عندنا ألف دينار نُحاسب ونعذب عليها ثم قالت لخادمتها: ائتيني بعجائز الحي، فأتت بخمسين عجوزًا فقسمت المال بينهن ولم تدخر منه إلا ما أصاب واحدة منهن[1].

حكاية (٥٨)

قيل كان لكثير عزة غلام تاجر فأتى الشام بمتاع يبيعه فأرسلت عزة امرأة تطلب لها ثيابًا فوقفت على غلام كثير وهي لا تعرفه فابتاعت منه حاجتها ولم تدفع له الثمن فكان يختلف إليها مقتضيًا فأنشد ذات يوم من قول مولاه:

أرى كـــل ذي ديـــن يـــوفي غـــريمه ... وعـــزة ممطـــول معـــنى غـــريمها

قال: فقالت له المرأة التي ابتاعت منه الثياب: هذه والله دار عزة ولها والله ابتعت

---

(١) انظر: البيان والتبيين للجاحظ (٤٨٨/١).

منك الثياب، فقال: أنا والله غلام كثير وأشهد الله أن الثياب لها ولا آخذ من ثمنها شيئًا، فبلغ ذلك كثيرًا، فقال: وأنا أشهد الله أنه حُر وما بقي معه من المال فهو له.

حكاية (٥٩)

أخبرنا الهيثم بن عدي قال: تمارى ثلة من الأجواد، فقال رجل: أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ﷺ، وقال آخر: بل أسخى الناس قيس بن سعد ابن عبادة، وقال آخر: بل أسخى الناس عرابة الأوسي فتلاحوا وأفرطوا في المراء وكثر ضجيجهم وهم بفناء الكعبة فقال لهم: قد أكثرتم فلا عليكم أن يمضي كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه فنحكم العيان، فقام صاحب عبد الله بن جعفر إليه فصادفه وقد وضع رجله في راحلته يريد ضبعة له فقال: يا ابن عم رسول الله ﷺ قال: قل ما تشاء قال ابن سبيل منقطع به قال: فأخرج رجله من الغرز وقال ضع رجلك واستو على الناقة وخذ ما في الحقيبة ولا تخدع عن السيف فإنه من سيوف علي بن أبي طالب ﷺ.

قال: فجاء بالناقة والحقيبة وفيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار وأعظمها وأجلها السيف، ومضى صاحب قيس بن سعد بن عبادة إليه فصادفه نائمًا فقالت الجارية: هو نائم فما حاجتك إليه، قال: ابن سبيل ومنقطع به قالت الجارية: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس اليوم غيره، وامض إلى معاطن الإبل إلى مولانا بعلامتنا فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبدًا وامض لشأنك فقيل: إن قيسًا لما انتبه من رقدته أخبرته بما صنعت فأعتقها، ومضى صاحب عرابة الأوسي إليه فألفاه وقد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يمشي على عبدين وقد كف بصره فقال: يا عرابة فوقف، وقال: قل ما شئت قال: ابن سبيل ومنقطع به فخلى العبدين وصفق بيده ثم قال أوه ما أصبح ولا أمسى الليلة عرابة وقد تركت له الحقوق مالاً ولكن خذها، يعني العبدين، قال: ما كنت بالذي أقص جناحك قال: إن لم تأخذهما فهما حران فإن شئت فأعتق وإن شئت فخذ وأقبل يلمس الحائط بيده راجعًا إلى منزله قال: فأخذتهما، وجاء بهما فقيل: إنهم أجواد عصرهم إلا أنهم حكموا لعرابة لأنه أعطى جسده.

حكاية (٦٠)

قال عبد الله بن المعتمر القيسي: حججت سنة إلى بيت الله الحرام فلما قضيت حجي عدت لزيارة قبر النبي ﷺ فبينا أنا ذات ليلة جالس بين القبر والروضة إذ سمعت أنينًا عاليًا وحنينًا فأنصت إليه فإذا هو يقول:

أشجاك نوح حمائم السدر ... فأهجن منك بلابل الصدر

أم عـــز نـــومك ذكـــر غانـــية ... أهـــدت إلـــيك وســـاوس الذكـــر
في لـــيلة نـــام الخلـــى بهـــا ... وخلـــوت بالأحـــزان والفكـــر
يـــا لـــيلة طالـــت علـــى دنـــف ... يشـــكو الفـــراق وقلـــة الصـبر
أســـلمت مـــن يهـــوى لحـــر جـــوى ... مـــتوقد كـــتوقد الجمـــر
فالـــبدر يشـــهد أنـــني كلـــف ... مغـــرى بحـــب شـــبيهة الـــبدر
مـــا كـــنت أحســـبني لهـــا شـــجنًا ... حـــتى بُلـــيت وكـــنتُ لا أدري

قال: ثم انقطع الصوت، ولم أدر من أين جاءني فبقيت حائرًا ساعة فإذا به قد أعاد البكاء والحنين وأنشأ يقول:

أشـــجاك مـــن ريـــا خـــيال زائـــر ... والليـــل مســـود الـــذوائب عاكـــر
واعـــتاد مهجـــتك الهـــوى ورسيســـه ... وأهـــاج مُقلـــتك المـــنامُ الباكـــر
ناديـــت ليلـــى والظـــلام كأنـــه ... يم تلاطـــم فـــيه مـــوج زاخـــر
والـــبدر يســـري في الســـماء كأنـــه ... ملـــك تـــرحل والـــنجوم عســـاكر
وتـــرى بـــه الجـــوزاء ترقص في الدجى ... رقـــص الحبـــيب عـــلاه ســـكر ظاهر
وإذا تعرضـــت الثـــريا خلـــتها ... كأسًـــا بهـــا حـــبب الســـلافة دائـــر
يـــا لـــيل طلـــت علـــى محـــب ما له ... إلا الصـــباح مســـاعد ومـــؤازر
فأجـــابني مـــت حـــتف أنفك واعلمن ... أن الهـــوى لهـــو الهـــوان الحاضـــر

قال: فنهضت عند ابتدائه بالأبيات أؤم الصوت فما انتهى إلى آخرها إلا وأنا عنده فرأيت غلامًا كما نزل عذاره وقد خرق الدمع في وجنتيه خرقين فقلت: نعمت غلامًا، فقال: وأنت نعمت ظلامًا، فمن الرجل؟ قلت عبد الله بن المعتمر القيسي قال: ألك حاجة يا فتى؟ قلت: إني كنت جالسًا في الروضة فما راعني في هذه الليلة إلا صوتك فبنفسي أفديك وبروحي أقيك، ما الذي تجد؟ قال: إن كان ولابد فاجلس فجلست فقال: أنا عيينة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري غدوت إلى مسجد الأحزاب فبقيت راكعًا وساجدًا ثم اعتزلت غير بعيد فإذا نسوة يتهادين كأنهن القطا، وفي وسطهن جارية بديعة الجمال في نشوئها كاملة الملاحة في عصرها نورها يسطع وطيبها يتضوع فوقفت عليّ وقالت: يا

عيينة، ما تقول في وصل من طلب وصلك؟ ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبرًا ولا قفوت لها أثرًا فأنا حيران أنتقل من مكان إلى مكان ثم صرخ صرخة عظيمة، وارتمى على الأرض، ثم أفاق بعد ساعة فكأنما صُبغت ديباجته بورس وأنشأ يقول:

أراكـــم بقلـــبي مــــن بــــلاد بعـــيدة تــــراكم تـــروني بالقلـــوب علـــى بُعد
فـــؤادي وطـــرفي يأســـفان علـــيكم وعـــندكم روحـــي وذكـــركم عـــندي
ولســـت ألـــذ العـــيش حـــتى أراكـــم ولـــو كـــنت بالفـــردوس أو جنة الخلد

قال: فقلت له يا أخي: تب إلى ربك، واستقل من ذنبك، فإن بين يديك هول المطلع وشر المضجع فقال: هيهات هيهات ما أنا بالٍ حتى يئوب القارظان ولم آل به إلى أن طلع الصباح فقلت له: قم بنا إلى مسجد الأحزاب فلعل الله أن يكشف كربتك، قال: أرجو ذلك ببركة طلعتك إن شاء الله فسرنا إلى أن وردنا إلى مسجد الأحزاب فسمعته يقول:

يـــا للـــرجال لـــيوم الأربعـــاء أمـــا يـــنفك يحـــدث لي بعـــد النهـــى طرباً
مـــا إن يـــزال غـــزال فـــيه يظلمـــني يهـــوي إلى مســـجد الأحـــزاب منتقبًا
يخـــبر الـــناس أن الأجـــر همـــته ومـــا أتـــى طالـــبًا للأجـــر مكتســـبًا
لـــو كـــان يبغـــي ثـــوابًا ما أتى ظهرًا مضـــمخا بفتـــيت المســـك مختضـــبًا

فجلسنا حتى صلينا الظهر فإذا بالنسوة قد أقبلن وما الجارية.فيهن فقلن: يا عيينة، ما ظنك بطالبة وصلك وكاشفة كربك؟ قال: وما بالها؟ قلن: أخذها أبوها وارتحل إلى السماوة فسألهن عن الجارية فقلن هي ريا ابنة الغطريف السلمي فرفع رأسه إليهن وأنشأ يقول:

خليلـــي ريـــا قـــد أجـــد بكـــورها وســـارت إلى أرض الســـماوة عيرهـــا
خليلـــي مـــا تقضـــي بـــه أم مالـــك علـــىّ فمـــا يعـــدو علـــيّ أميرهـــا
خليلـــي إني قـــد غشـــيت مـــن البكا فهـــل عـــند غـــيري مقلة أستعيرها (١)

قال: فقلت: يا عيينة، إني وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر والله لأبذلنه أمامك حتى أعطيك الرضا وفوق الرضا فقم بنا إلى مجلس الأنصار فقمنا حتى أشرفنا على ملأ منهم فسلمت فأحسنوا الرد فقلت: أيها الملأ ما تقولون في عيينة وأبيه؟ قالوا: خيرًا وابن خير من

---

(١) انظر: قرى الضيف (٢/٦٣).

سادات العرب قلت: إنه قد رمي بداهية من الهوى وقد نزل بفؤاده رسيس الجوى وما أريد منكم إلا المعونة إلى السماوة، فقالوا: سمعًا وطاعة، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بني سليم بأرجاء خفان من السماوة، فقلنا: أين منزل الغطريف؟ قالوا: أمامكم فسرنا وأعلم الغطريف، فخرج مبادرًا فاستقبلنا وقال: حييتم بالإكرام وحييتم بأفضل الإنعام، فقلنا: وأنت حييت وحييت إننا لك أضياف قال: نزلتم أكرم منزل وحللتم أفضل معقل، ثم قال: يا معاشر العبيد، أنزلوا القوم ففرشت العبيد الأنطاع والنمارق فنزلنا ثم ذُبحت الذبائح ونُحرت النحائر، فقلنا لسنا بذائقين طعامك حتى تقضي حاجتنا وتردنا بمسرتنا، قال: وما حاجتكم؟ قلنا: نخطب عقيلتك الكريمة لعيينه بن الحباب بن المنذر الطيب العنصر العالي المفخر فقال: يا إخوتاه إن التي تخطبونها أمرها إلى نفسها وهأنا داخل عليها أخبرها ثم نهض مُغضبًا فدخل على ريا وكانت كاسمها فقالت: يا أباه مالي قد أرى الغضب قد حل عليك؟ فقال لها: ورد الأنصار يخطبونك منى، قالت: سادات كرام وأبطال عظام استغفر لهم النبي ﷺ فلمن الخطبة منهم؟

قال: لفتى يُعرف منهم بعيينة بن الحُباب، قالت: بالله قد سمعت عن عيينة هذا إنه يفي بما وعد ويدرك إذا قصد ويأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد، فقال: اقسم لا أزوجنك به أبدًا فقد نمى إليّ خبرك وبعض حديثك معه، فقالت: ما كان ذلك ولكن إذ أقسمت فإن الأنصار لا يردون مردًا قبيحًا فأحسن لهم الرد، قال: بأي شيء؟ قالت: أغلظ لهم في المهر فإنهم يرجعون فلا يجيئون، قال: ما أحسن ما قلت، ثم خرج مُبادرًا فقال: إن فتاة الحي قد أجابت ولكن أريد لها مهرًا مثلها فمن القائم به؟ قال عبد الله بن المعتمر: أنا: قل ما شئت، قال: أريد ألف مثقال من الذهب الأحمر، قال: لك ذلك، قال: وأريد خمسة آلاف درهم من ضرب هجر، قال: لك ذلك، قال: وأريد مائة ثوب من الأبراد والحبر ، قال: لك ذلك، قال: وأريد عقدًا من الجوهر قال: لك ذلك، قال: وأريد عشرين ثوبًا من الوشى المطير قال: لك ذلك، قال وأريد خمسة أكرشه من العنبر، قال: لك ذلك.

قال: وأريد مائة نافجة من المسك الأذفر، قال: لك ذلك، فهل أجبت؟ قال: أجل ثم أجل، فأنفذ عبد الله بن المعتمر نفرًا بجميع ما ضمنه وذبحت النعم والغنم واجتمع الناس لأكل الطعام، قال: فأقمنا أربعين صباحًا على هذه الحال ثم قال: خذوا فتاكم وانصرفوا مصاحبين ثم حملها في هودج وجهزها بثلاثين راحلة من التحف والطرف وودعنا وسرنا حتى إذا سرنا وبقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة وأحسب أنها من بني سليم فحمل عليها عيينة بن الحباب فقتل منها عدة من الرجال وانحرف راجعًا وبه طعنة تفور دمًا ثم سقط إلى الأرض وأتتنا النُصرة من سكان تلك الأرض فطردوا عنا

الخيل وقد قضى عيينة نحبه فقلنا: واعييناه: فسمعتنا الجارية فألقت نفسها عليه وجعلت تترشفه وتصيح بحرقة وتقول:

تصـــبرت لا أني صـــبرت وإنمـــا أعلـــل نفســـي أنهـــا بـــك لاحقـــة

ولـــو أنصـــفت نفســـي لكانت إلى الردي أمامـــك مـــن دون الـــبرية ســـابقة

فمـــا أحـــد بعـــدي وبعـــدك منصـــف خلـــيلاً ولا نفـــس لـــنفس بصـــادقة

ثم شهقت شهقة واحدة فقضت نحبها فاحتفرنا جدثًا وواريناهما فيه ورجعت إلى ديار قومي وأقمت سبع سنين ثم عُدتُ إلى الحجاز فوردت إلى الزيارة فقلتُ: والله لأعودن إلى قبر عيينة أزوره فأتيت إلى القبر فإذا عليه شجرة نابتة عليها عصائب حُمر وصُفر وخُضر فقلت لأرباب المنزل: ما يقال لهذه الشجرة؟ قالوا: شجرة العروسين فأقمت عند القبر يومًا وليلة وانصرفت فكان آخر العهد به.

حكاية (٦١)

حدث أبو بكر محمد بن علي المارداني بمصر قال: كنتُ أُساير أبا الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون بدمشق وقد خرجنا للصيد وأخذنا على نهر ثورًا فبينما نحن نسير إذ تلقاه أعرابي فأخذ بعنان فرسه وأنشده:

إن الســـنان وحـــد الســـيف لـــو نطقا لحـــدثا عـــنك بـــين الـــناس بالعجب

أفنـــيت مالـــك تعطـــيه وتُنهـــبه يـــا آفـــة الفضـــة البيضـــاء والذهب

فقال أبو الجيش: يا غلام ادفع إليه ما في الخريطة وكان فيها خمسمائة درهم، فقال: أيها الأمير زدني فقال أبو الجيش لمن حضر من الغلمان: اطرحوا سيوفكم ومناطقكم فقال: أيها الأمير أتقتلني؟ فأمر أن يدفع إليه بغل من بغال الموكب وحمل ذلك معه وعدنا من الصيد فما استقر بي مجلسي حتى ورد عليّ توقيع أبي الجيش خمارويه «تقدم أمتعني الله بك بصياغة سبعة عشر سيفًا وسبع عشرة منطقة ذهبًا جيدًا للغلمان مكان ما بذلوه ليتحسر من تأخر من الغلمان على ما فاتهم من ذلك»(١).

حكاية (٦٢)

ركب الفضل بن يحيى يومًا من منزله بباب الشماسية فتلقاه فتى من الأبناء مُملك ومعه جماعة من الناس محملون يحملون إلى أملاكه فلما رآه الفتى نزل فقبل يده ولم يكن

---

(١) انظر: غرر الخصائص (ص ١٦٩).

يعرفه فسأله عن الصداق فعرفه أنه أربعة آلاف درهم فقال الفضل لقيمه: أعطه أربعة آلاف درهم صداق زوجته وأربعة آلاف درهم ثمن مسكن يسكنه وأربعة آلاف درهم لينفقها على وليمته وأربعة آلاف درهم يستعين بها على العقد الذي عقده على نفسه وانصرف.

حكاية لطيفة (٦٣)

قيل صار على محمد بن إبراهيم الإمام دين فركب إلى الفضل بن يحيى ومعه حق فيه جوهر فقال له: قصرت بنا غلاتنا وأغفل أمرنا خليفتنا وتزايدت مئونتنا فلزمنا دين احتجنا إلى أدائه وهو ألف ألف درهم وقد كرهت بذل وجهي للتجار وإزالة عرضي بينهم ومعي رهن ثقة بذلك إذا رأيت أن تأمر بعضهم بقبضه وحمل المال إلينا فعلت، فدعا الفضل بالحق فرأى ما فيه وختمه بخاتم محمد بن إبراهيم ثم قال له: نجح الحاجة أن تقيم اليوم في منزلك عندي فقال له: إن في ذلك عليّ مشقة، فقال له ما يشق عليك من ذلك؟ إن رأيت أن تلبس بعض ثيابنا دعوتُ بها وإلا أمرت بإحضار ثياب من دارك، فأقام ونهض الفضل ودعا بوكيله فأمره بحمل المال وتسليمه إلى خادم محمد بن إبراهيم وتسلم الحق إليه الذي فيه الجوهرة بخاتمه وأخذ خطه بذلك، ففعل الوكيل ذلك وأقام محمد عنده إلى المغرب وليس عنده شيء من الخبر ثم انصرف إلى منزله فرأى المال وأحضر الخادم الحق فغدا على الفضل ليشكره فوجده قد ركب إلى دار الرشيد فوقف منتظرًا له فقيل له: قد خرج من الباب الآخر قاصدًا إلى منزله فانصرف عنه، فلما وصل إلى منزله وجه الفضل إليه ألف ألف درهم أُخرى فغدا عليه فشكره وأطال فأعلمه الفضل أنه بات بليلة طالت عليه غما بما شكاه إلى أن لقي الرشيد فأعلمه حاله فأمره بالتقدير له ولم يزل يعاكسه إلى أن تقرر الأمر معه إلى ألف ألف درهم، فقال: إنه لم يصلك بمثلها قط ولا زادك على عشرين ألف دينار فشكرته وسألته أن يصك بها صكًا بخطه ويجعلني الرسول ففعل فشكره محمد وقال: صدق أمير المؤمنين أنه لم يصلني بأكثر من عشرين ألف دينار وهذا إنما تهيأ بك وعلى يدك وما أقدر على القيام بحقك ولا على شكر أجازي به معروفك غير أن عليّ، وعليّ، وحلف أيمانًا مؤكدة إن وقفت على باب أحد سواك ولا سألت غيرك حاجة أبدًا ولو سففت التراب فكان لا يركب إلى أحد غير الفضل إلى أن كان من أمرهم ما حدث فكان لا يركب إلى غير دار الرشيد ويعود إلى منزله فعوتب بعد تقضي أيامهم في ترك إتيان الفضل بن يحيى فقال: والله لو عمرت ألف عام ومصصت الثماد ما وقفت بباب أحد بعد الفضل بن يحيى ولا سألته حاجة أبدًا حتى ألقى الله عز وجل ولم يزل على تلك الحالة إلى أن مات.

حكاية (٦٤)

قيل: لما حج الرشيد(١) ورجع قافلاً نزل الأنبار فدعا صالحًا في التاريخ الذي يعرفه على البرامكة وقال له: اخرج وصر إلى منصور بن زياد فقل له لنا عليك عشرة آلاف ألف درهم فاحملها إلي من يومك هذا فإن هو دفعها إليك كاملة قبل مغيب الشمس من يومك هذا، وإلا فاحمل إليّ رأسه وإياك ومراجعتي في شيء من أمره، قال صالح: فصرت إلى منصور وهو في الدار فعرفته الخبر فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهبت والله نفسي ثم حلف أن جميع أمواله وأملاكه وجميع ما تحوي عليه يده ما يقوم بثلاثمائة ألف درهم فكيف عشرة آلاف ألف درهم؟

فقال له صالح: خذ في أمرك فإني لا أقدر أن أحابي فيما أمرني به أمير المؤمنين فقال: يا صالح امض بنا إلى داري فمضيت به فما هو إلا أن دخل حتى ارتفع الصراخ والبكاء من منزله وحجر نسائه فأوصى وخرج وما فيه لحم ولا دم قال صالح: فقلت له: ربما يكون لك فرج على أيدي البرامكة فامض بنا إليهم، فأخذ يبكي ويصرخ فأتينا يحيى بن خالد وشرحت له ما ناله فاغتم وأطرق إلى الأرض مفتكرًا زمانًا طويلاً ثم رفع رأسه واستدعى خازنه وقال: كم في خزانتنا من الدراهم؟ فقال: مقدار خمسة آلاف ألف درهم، فأمر بإحضارها وأنفذ قاصدًا إلى الفضل ولده وقال للرسول: قل له إنه قد عرض عليه بيع ضياع جليلة فينفذ لنا ما عنده من الدراهم فأنفذه ألفي ألف درهم وأنفذ آخر إلى جعفر وقال للرسول: قل له قد اتفق لنا شغل ونحتاج فيه إلى شيء من الدراهم فأنفذ له جعفر ألف ألف درهم فقال يحيى: قد أصبح الآن لنا من الدراهم تسعة آلاف ألف درهم فقال منصور: يا مولاي قد تمسكت بك وما أعرف خلاص روحي وإتمام بقية ديني إلا منك فأطرق يحيى إلى الأرض وبكى وقال: يا غلام إن أمير المؤمنين كان قد وهب جاريتنا دنانير العوادة جوهرة عظيمة القيمة فامض إليها وقل لها: تنفذ إلينا تلك الجوهرة فمضى الغلام وأتى بها إليه فقال يحيى: يا صالح أنا ابتعت هذه الجوهرة لأمير المؤمنين من التجار بمائتي ألف درهم ووهبها أمير المؤمنين لدنانير فإذا رآها عرفها وقد تم الآن مال منصور. فقل لأمير المؤمنين ليهب لنا منصورًا قال صالح: فحملت المال والجوهرة إلى الخليفة فبينما نحن في الطريق أنا ومنصور فسمعته يتمثل ببيت من الشعر فعجبت من رداءته وفأل أصله وخبث ميلاده وهو هذا البيت:

فمـــا بقـــيا علـــيّ تـــركتماني ولكـــن خفـــتما صـــرد اللـــيالي

---

(١) انظر الأغاني (١٦/٢٧٩)، (١٨/٢٠٨).

قال صالح: فحردت عليه وقلت له ما على وجه الأرض خير من البرامكة ولا شر منك فإنهم اشتروك وأنقذوك من الهلاك ومنوا عليك بالفكاك ولا تشكرهم ولا تحمدهم وتفعل فعال غير الأحرار، وقلت: ما قلت ثم مضيت إلى الرشيد وقصصت عليه القصة وعرفته بما جرى فتعجب وأمر برد تلك الجوهرة وقال: شيء وهبناه لا يجوز أن نعود فيه فأعدتها إلى يحيى وقصصت عليه قصة منصور وما قاله وبدا منه من سوء فعله فقال يحيى: إذا كان الإنسان مقلاً ضيق الصدر مشغول الفكر بضائقة اليد فمهما قاله أو يقوله فليس ذلك من قلبه، وجعل يطلب العذر لمنصور فبكى صالح وقال: لا يرجع الفلك الدائر يخرج مثلك إلى الوجود رجلاً واأسفًا! كيف يتوارى رجل مثلك له خلق مثل أخلاقك.

حكاية (٦٥)

قال القاضي أبو القاسم علي بن المحسن بن علي التنوحي مؤلف كتاب الفرج: حدثني علي بن هشام قال: سمعت أبا الحسن علي بن موسى يتحدث قال: سمعت عبد الله بن سليمان بن وهب يقول: حدثني أبي قال: كنت وأبو العباس أحمد بن الخصيب مع خلق من العمال والكتاب معتقلين في يدي محمد بن عبد الملك الزيات في آخر وزارته للواثق نطالب بقايا مصادراتنا ونحن آيس ما كنا من الفرج ووافق ذلك علة الواثق واشتد مرضه وحُجب ستة أيام عن الناس فدخل عليه أبو عبد الله أحمد بن أبي داود قاضي القضاة، فقال له الواثق: يا أبا عبد الله، وكان يكنيه، ذهبت مني الدنيا والآخرة أما الدنيا فما ترى من حضور الموت، وأما الآخرة فما أسلفت من العمل القبيح فهل عندك من دواء؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين قد عزل محمد بن عبد الملك جماعة من الكتاب وغرك فيهم وملأ بهم الحبوس ولم يحصل من جهتهم على كثير شيء، وهم خلق كثير وراءهم ألف يد تُرفع إلى الله بالدعاء عليك أفتأمر بإطلاقهم لترفع تلك الأيدي بالدعاء لك فلعل الله تعالى أن يهب العافية فأنت محتاج في هذه الحالة إلى أن يقل خصومك، قال: نعم ما أشرت به وقع عني إليه بإطلاقهم، فقلت: إن رأى خطي عاند ولج ولكن يغتنم أمير المؤمنين الثواب ويحمل على نفسه ويستند ويوقع لهم بخطه، ففعل الواثق ذلك ووقع لهم بخط مضطرب إلى ابن الزيات بإطلاقهم وإطلاق كل من كان في الحبس من غير استئمار، ولا مراجعة قال: يا أمير المؤمنين تقدم إلى إيتاخ أن يمضي بالتوقيع إليه ولا يدعه يعمل شيئًا حتى يُطلقهم وأن يحول بينه وبين الوصول إليك أو يكتب رقعة أو الاشتغال بشيء ألبتة إلا بعد إطلاقهم وإن لقيه راكبًا في الطريق فينزله عن دابته ويُجلسه حتى ينتهي إلى أمرك فتقدم الواثق إلى إيتاخ بامتثال ذلك فتوجه فلقي ابن الزيات راكبًا يريد الخليفة فقال له: تنزل عن دابتك وتجلس على غاشيتك فارتاع لذلك فظن أن الحادثة قد وقعت به فنزل وجلس على غاشيته فأوقفه

على التوقيع فامتنع وقال: إذا أطلقت هؤلاء من أين أنفق الأموال وأقيم الأجناد؟ فقال: لابد من ذلك.

قال: أركب وأستأذنه، فقال: لا سبيل إلى ما ذكرت، قال: فدعني أكاتبه، قال: ولا هذا، ولم يدعه يبرح من موضعه حتى وقع بإطلاقهم عن آخرهم، قال: فصار أيتاخ إلينا ونحن في الحبس آيس ما كنا من الفرج وقد بلغنا اشتداد علة الواثق وأرجف لابنه بالخلافة وكان صبيًا فخفنا إن تم ذلك فيجعل ابن الزيات الصبي شيخًا وبتولي التدبير فيتلفنا وقد امتنعنا من الطعام والشراب لفرط الغم، فلما دخل إيتاخ السجن لم نشك أنه حضر لبلية فقال: البشارة بالإطلاق وعرفنا صورة الحال وأطلقنا فحمدنا الله تعالى ودعونا لأحمد بن أبي دؤاد وللخليفة وانصرفنا إلى منزلنا فأقمنا لحظة ثم خرجنا فوقفنا لأحمد بن أبي دؤاد على طريقه ننتظر عودته من دار الخليفة فحين رأيناه ترجلنا ودعونا له وشكرناه. فأنكر ذلك وأكبره ومنعنا من الترجل فلم نمتنع فوقف حتى ركبنا وسايرناه وأخذ يُخبرنا بالخبر ونحن نشكره وهو يستصغر ما فعل ويقول هذا أقل حقوقكم وستعلمون ما أفعله مستأنفًا، ورجع إلى دار الخليفة عشيًا فقال له الواثق: قد تبركت برأيك يا أبا عبد الله وقد وجدت خفًا من العلة ونشطت وأكلت دون خمسة دراهم خبزًا بصدر دجاج.

فقال له: يا أمير المؤمنين تلك الأيدي التي كانت تدعو عليك غُدوة قد صارت تدعو لك عشية ويدعو لك بسببهم خلق كثير من رعيتك إلا أنه قد صاروا إلى دور خراب وأحوال قبيحة بغير فرش ولا كسوة ولا دواب موتى جوعاً وهُزالا، قال: فما ترى؟ قال: يا أمير المؤمنين تستكمل نعمة الله عندك وتُكمل نعمتك عند هؤلاء القوم بما تفعله معهم، قال: وما ذاك؟ قال: في الخزائن والإسطبلات بقايا ما أخذ منهم فلو أمرت أن ننظر في ذلك فكل من وجُد له شيء باق يُرد عليه ويُفرج لهم عن ضياعهم ليعيشوا بها ويخف الإثم ويتضاعف الثواب والدعاء وتقوى العافية، قال: وقع عني بذلك فوقع عنه فما شعرنا من الغد إلا وقد رجعت إلينا نعمتنا ومات الواثق بعد ثلاثة أيام أو أربعة وفرج الله عنا بابن أبي دؤاد وبقيت له هذه المكرمة في أعناقنا.

حكاية (٦٦)

قال أبو الفرج الأصفهاني[1]: أخبرني إسماعيل بن يونس يرفعه إلى جرير قال: قال يونس الكاتب: خرجت إلى الشام في خلافة هشام بن عبد الملك ومعي جاريتي عاتكة وكنت قد علمتها وهذبتها وأنا أقدر فيها ما أستغني به فلما قربنا من دمشق نزلت القافلة على غدير ماء ونزلتُ ناحية

---

(١) في الأغاني (١٤٣/١٩).

عنها فأصبت من طعام كان معي وأخرجت ركوة فيها فضلة نبيذ كان معي فشربت فبينما أنا في تلك الحال إذ أقبل فتى حسن الوجه والهيئة على فرس أشقر ومعه خادمان فسلم عليّ وقال أتقبل ضيفًا؟ فقمت وأخذت بركابه وتحققت أنه من بيت الخلافة ودخلتني له هيبة وإجلال وقلت له: انزل يا سيدي، فنزل وقال: اسقنا من شرابك فسقيته فقال: إن سهل عليك أن تغني لي صوتًا فافعل فغنيته:

ليت شعري أأول الهرج هذا ... أم زمان من فتنة غير هرج؟

فطرب واستعاده ثم قال: قل لجاريتك لي صوتًا فأمرتها فغنت لحني في شعر ابن هرمة:

أفاطم إن النأي يُسلي ذوي الهوى ... وأن يعادي زادني فيكمو وجدا

فطرب واستعاده مرارًا حتى صليت العشاء الآخر، فقال لي: ما أقدمك على هذا البلد؟ قلت: أردت بيع جاريتي هذه، قال: فكم قدرت فيها من الثمن؟ قلت: ما أقضي به ديني وأصلح به حالي، فقال: أيقنعك ثلاثون ألفًا؟

قلت: ما أحوجني إلى فضل الله تعالى والمزيد منه قال: فيقنعك أربعون ألفًا؟ قلت: منها قضاء ديني وأبقى صفرًا مجردًا، قال: فقد أخذتها بخمسين ألف درهم ولك بعد ذلك جائزة وكسوة ونفقة طريقك وأن أشركك في حالي، أبدًا ما بقيت فقلت: قد بعتكها.

قال: قد قبلت أفتثق بي أن أحمل ذاك إليك غدًا وأحملها معي أم تكون عندك؟ فحملني السكر وهيبته والخشية منه على أن قلت: نعم، قد وثقت بك فخذها بارك الله لك فيها فقال لأحد خادميه: احملها على دابتك وارتدف وراءها وامض بها، وركب فرسه وودعني فما هو إلا أن غاب حتى عرفت موضع خطئي وغلطي وقلت: ماذا صنعت بنفسي وجنيت عليها؟ أسلم جاريتي إلى رجل لا أعرفه ولا أدري من هو ولا ما اسمه ولا نسبه ولا من أي البلاد هو وليتني عرفته من أين أصل إليه؟ وجلست موضعي ورحل أصحابي ودخلوا إلى دمشق وصهرتني[1] الشمس فوربت بين المقام والدخول، فقلت: إن دخلت لم آمن أن يجيء رسول الرجل يطلبني فلا يجدني ولا يعرف موضعي وأكون قد جنيت على نفسي جناية ثانية، فأقمت ونفذت رحلي مع بعض أهل المدينة وجلست في ظل جدار هناك، فلما أضحى النهار إذا أحد الخادمين اللذين كانا بالأمس مع الرجل قد أقبل عليّ فما أذكر أنني سررت بشيء مثل سروري بالنظر إليه، فقال لي: أنا منذ الصباح أطوف في طلبك في رفقتك، فقبل أن أسأله عن شيء قلت: من صاحبي؟ فقال لي: وليّ العهد الوليد بن يزيد

(١) في نسخة (حصرتني) ولعل الصواب ما أُثبت.

فسكنت نفسي ثم قال: قم فاركب، وإذا معه دابة فركبتُ إليه فإذا الجارية قد أفرد لها حجرة وهي فيها فأدخلني إليها فلما رأتني وثبت قائمة وسلمت عليّ، فقلت: ما كان منك؟

قالت: دخل إلى داره وأنزلت ههنا وتفقدت بما أحتاج إليه وأنا كما ترى بثياب سفري، فجلست عندها فإذا الخادم قد أقبل فقال: قم فقمت فأدخلني إلى صاحبي بالأمس وهو جالس على سريره، فقال: من تكون؟ فقلت: يونس الكاتب، فقال: مرحبًا بل قد كنت والله إليك مشتاقًا وكنتُ أسمع بخبرك فكيف كان مبيتك في ليلتك؟ فقلت: بخير أعزك الله، قال: أما ندمت على ما كان منك البارحة وقلت: دفعت جاريتي إلى رجل لا أعرفه؟ فقلت: أيها الأمير، وما قدر هذه الجارية؟ قال: لكني ندمت على أخذها منك، وقلت رجل غريب لا يعرفني وقد غممته الليلة وسفهت رأيي في استعبالي[1] بأخذها أفتذكر ما كان بيننا؟ قلت: نعم، قال: أوقد بعتني الجارية بخمسين ألف؟ قلت: نعم، قال: هات يا غلام المال فجاء به الغلمان يحملونه فوضعوه بين يديه ثم قال: هات يا غلام ألف دينار مفردًا فجيء بالكيس فوُضع فقال: هات خمسمائة دينار أخرى فجاء بها فوضعها أيضًا بين يديه فقال: هذا مال جاريتك ضمه إليك وهذه ألف دينار لحسن ظنك بنا وهذه خمسمائة دينار لنفقة طريقك وما تبتاعه لأهلك أرضيت؟ فقبلت يده ورجله وقلت: قد والله ملأت يدي وعيني، قال: يا غلام قدم إليه دابة بسرج ولجام لمركوبه وبغلاً لثقله، ثم قال: إذا بلغك أن الأمر قد أفضى إليّ فزرني فوالله لأملأن يديك ولأغنينك ما بقيت، فخرجت وتوجهت إلى بلدي فلما أفضت الخلافة إليه صرت إليه فوفى والله بوعده وزاد وكنت والله معه في أسرّ حال وأسنى منزلة وقد اتسعت أحوالي واقتنيت من الضياع والأملاك ما أعيش به إلى الآن ومن بعدي ولم أزل معه حتى قُتل[2].

حكاية (٦٧)

قيل: كان الأفشين[3] مبغضًا لأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، وحاسدًا له على فضله فحمل نفسه يومًا على قتله فاستدعاه باستحثاث وانزعاج وكان صديقًا لقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد فبعث إليه «**أدركني فمن أمري كذا وكذا**»، فركب

---

(١) في الأصل استعمالي، والصواب ما أُثبت

(٢) انظر: الأغاني (١٩/٤٣، ١٤٦).

(٣) ذكر القلقشندي في صبح الأعشى (٥/٤٥٤) أن الطائفة الثانية: ملوك أشروسنة، كان كل من ملكها يقال له: الأفشين، وقال في ذخيرة الكتاب، وبه لقب المعتصم بالله خيذر بن لكووس الأفشين لأنه أشروستي.

مسرعًا واستخف من حضره من الشهود فلما ورد باب الأفشين قال له الغلمان: نستأذن لك فقال: الأمر أعجل من ذلك ونزل فدخل على الأفشين فوجده جالسًا في مجلسه وقد أقيم أبو دلف بين يديه في الصحن، فلما رأى الأفشين قاضي القضاة قد دخل بغير إذن بُهت، فقال له أحمد بن أبي دؤاد: أيها الأمير أنا رسول أمير المؤمنين يأمرك أن لا تُحدث في أمر القاسم حدثًا إلا بإذنه ثم التفت إلى الشهود وقال: اشهدوا أني بلغت رسالة أمير المؤمنين والقاسم حي معافى، ثم خرج فأتى باب المعتصم مسرعًا فاستأذن عليه فأذن له فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين قد كذبتُ عليك واحدة أرجو بها الجنة ولك بها الفخر، قال: وما هي؟ قال: كان من الأمر كيت وكيت، فضحك المعتصم وقال: أحسنت أحسن الله إليك ثم لم يلبث حتى جاء الأفشين مستأذنًا فأذن له، فلما استقر في مجلسه قال: يا أمير المؤمنين جاءتني رسالة منك مع قاضي القضاة في معنى دلف فما تأمرني به؟ قال: نعم أنا أرسلتُ إليك فاحذر أن تتعرض له إلا بالخير، فأفلت بذلك من يده.

حكاية (٦٨)

قال القاضي أبو القاسم بن علي بن المحسن بن علي التنوخي في كتاب الفرج: حدثني أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني الكاتب قال: كان محمد بن زيد العلوي الداعي بطبرستان إذا افتتح الخراج نظر ما في بيت المال من خراج السنة التي قبلها وفرقه في قبائل قريش على دعوتهم وفي الأنصار والفقهاء وأهل القرآن وسائر طبقات الناس إلى أن يفرق جميع ما قد بقي، فجلس في سنة من السنين يفرق مثل ذلك على عادته فلما بدأ ببني عبد مناف وقد فرغ من بني هاشم دعا سائر بني عبد مناف فقام إليه رجل فقال: من أي بنى عبد مناف أنت؟ قال: من بني أمية.

قال: من أيهم؟ فسكت، قال: لعلك من ولد معاوية، قال نعم، قال: من أيهم؟ فسكت، قال: لعلك من يزيد؟ قال: نعم، قال بئس الاختيار اخترت لنفسك من قصدك بلدًا ولايته آل أبي طالب وعندك ثأرهم في سيدهم وقد كانت لك مندوحة عنهم بالشام والعراق عند من يتولى جدك ويجب رفدك فإن كنت جئت عن جهل منك بهذا فما يكون بعد جهلك شيء وإن كنت جئت مستهزئًا بهم فقد خاطرت بنفسك، فنظر إليه العلويون نظرًا شديدًا وهموا به فصاح به محمد.

وقال: كفوا عافاكم الله كأنكم تظنون أن في قتل هذا إدراكًا وثأرًا بالحسين بن علي عليهما السلام وأي جرم لهذا إن الله تعالى قد حرم أن تُطالب نفس بغير ما

اكتسبت والله لا يعرض له أحد إلا أقدته به واسمعوا حديثًا أحدثكم به يكون لكم قدوة فيما تسابقون: حدثني أبي عن أبيه قال: عُرض على المنصور سنة حج جوهر فاخر فعرفه وقال: هذا كان لهشام بن عبد الملك، وهذا بعينه قد بلغني خبره عن ابنه محمد وما بقي منهم أحد غيره، ثم قال للربيع: إذا كان غدًا وصليت بالناس في المسجد الحرام وحصل الناس فيه فأغلق الأبواب كلها ووكل بها ثقاتك من الشيعة واقفلها وافتح للناس بابًا واحدًا فقف عليه فلا يخرج إليك أحد إلا وقد عرفته فلما كان من غد فعل الربيع ذلك وتبين لمحمد بن هاشم القصة فعلم أنه هو المطلوب وأنه مأخوذ لا محالة، فتحير وأقبل محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام على أثر ذلك فرآه متحيرًا متلددًا وهو لا يعرفه فأنكر أمره وقال له: يا هذا أراك متحيرًا متلددًا فمن أنت؟ ولك الأمان من الله التام العام وأنت في ذمتي حتى أخلصك بعون الله عز وجل، قال: أنا محمد بن هشام بن عبد الملك فمن أنت؟ قال: أنا محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب، قال: فعند الله أحتسب نفسي إذًا.

قال: لا بأس عليك يا ابن عم فإنك لست قاتل زيد ولا في قتلك إدراك لثأره وأنا الآن بخلاصك أولى مني بإسلامك ولكن تعذرني فيما أتناولك به من مكروه وقبيح أخاطبك به يكون فيه خلاصك بمشيئة الله وعونه، فقال: يا سيدي أنت وذاك فطرح رداءه على رأسه ووجهه ولببه به وأقبل يسحبه، فلما وقعت عين الربيع عليه لطمه لطمات وجاء به إلى الربيع وقال: يا أبا الفضل إن هذا الجمال خبيث من أهل الكوفة أكراني جماله ذاهبًا وغاديًا وقد هرب مني في هذا الوقت وأكرى بعض القواد الخراسانية ولي عليه بذلك شهود فتضم إليّ حرسين يصيران به معي إلى القاضي ويمنعان الخراساني من اعتراضه إن اعترضنا، فضم إليه الربيع حرسين وقال: امضيا به معه، فلما بعد من المسجد قال له: يا خبيث تؤدي إليَّ حقي، قال: نعم يا ابن رسول الله فقال للحرسين: انصرفا في حفظ الله تعالى، فلما بعدا أطلقه فقبل محمد بن هشام رأسه وقال: بأبي أنت وأمي فالله يعلم حيث يجعل رسالاته ثم أخرج جوهرًا له قدر عظيم فدفعه إليه وقال: تشرفني يا سيدي بقبول هذا مني، قال: اذهب بمتاعك يا ابن عم فإنا أهل بيت لا نقبل على المعروف مكافأة وقد تركت لك دم زيد وهو أعظم قدرًا من متاعك فانصرف راشدًا ووار شخصك عن هذا الرجل إلى أن يخرج فإنه مجد في طلبك فمضى وتوارى.

قال: ثم أمر محمد بن زيد الداعي بطبرستان للأموي بمثل ما أمر به لسائر بني عبد مناف وضم إليه جماعة من مواليه وأمرهم أن يخرجوا معه إلى الري ويأتوه بكتابه وسلامته، فقام الأموي فقبل رأسه ومضى معه القوم حتى بلغ مأمنه وكتب إليه بالسلامة فجاءوا بكتابه كما أمرهم وبسلامته.

حكاية (٦٩)

قال أبو القاسم بن المعمر الزهري كنت أسير مع يحيى بن خالد وهو مع ابنيه الفضل وجعفر فإذا أبو النبيعي واقف على الطريق فناداني يا زهري:

صحبت البرامكة عشرًا ولاء ... وبيتي كراء خبزي شراء

قال فسمعه يحيى بن خالد فالتفت إلى الفضل وجعفر وقال: أف لهذا النغل أبو النبيعي ممن يحاسب فلما كان من الغد جاءني أبو النبيعي فقلت له: ويحك ما هذا الذي عرضت له نفسك؟ فقال: اسكت ما هو إلا أن صرت إلى منزلي حتى جاءني من قبل الفضل بدرة ومن قبل جعفر بدرة ووهب لي كل واحد منهما دارًا وأجرى عليَّ من مطبخه ما يكفيني.

حكاية (٧٠)

قيل: عرض محمد بن الجهم دارًا للبيع بخمسين ألف درهم فلما حضر الشهود ليشهدوا قال: بكم تشترون مني جوار سعيد بن العاص؟ فقالوا: إن الجوار لا يباع، قال: وكيف لا يباع جوار من إن سألته أعطاك، وإن سكت عنه ابتدأك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإن هجرته عطف عليك، قال: فبلغ ذلك سعيدًا فوجه إليه بمائة ألف درهم وقال له: أمسك عليك دارك.

حكاية (٧١)

قال إبراهيم بن المهدي[1]: خلا جعفر يومًا في منزله وحضر ندماؤه، وكنتُ فيهم فتضمخ بالخلوق ولبس الحرير وفعل بنا مثل ذلك وتقدم إلى الحاجب بحفظ الباب إلا من عبد الملك بن نجران كاتبه فوقع في أذن الحاجب عبد الملك ومضى صدر من النهار وبلغ عبد الملك بن صالح بن علي الهاشمي مقام جعفر في منزله فركب إليه فلما وصل دار جعفر وجه الحاجب إليه: قد حضر عبد الملك، فقال: يؤذن له

(١) انظر: العقد الفريد (١/١٣٤).

وهو يظن أنه كاتبه، فدخل عبد الملك ابن صالح في سواده يرفل فلما رآه جعفر اسود وجهه وكان عبد الملك لا يشرب النبيذ وكان ذلك سبب مؤاخذة الرشيد عليه لأنه كان يلتمس منادمته فيأبى عليه فوقف عبد الملك على ما رأى من جعفر فدعا غلامه فناوله سواره وقلنسوته وسيفه وأقبل حتى وقف على باب المجلس فسلم وقال: افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم فدنا منه خادم فألبسه حريرًا وضمخه بالخلوق ثم جلس ودعا بطعام فأكل ودعا بنبيذ فأتى برطل فشربه وقال لجعفر: والله ما شربته قبل اليوم فليخفف عني برطاية فجعلت بين يديه وجعل كلما فعل شيئًا سرى عن جعفر فلما أراد الانصراف قال له جعفر: سل حاجتك فيما تحيط مقدرتي بمكافأة ما كان منك اليوم قال: إن في قلب أمير المؤمنين هناة فسله الرضا عني قال: قد رضى عنك قال: وعلي أربعة ألف ألف درهم تقضى عني قال: إنها عندي حاضرة ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين فإنه أنبل لك وأحب إليك قال: وإبراهيم ولدي أحب أن أشد ظهره بظهر من الخلافة قال: زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية: وأحب أن يخفق فوق رأسه لواء، قال: قد ولاه مصر، وانصرف عبد الملك ونحن متعجبون من إقدام جعفر على قضاء هذه الحوائج من غير استئذان فقلنا: لعله أن لا يجاب إلى ما فعل من الحوائج فكيف بالتزويج؟ هل يطلق لجعفر أو لغيره ذلك؟ فلما كان من الغد غدونا فوقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر فلم يلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسين وإبراهيم بن عبد الملك ثم خرج إبراهيم وقد خلع عليه وحملت البدر إلى منزل عبد الملك وخرج جعفر فأشار إلينا باتباعه إلى منزله فلما عدنا إلى دار جعفر قال: تعلقت قلوبكم بأول أمر عبد الملك فأجبتم على علم آخره: إني لما دخلت على أمير المؤمنين وقمت بين يديه ابتدأت أحدثه القصة من أولها إلى آخرها فجعل يقول أحسن والله حتى أتممت خبره وما أجبته به فجعل يقول في كل ذلك: أحسنت أحسنت وكان ما رأيتم(١).

حكاية (٧٢)

قال: كان بين غسان بن عباد وبين علي بن عيسى القمي وقعة أدت إلى عداوة، وكان علي بن عيسى ضامنًا أعمال الضياع والخراج ببلده فبقيت عليه بقية مبلغها

---

(١) انظر: الأغاني (٦/٣٠١).

أربعون ألف دينار فألح المأمون في اقتضائها ومطالبته به إلى أن قال لعلي بن صالح حاجبه: طالب علي بن عيسى بما بقي عليه وأنظره ثلاثة أيام فإن أحضر المال قبل انقضائها وإلا فاضربه بالسياط حتى يؤديها أو يتلف فانصرف علي بن عيسى من دار المأمون آيسًا من نفسه إذ كان لا يعرف وجهًا يخلصه من المال فقال له كاتبه: لو عرجت على غسان بن عباد وخبرته خبرك لرجوت لك أن يعينك على أمرك فقال له: على ما بيني وبينه؟ قال: نعم فإن الرجل أريحي كريم الطباع فحملته الحالة التي هو عليها على قبول ذلك من كاتبه فدخل إلى غسان فقام إليه وتلقاه بالجميل ووفاه حقه فقال له علي بن عيسى: الحال التي بيني وبينك لا توجب ما أبديت من التكرمة وقد جئتك متعذرًا منها فقال له غسان: ذلك بحيث تقع المنافسة عليه والمضايقة فيه والذي بيني وبينك بحاله ولدخولك داري حرمة توجب لك عليّ ما رجوته عندي لا سيما وقد سبق عذرك فاذكر إن كانت لك حاجة فقص عليه كاتبه القصة فقال: أرجو أن يكفيه الله تعالى ولم يزده على هذا شيئًا، فنهض علي بن عيسى وخرج من عنده آيسا نادمًا على قصده غسان على ما بينهما، وقال لكاتبه لما خرج ما أفدتني بقصد غسان والتزامي به والدخول عليه إلا تعجيل الشماتة بي والهوان وعسى أن يجد بذلك السبيل إلى التشفي في التوبة عليّ وأخذ يتندم على ما كان منه، فلم يصل علي بن عيسى إلى منزله حتى حضر إليه كاتب غسان ووكيله ومعهما البغال عليها المال فبلغاه سلامه وسلما إليه ما معهما وانصرفا وبكر غسان إلى دار المأمون من الغد، وبكر علي بن عيسى فوجد غسان قد سبقه إليها ودخل على المأمون ومثل بين الصفين وقال: يا أمير المؤمنين إن لعلي بن عيسى بحضرتك حرمة وخدمة وسالف صلة ولأمير المؤمنين عليه إحسان وهو أولى به وبحفظه وقد لحقه من الخسران في ضمانه والجائحة ما قد تعارفه الناس وقد أوعز أمير المؤمنين بالأجناد عليه في المطالبة وتوعده من ضرب السوط بما أتلف نفسه وأطار عقله وأذهل لبه وأدهشه وما هو فيه من الاضطراب في الخلاص والاحتيال فيما عليه من عدم القدرة والمعين على ذلك فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزيني على عادات حسن كرمه عندي في تشفيعي فيه ببعض ما عليه فعل فهي صنيعة يجددها عندي تحرس ما تقدم من إحسانه وتضاعف وجوب الشكر عليها والاعتداد بسبوغ نعمه بها.

قال: ولم يزل يلطف به بمثل هذا القول ونحوه إلى أن حطه النصف مما عليه

واقتصر منه على عشرين ألف دينار، فقال غسان: على أن يجدد أمير المؤمنين عليه الضمان ويشرفه بخلع تقوى نفسه وترهف عزمه ويعرف بها مكان الرضا فأجابه المأمون إلى ذلك، قال: أفيأذن لي أمير المؤمنين أن أحمل الدواة إلى حضرته ليوقع بما رآه من هذا الإنعام فيبقي شرف حملها عليّ وعلى عقبي من بعدي؟ قال: افعل، فحمل الدواة وأحضرها فوقع له المأمون بما التمس وخرج علي بن عيسى بالخلع عليه والتوقيع بيده، فلما حصل في داره حمل من المال عشرين ألف دينار وأعادها على غسان وشكره على جميل فعله معه، فقال لكاتبه: كأنني شفعت إلى أمير المؤمنين ليعيد إليّ المال ولم أستحطه ذلك إلا ليتوفر وينتفع به وليس يعود إليّ منه شيء أبدًا وأعاد المال إليه وكان ذلك سبب صلاح ما بينهما، وعرف علي بن عيسى ما فعله معه غسان فلم يزل يخدمه إلى آخر العمر.

حكاية (٧٣)

قال القاضي أبو علي القاسم بن المحسن التنوخي في كتابه: أخبرني الصولي قال: حدثنا محمد بن القاسم بن خلاد قال: رفع بعض العمال إلى المعتصم وكان قد تولى من الخراج والحرث ما كان يتولاه خالد بن يزيد بن مزيد وكان خالد بن يزيد بن مزيد قد اقتطع الأموال واحتجن بعضها فغضب المعتصم وحلف ليأخذن أموال خالد ويعاقبه وينفيه، فلما سمع خالد بن يزيد راح إلى أحمد بن أبي دؤاد القاضي واحتال حتى جمع بينه وبين خصمه، فلم يقم على خالد حجة فعرف ابن أبي دؤاد المعتصم بذلك وشفع في خالد فلم يشفعه، وأحضر له آلات العقوبة وكان قبل ذلك قبض على أمواله وضياعه وصرفه عن العمل، فدخل ابن أبي دؤاد فجلس دون مجلسه الذي كان يجلس فيه فقال له المعتصم: ارتفع إلى مكانك فقال: يا أمير المؤمنين ما استحق إلا دون هذا المجلس، قال: وكيف؟

قال: الناس يزعمون أنه ليس محلي محل من يشفع في رجل قذف بما ليس فيه ولم يتضح عليه منه شيء؟ فلم يشفع فيه، قال: فارتفع إلى موضعك، قال: مشفعًا أو غير مشفع؟ قال: بل مشفعًا قد وهبت لك خالدًا ورضيت عنه، قال: إن الناس لا يعلمون بهذا، قال: قد رددت عليه جميع ما قبض له من ضياعه وأمواله، قال: فأمر بفك قيوده وأخلع عليه، ففعل ذلك، فقال: قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر فإن رأى أمير المؤمنين أن يجعلها صلة له، قال: لتحمل معه، فخرج خالد وعليه الخلع والمال

بين يديه والناس يتوقعون الإيقاع به فلما رأوه على تلك الحالة سروا به، ثم صاح إليه رجل: نحمد الله على صلاحك يا سيد العرب، فقال: له: بل سيد العرب والله ابن أبي دؤاد الذي طوقني هذه المكرمة والمنة(١).

حكاية (٧٤)

قيل: كان فتى من ذوي النعيم قعد به زمانه وله جارية حسناء محسنة في الغناء فضاق بهم الخناق واشتدت بهم الحالة في عدم ما يقتاتون به فقال لها: قد ترين ما قد صرنا إليه من هذه الحالة السيئة والله العظيم للموت أحب إليّ مما أذكره لك، فقالت: إني والله ليسوؤني أن أراك على غير الحالة التي تسرني فيك بنهاية الأمر بنا أن تحل بأحدنا منيته فيقتل الآخر نفسه عليه فقال: إن رأيت أن أبيعك لمن يحسن إليك فيغسل عنك ما أنت فيه من الغثاء والضر وأنفرج أنا بما لعله يصير إليّ من الثمن ولعلك تحصلين عند من توصلين إلى نفعي فيما بعد فيكون الفرج على يديك فماذا ترين؟ فقالت: والله لموتي على تلك الحالة معك آثر عندي من انتقال إلى غيرك ولو كان ملكًا ولكن اصنع ما بدا لك قال: فخرج وعرضها للبيع فأشار عليه بعض أصدقائه ممن له رأي أن يحملها إلى ابن معمر وكان أميرًا بالعراق قال: فحملها إليه فلما عرضت عليه استحسنها وقال لمولاها: كم كان شراؤها عليك؟ قال: مائة ألف درهم وقد أنفقت عليها مائة ألف دينار، فقال له: أما ما أنفقته عليها ففي لذاتك فغير محتسب لك وأما ثمنها فقد أمرنا لك بمائة ألف درهم وعشرة أسقاط ثيابًا وعشرة أرؤس من الخيل وعشرة من الرقيق أرضيت؟ قال: نعم أرضى الله الأمير، فأمر بالمال فأحضر وأمر قهرمانة بإدخال الجارية إلى دار الحرم فأمسكت بجانب الستر وبكت وقالت:

هنيئًا لك المال الذي قد أخذته ... ولم يبق في كفي غير التذكر
أقول لنفسي وهي عندي عزيزة ... أقلي فقد بان الحبيب أو أكثري
إذا لم يكن للأمر عندك حيلة ... ولم تجدي بدًا من الصبر فاصبري

قال: فأجابها مولاها على شعرها يقول:

---

(١) انظر: الأغاني (١٩/ ٦٠).

فلـــولا قعـــود الدهـــر بي عنك لم يكن   يفـــرقنا شـــيء ســـوى الموت فاعذري
أروح بهـــم مـــن فـــراقك موجـــع   أناجـــي بـــه قلـــبًا قلـــيل التصـــبر
علـــيك ســـلام لا زيـــارة بينـــنا   ولا وصـــل إلا أن يشـــاء ابـــن معمـــر

فقال له ابن معمر: قد شئت فخذها بارك الله لك فيها وفيما صار منا إليك فأخذها وأخذ المال والخيل والرقيق والثياب وانصرف شاكرًا داعيًا لابن معمر فعاد وقد أثرى حاله وحسنت مودته(١).

حكاية (٧٥)

حدث موسى بن الحسن بن زياد قال: كان محمد بن أوس يتعشق غرس جارية عيناء ابنة مظهر الصنعاني وكانت لا تخرج في اليوم والليلة إلا بخمسة دنانير وكان إذا استدعاها وخرجت إليه اقتطعها شهرًا كاملاً وأكثر فحجبتها عنه في بعض الأوقات واحتجت عليه بكسوة الشتاء فكتب إليها رقعة يسألها إنفاذها ووعدها أن يكلم الوزير في أمر أرزاقه ليبلغ محبوبها، وكتب رقعة أخرى إلى الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان وخرج باكرًا مغلسًا ليلقى الوزير بالرقعة، وغلط بين الرقعتين فحمل على كمه الرقعة التي كتبها إلى عيناء قال: فلما رأى الوزير ذهب ليترجل فمنعه من ذلك فدفع إليه الرقعة فدعا عبيد الله بالشمع فأدنى منه وقرأ الرقعة وعلم بما فيها فاستدعى أحمد بن العباس بن سارة وقال: خذ هذه الرقعة وأعمل فيها وأوحى إليه بشيء سرًا فمضى إلى عيناء فابتاع الجارية منها وابتاع لها وصيفة بمائة دينار وكسوة بثلثمائة دينار وصار بالجميع إلى منزل محمد بن أوس وقد كان الوزير أمسكه إلى وقت الطعام فتغذى معه وجلس للشراب وحضر محمد بن العباس ابن سارة، فقال له الوزير: ما صنعت فيما كان قد أمرتك به؟

فقال: قد أنجزته، فقال لمحمد بن أوس: صر إلى منزلك فإن الغلام يلقاك، فلما دخل منزله لقيته الجارية وكانت في مدة عشقه لها تمنعه من الدنو منها فجرى على عادته تلك في الإمساك عنها وترك مقاربتها لما كان يعرف منها فقالت: لا تنقبض فما لي اليوم منك امتناع فأنا اليوم ملك يدك قال: وما القصة؟ فأخبرته بما كان من

---

(١) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (١/٣٦٢)، والأغاني (١٥/٣٧٩).

أحمد بن العباس ابن سارة عن أمر الوزير فعجب من ذلك ولم يعرف سببه ثم فكر في الرقعة فقام لينظر في الرقعة الأخرى فلقي التي كتبها إلى الوزير باقية فعلم أنه غلط بين الرقعتين فركب إلى دار الوزير فاستأذن عليه ليعتذر فأنفذ إليه: أنت الليلة عريس اذهب فأقم في عرسك سبعة أيام ثم صر إلينا بعد ذلك، فعاد إلى داره فأقام مع الجارية أيامًا وأنفذ إليه عبيد الله توقيعًا بأرزاقه وقد زاد فيها ورفع مرتبته وصار إليه بعد ذلك فشكره على ما كان منه ولم يزل في خدمته مناصحًا إلى أن مات.

حكاية (٧٦)

قال أوس بن حارثة المري وكان رئيسًا مسددًا نبيلاً عالي الهمة وله أخبار كثيرة فمن أحسنها ما رواه أبو الفرج البجلي عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: حدثنا أبو عمرو بن العلاء عن أشياخه قال: جلس النعمان بن المنذر يوم نعيمه في حلة مذهبة مطوقة بالدر لم ير أحسن منها، وأذن للعرب فدخلوا إليه وكان فيهم أوس بن حارثة بن لأم الطائي، قال:فجعلت وجوه العرب تعجب من حسن الحلة ويتحدث بعضها إلى بعض وأوس بن حارثة مطرق فقال النعمان: ما أرى فيمن دخل إليَّ من استحسن هذه الحلة على نقصان قدرها عندي غيرك يا أوس فقال: أيها الملك أسعدك الله أيما تستحسن هذه إذا كانت في يد تاجرها فأما إذا علت الملك وتهلل وجهه المشرق فيها فالأبصار مقصورة عليه، فاسترجع عقله واستحسن ما أتى به فعرض للنعمان خالد بن بشر في التماسها، فقال: أنا أفكر في ليلتي وأدفعها غدًا إلى من أرى أنه سيد العرب فانصرفوا وكل طامع مهموم، فلما كان من غد تزينت وجوه العرب وغدت إلى باب النعمان تسحب أذيالها وتنظر في أعطافها وكل يرى أنه صاحب الحلة، وتأخر أوس فقال له أصحابه: ما لك لا تغدو إلى الملك فلعلك تكون المسوَّد في العرب بأخذها فيتم فخرك؟

فقال أوس يا سبحان الله إن كنت سيد قومي فلست بسيد طبقات العرب عند نفسي وإنما وعد الملك أن يدفع الحلة إلى سيد العرب ولست أعرفه مني ولا من غيري إلا أن الملك أولى برأيه فإن أنا حضرتُ ولم آخذها انصرفت مهمومًا منقوصًا وإن كنت المطلوب فسيرسل إليَّ، فأمسكوا عنه مستعجبين لرأيه قال: ونظر النعمان في وجوه الجماعة ففقد أوسا فوقع له ما فكر فيه فاستدعى بعض بطانته وأنفذه إليه كالمتعرف بخبره من غلمانه، فأعيد عليه ما قال، فعاد به النعمان فقال: امض إليه وقل

له إن الملك يستبطئك على تأخرك، فحضر يومه في الثوب الذي حضر فيه أمسه وقد كانت وجوه العرب سرت بتأخره لاستشعارها أن الملك كان يدفع إليه الحلة لو حضر، فلما أخذ مجلسه من حضرة النعمان رفعه وقدمه ومد يده إليه وقال: أراك لم تغير ثوبك في يومك فالبس هذه الحلة لتتجمل بها بين من تجمل من أصحابك، فلبسها فحسدته العرب وقالوا: ليس يخفض رافعه غير الهجاء وليس له مثل جرول[١] فلما كلموه في ذلك قال: إنه لا سبيل عندي إليه فكيف أهجو رجلاً حسنًا لا ينكر بيته كريمًا لا يعيب عطاءه فاضلاً لا يطعن على رأيه شجاعًا لا يصطلي بناره محسبًا لا أرى في بيتي شيئًا إلا من أفضاله ثم قال[٢]:

كيف الهجاء وما ينفك فاخرة   من آل لأم بظهر الغيب تأتيني

قال: فسمع بشر بن أبي حازم بذلك فرغب في البذل فقال: أنا أهجوه، فجعلوا له ثلثمائة بعير فهجاه، فوجه أوس إلى إبله التي استعجلها وما كان له قبلها وطردها وحصلها عنده ثم طلبه ليقتله فهرب بجلده وجعل يطلب عزيزًا يستجير به فلا يقصد أحدًا إلا قال له: أجيرك من كل الناس إلا أوس بن حارثة فإني ما أحب عداوته، فبينما هو يدور وقد أذكى أوس العيون عليه إذ رآه بعض من كان يرصده فقبض عليه وحمله إلى أوس فلما حصل في يده شاور أمه سُعدى وكان قد هجاها فأكثر وقال لها: أي قتلة تحبين أن أقتله؟ قالت: كلا والله يا أوس إن قتلته ليثبتن قوله كالنقش في الصخر وليس يمحوه عنك إلا مديحه لك فامنن عليه وأطلقه واردد عليه ما أخذ له فعلم أن الصواب ما أشارت به فأحضره وقال: ما ترى أني صانع بك؟ قال تقتلني قال: أنت مستحق لذلك مني لكن سُعدى رقت لك وأشارت عليَّ فيك بأمر وأنا قابله، ثم أمر به ففك قيوده ورد إليه إبله وزاده عليها من عنده وكساه وجمله وقال: انصرف إلى أهلك راشدًا، قال: فرفع بشر رأسه ويديه إلى السماء وقال: اللهم اشهد على بشر أنه لا يمدح أبدًا غير أوس بن حارثة ما مددت له في العمر، قال: فمدحه بعد بقصائد هي ثابتة في ديوانه موجودة فمن ذلك قوله فيه:

إلى أوس بن حارثة بن لأم   ليقضي حاجتي فيمن قضاها

---

(١) هو أبو مليكة جرول بن أوس مخزوم، المعروف بالحطيئة، صاحب الديوان.

(٢) انظر: خزانة الأدب(٢/٢٦٣).

إذا مـــا رايـــة رفعـــت لمجـــد أقامـــوها لتـــبلغ منـــتهاها
فمـــا وطـــئ الحصـــى مثل ابن سُعدى ولا لـــبس الـــنعال ولا احـــتذاها[١]

حكاية ظريفة (٧٧)

قيل: مر المهلب بن أبي صفرة بالكوفة بحي من همدان فقال رجل من الحي: والله ما يساوي إلا خمسمائة درهم طوقه وثيابه، وكان المهلب أعور، فنظر الرجل حتى أثبته فلما راح بالعشي حمل في كمه خمسمائة درهم ثم ضرب دابته حتى وقف في نادي همدان فبصر بالشاب فقال: افتح حجرك يا ابن أخي فخذ قيمة عمك، أما والله لو قومتني بأكثر لجاءك، فقال الفتى: واسوأتاه، فقال له المهلب: لا ضير عليك، فقال شيخ من همدان: أخطأ من سودك.

حكاية (٧٨)

وحدث أبو زيد النحوي قال: أخبرني فتى من أصحاب الحديث قال: دخلت ديرًا في بعض المنازل ذكر لي أن فيه راهبًا حسن المعرفة بأخبار الناس وأيامهم فصرت لأسمع كلامه فوجدته في حجرة معتزلة في الدير وهو في زي المسلمين فكلمت رجلاً فإذا عنده من المعرفة أكثر مما وصفوا، فسألته عن سبب إسلامه فحدثني: أن جارية في هذا الدير نصرانية كثيرة المال فهوت غلامًا مسلمًا وكانت تبذل له مالها والغلام يأبى ما تبذله وما تدعوه إليه، فلما أعيتها الحيلة فيه أعطت رجلاً مصورًا مائة دينار على أن يصور لها الغلام على صورته، ثم أخرج الصورة فأرانيها فإذا هي صورة جميلة، قال: فمازالت كل يوم تأتي الصورة فتلثم ما تحب منها ثم تجلس بحذائها تبكي فإذا أمست قبلتها وانصرفت، فما زالت على ذلك شهرًا فتوفي الغلام فعملت عليه مأتمًا صارت به مثلاً ثم رجعت إلى الصورة فجعلت تقبلها وتلثمها وتبكيها إلى أن أمست الجارية فنامت إلى جانبها فلما أصبحنا وجدناها ميتة ويدها ممدودة على الحائط وقد كتبت عليه:

يـــا نفـــس دونـــك موتًا بعد سيدها خـــذها إلـــيك فقـــد أودت بما فيها
أســـلمت وجهـــي إلى الرحمن مسلمة ومـــت مـــوت حبـــيب كان يعصيها

(١) انظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (١/١١٩).

لعلنا في جنان الخلد يجمعنا ... يوم الحساب ويوم البعث باريها

مات الحبيب وماتت بعده كمدًا ... محبة لم تزل تشقي محبيها

قال: فحملها المسلمون ودفنت إلى جانب قبره فلما أصبحنا وجدنا تحت شعرها مكتوب هذه الأبيات:

أصبحت في راحة مما جنته يدي ... وصرت جارة فرد واحد صمد

محا الإله ذنوبي كلها وغدا ... قلبي خليًا من الأحزان والكمد

لما قدمت على الرحمن مسلمة ... وقلت إنك لم تولد ولم تلد

أثابني رحمة منه ومغفرة ... وأنعمًا باقيات آخر الأبد

فلما قرأت الشعر علمت أن الإسلام أخير من ديني وأن عظم جرمي صغير في جنب غفران الله تبارك وتعالى فأسلمت والحمد لله رب العالمين.

حكاية (٧٩)

قيل: كان عمرو بن دوثرة السحمي له أخ قد كلف بابنة عمه كلفًا شديدًا وكان أبوها يكره ذلك ويأباه فشكاه إلى خالد بن عبد الله القسري وهو يومئذ وال على العراق وذكر أنه يسيء جواره وسأله حبسه فحبسه ثم رق له خالد فأطلقه فلبث الفتى مدة كافًا عن ابنة عمه ثم زاد ما به وغلبه فرط الشوق فحمل نفسه على أن يتسور دار عمه ليرى ابنته فنذر به فقبض عليه وأتى به خالدًا وادعى عليه السرقة وأتاه أبوها بجماعة يشهدون أنهم وجدوه في علو الدار ليلاً، فسأله خالد فاعترف الفتى بالسرقة ليدفع الظنة عن ابنة عمه فعزم خالد على قطع يده، وكتب أخوه رقعة ودفعها إلى من أوصلها إلى خالد، فكان فيها:

أخالد قد أوطئت والله عشوة ... وما العاشق المظلوم فينا بسارق

أقر بما لم يجنه المرء إنه ... رأى القطع خيرًا من فضيحة عاشق

ولولا الذي خفت من قطع كفه ... لألفيت في أمر الفتى غير ناطق

إذا مدت الغايات في السبق للعلا ... فأنت ابن عبد الله أول سابق

فأرسل خالد مولى له يثق به ليكشف له عن حقيقة الأمر فأتاه بالصحيح عن أمر الغلام فأحضر عمه وألزمه بتزويج الجارية من ابن عمها فامتنع وقال: ليس هو كفء لها

فقال: بلى والله هو كفء إذ بذل يده عنها، ولئن لم تزوجه لأزوجنها منه وأنت كاره، فزوجه أبوها بها وساق خالد المهر عنه من ماله وأمره بلزومه لينفعه فلزمه وكان الفتى يسمى العاشق إلى أن مات(١).

حكاية (٨٠)

حدث الواقد بن محمد الواقدي قال: حدثني أبي أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه، فوقع المأمون على ظهر رقعته «إنك رجل اجتمع فيك خصلتان سخاء وحياء فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك وأما الحياء فهو الذي يمنعك أن تبلغنا ما أنت عليه فيه، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فإن كنت قد أصبت فاردد في بسط يدك وإن لم أكن أصبت فجنايتك على نفسك وأنت حدثتني وكنت على قضاء الرشيد عن محمد بن اسحق عن الزهري عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال للزبير بن العوام: «**يا زبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث الله تعالى إلى العبد بقدر نفقته فمن كثر كثر له ومن قلل قلل له وأنت؟**» قال الواقدي: لمذاكرة المأمون إياي الحديث أحب إليّ من الجائزة ومن مائة ألف.

حكاية (٨١)

قيل: كان أبو طالب بن كثير الشيعي أحد الكرماء شابًا فقال له رجل: بحق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلا ما وهبت لي نخيلك بموضع كذا، قال: قد فعلت وحقه لأعطيتك ما يليها، وكان ذلك أضعاف ما طلبه الرجل.

حكاية (٨٢)

قيل: كان أبو مرشد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر: والله ما عندي ما أعطيك ولكن قدمني إلى القاضي وادَّع عليَّ بعشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها واحبسني فإن أهلي لا يتركونني محبوسًا، ففعل ذلك فلم يمس حتى دفعت إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس (وأين هذا في أيامنا؟).

حكاية (٨٣)

قيل: كان معن بن زائدة عاملاً على العراقين وكان بالبصرة فقصده شاعر أقام مدة يريد الدخول على معن فلم يتهيأ له فقال يومًا لبعض خدم معن: إذا دخل الأمير

---

(١) انظر: أخبار النساء لابن الجوزي (ص ١٢٥).

البستان تعرفني، فلما دخل أعلمه فكتب الشاعر بيتًا من الشعر على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل بستان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها مكتوب:

أيــا جــود معــن نــاج معنا بحاجتي فمــا لي إلى معــن ســواك شــفيع

فقال: من صاحب هذه؟ فدعا بالرجل فقال له: كيف قلت فأنشد البيت فأمر له بعشر بدر فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط وقرأ ما فيها ودعا بالرجل فدفع إليه مائة ألف درهم وكذلك في اليوم الثالث، فلما أخذها الرجل تفكر وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج، فلما كان في اليوم الرابع قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال معن: حق عليَّ أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار(١).

حكاية (٨٤)

قيل: أنفذ هارون الرشيد إلى مالك بن أنس ﷺ خمسمائة دينار فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار فغضب الرشيد وقال: أعطيته خمسمائة دينار وأعطيته أنت ألفًا، وأنت من رعيتي، قال: يا أمير المؤمنين إن لي في كل يوم من غلتي ألف دينار فاستحسنت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم، وحُكي عنه أنه لم يجب عليه زكاة قط مع أن في كل يوم دخله ألف دينار.

حكاية (٨٥)

قيل: دخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلاً جوادًا فإذا لم يجد لما يهب كتب أن يسأله الصكاك على نفسه؟ حتى يخرج عطاؤه فلما نظر إليه سليمان مقبلاً تمثل بهذا البيت:

إني سمعــتُ مــع الصــباح مُــناديًا مــن ذا يعــين علــى الفــتى المعوان

ثم قال سل حاجتك، قال: ديني، قال: فكم هو، قال: ثلاثون ألف درهم، قال: لك دينك ومثله لك معونة على مروءتك فقبض المال وشكره وانصرف(٢).

---

(١) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (١/٣٥١).

(٢) انظر بنحوها الأغاني (٢٤/ ١٧٨).

حكاية (٨٦)

قيل: مرض قيس بن سعد بن عُبادة فلم يزره إخوانه فاستبطأهم، فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا فنادى: من كان لقيس عليه حق فهو منه في حل، قال فانكسرت درجته من شدة الزحام بالمشي لكثرة من عاده(١).

حكاية (٨٧)

أخبرنا أحمد بن عبد الباقي البزار قال: أخبرنا علي بن المحسن التنوخي عن أبيه أن عمرو بن مسعدة قال: كنت مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى إذا نزل الرقة قال: يا عمرو ما ترى إلى الرجحي قد احتوى على الأهواز وجمع الأموال وطمع فيها وكتبي متصلة إليه يحملها وهو يدافع ويتعلل ويتربص بي ينتظر الدوائر، فقلت: أنا أكفي أمير المؤمنين هذا الأمر وأنفذ إليه من يضطره إلى حمل ما عليه، فقال: ما يقنعني هذا فقلت: يأمر أمير المؤمنين بأمره، فقال: تخرج إليه بنفسك حتى تصفده بالحديد وتحمله إلى بغداد وتقبض على جميع ما في يده من أموالنا وتنظر في العمل وترتب فيه عمالاً.

فقلت: السمع والطاعة لأمير المؤمنين، فلما كان من الغداة دخلت عليه فاستعجلني فانحدرت في زلال أريد البصرة فاستكثرت من الثلج لشدة الحر فلما صرتُ بين حر حرايا وحيل سمعت صائحًا من الشاطئ: يا ملاح فرفعتُ سجف الزلال فإذا شيخ كبير السن حاسرًا حافي القدمين خلق القميص فقلت للغلام: أجبه، فأجابه فقال: يا غلام أنا شيخ كبير السن على هذه الصورة التي ترى وقد أحرقتني الشمس وكادت تقتلني أريد حيل فاحملوني معكم فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، فشتمه الملاح وانتهره فأدركتني رقة عليه فقلت للغلام: خذوه معنا، فحملناه ثم تقدمتُ وأعطيته قميصًا ومنديلًا فاستبشر وغسل وجهه ولبس القميص واستراح وحضر وقت الغذاء فقلت للغلام: هاته يأكل معنا، فجاء يأكل أكل أديب إلا أن الجوع بين عليه، فلما فرغ من الأكل قلتُ: يا شيخ أي شيء صناعتك؟

قال: حائك فتناولت عليه ومددت رجلي. فقال: وأنت أعزك الله أي شيء

---

(١) انظر: الأغاني (٩/٢٢٥، ٢٣٩) والمستطرف (١/٣٤٧).

صناعتك؟ فأكبرت ذلك القول منه وقلت: أنا جنيت على نفسي هذا أتراه لا ينظر إلى زلالي وغلماني ونعمتي وأن مثلي لا يقال له هذا ثم قلت: ليس إلا الهزل به، فقلت: كاتب.

قال لي: أصلحك الله الكتاب خمسة فأيهم أنت؟ فسمعت كلمة أكبرتها وكنت متكئًا فجلست وقلت له: فصل الخمسة فقال: نعم كاتب خراج يحتاج أن يكون عالمًا بالصدور والشروط والطقوس والحساب والمساحة والبثوق والفتوق والرتوق، وكاتب أحكام يحتاج أن يكون عالمًا بالحلال والحرام والخلاف والأصول والفروع، وكاتب معونة يحتاج أن يكون عالمًا بالقصاص والحدود والجراحات، وكاتب جيش يحتاج أن يكون عالمًا بحلى الرجال وسياسة الدواب ومداراة الأولياء وشيء من العلم بالسب والحساب وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عالمًا بالصدور والفصول والإطالة و الإجازة وحسن الخط والبلاغة.

فقلت: إني كاتب رسائل، فقال: أصلحك الله لو أن رجلاً من إخوانك تزوجت أمه وأردت أن تكاتبه مهنئًا له كيف كنت تكاتبه؟ ففكرت في الحال فلم يخطر ببالي شيء فقلت: ما أرى للتهنئة وجهًا، فقال: أتكتب إليه تعزية؟ ففكرت فلم يخطر ببالي أيضًا شيء، فقلت: أعفني من هذا الوجه، فقال: قد فعلت، فقلت: أنا كاتب خراج فقال لو أن أمير المؤمنين ولاك ناحية وأمرك بالعدل واستيفاء حق السلطان فتظلم بعضهم من مساحتك فأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك فحلف المساح بالله لقد أنصفهم وحلفت الرعية بالله لقد ظلمهم فقالت الرعية قف معنا على مسبحة فخرجت ووقفت على قراح طوله كذا وعرضه كذا وما زال يذكرني فيما يلزم كل كاتب من هذه الخمسة ويسألني عن أشياء لا أعلمها، فقلت: يا شيخ اشرح أنت، فشرح الكل فقلت له: ألست زعمت أنك حائك؟ فقال: أنا حائك للكلام ولست بحائك ثياب فأنشأ يقول:

قد ذقت حلوا وذقت مرًا ... كذاك عيش الفتي ضروب

نوائب الدهر أدبتني ... وإنما يوعظ اللبيب

ما مر بؤس ولا نعيم ... إلا ولي فيهما نصيب

قال: فقلت: ما الذي أرى بك من سوء الحال؟ فقال: أنا رجل متصرف دامت

عطلتي فخرجت أطلب التصرف فقطع عليَّ الطريق كما ترى أمشي على وجهي فلما لاح لي الزلال استغثت بك فنلت خيرًا، قال: فقلت: إني قد خرجت إلى تصرف جليل وأحتاج به إلى جماعة مثلك وقد أمرت لك عاجلاً بخلعة حسنة وخمسة آلاف درهم تصلح بها حالك وتنفذ منها إلى عيالك وتصير معي إلى عمل فأولك أجله، فقال جزاك الله عني وعن المروءة خيرًا وإذا جربتني وجدت مني ما يسرك فانحدر معي فجعلته المناظر للرجحي والمحاسب له فقام بذلك أحسن قيام وحسنت حالته معي وعاد ذا نعمة سنية ورتبة علية(١).

حكاية (٨٨)

أخبرنا أبو بكر بن عبد الباقي عن أبي التنوخي عن أبيه عن أشياخه أن عمرو بن مسعدة كان مصعدًا من واسط إلى بغداد وكان حر شديد وهو في زلال فناداه رجل: يا صاحب الزلال بنعمة الله نظرت إليّ قال: فكشف سجف الزلال وإذا بشيخ ضعيف حاسر فقال: قد ترى ما أنا فيه ولستُ أجد من يحملني فابتغ الأجر في حقي وتقدم إلى ملاحيه يطرحونني بين مجاديفهم إلى أن أبلغ بلدًا يطرحوني فيه فقال عمرو بن مسعدة: خذوه فأخذوه وقد كاد يموت من المشي في الشمس فقال له: يا شيخ ما قصتك؟

قال: قصة طويلة وبكى فسكته ثم قلت له: حدثني، فقال: أنا رجل كانت لله عليَّ نعمة وكنت صيرفيًا فابتعت جارية بخمسمائة دينار فشغفت بها فكنت لا أقدر على مفارقتها ساعة واحدة وإذا خرجت إلى الدكان أخذني الهيمان حتى أعود إليها وأجلس معها ولم يزل ذلك دأبي حتى تعطل كسبي وأنفقت من رأس المال حتى لم يبق منه قليل ولا كثير وحملت الجارية فأقبلت أنقض داري وأبيع أخشابها وآجرها حتى ذهب أكثرها على ذلك ولم يبق لي حيلة فأخذها الطلق فقالت: يا هذا أتود أني أموت قم فاحتل لي بما نبتاع به عسلاً ودقيقًا وشيرجًا وإلا مت(٢)، قال: فبكيت وخرجت هائمًا على وجهي إلى النهروان وما زلت أمشي من قرية إلى قرية حتى بلغت خراسان فصادفت من عرفني فصرفني في صناعتي ورزقني الله مالاً عظيمًا وكتبت كتبًا كثيرة

---

(١) انظر: الأغاني (١٥٨/٢٣).

(٢) الشيرج: هو زيت السمسم، وهو غذاء ودواء نافع.

لأعرف خبر منزلي فلم يعد إليّ جواب فلم أشك في أن الجارية ماتت وتراخت السنون حتى حصل معي مال قدره عشرة آلاف دينار فقلت: لقد صارت لي نعمة فلو رجعت إلى وطني كان أولى فابتعت بمال متاعاً من خراسان، وأقبلت أريد العراق فخرج على القافلة اللصوص فأخذت ما فيها ونجوت بثيابي فصرت فقيرًا كما خرجت من بغداد فدخلت الأهواز متحيرًا فكشفت خبري لبعض أهلها فأعطاني ما تجملت به إلى واسط فنفذت نفقتي وكدت أتلف فمشيت إلى هذا الموضع فوجدت الزلال فاستغثت بك ولي منذ فارقت بغداد ثمانية وعشرون سنة.

قال: فعجبت من محنته ورفقت له وقلت: إذا صرنا إلى بغداد فصر إلينا حتى نأمر بتصريفك فيما يصلح لمثلك فدعا لي ثم دخلنا بغداد ومضت مدة فنسيته فيها فبينما أنا يومًا قد ركبت أريد دار المأمون وإذا أنا بالشيخ حتى تقدم عليَّ يأتي راكبًا بغلة حسنة بمركب من الذهب الأحمر الوهاج ثقيل وغلمان سود بين يديه وثياب حسنة رفيعة جليلة القيمة فرحبت به وقلت له: ما الخبر؟ فقال: طويل، فقلت: عرفني خبرك فقد سررت بحسن حالك فقال: إني لما صعدت من زلالك قصدت داري فوجدت حائطها الذي يلي الطريق كما خلفته غير أن باب الدار مجدد نظيف ودكانه حسنة وعليه بواب جالس على كرسي وبغلات مع عساكر وغلمان وحشم فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ماتت وتملك الدار الخليفة وأنزلها لبعض القواد ثم تقدمت إلى بقال هناك أعرفه في المحلة فقلت: من تكون فلان البقال؟ فقال: أنا ولده، قلت له: ومتى مات أبوك؟ قال: منذ عشرين سنة قلت: لمن هذه الدار فقال لأخي أمير المؤمنين من الرضاعة وابن دايته وهو الآن جهبذة، وصاحب بيت مال قلت: بمن يعرف؟ قال: بابن فلان الصيرفي وأسماني، فقلت: من باعها عليه؟ قال: هذه دار أبيه، قلت: فهل يعيش أبوه؟

قال: لا، قلت: أتعرف من حديثهم شيئًا؟ قال: نعم حدثني أبي قال: إن هذا كان صيرفيًا جليلاً، فافتقر وإن أم هذا الصبي أخذها الطلق فخرج أبوه يطلب لها شيئًا ففقد وهلك وقال لي أبي: فجاءني رسول أم الغلام يستغيث بي فقمت لها بحوائج الولادة ودفعت إليها عشرة دراهم فأنفقتها حتى قيل قد صار لأمير المؤمنين هارون الرشيد مولود ذكر وقد عرض عليه جميع الدايات فلم يقبل ثدي واحدة منهن وقد طلب له الحرائر فجاءه، أربعون واحدة فما أخذ ثدي واحدة منهن وهم في طلب

مرضعة فأرشدت الذي طلب الداية إلى أم هذا فحملت إلى دار الرشيد فحين وضع فم الصبي على ثدييها قبله فأرضعته وكفل الصبي الرشيد وصارت أمه عندهم في حالة جليلة ووصل منهم إليها مال عظيم ثم خرج المأمون إلى خراسان فخرجت هذه وابنها معها معه ولم نعرف من أخبارهم إلا من قريب ولما عاد المأمون وعادت حاشيته رأينا هذا الغلام وهو رجل وأنا لم أكن أعرفه ولا رأيته قط فقالوا هذا ابن فلان الصيرفي وأخو المأمون من الرضاعة فبنى هذه الدار وسواها على ما ترى قلت له: فهل عندك علم عن أمه أحية أم ميتة؟

قال: بل حية وإنما تمضي إلى دار الخليفة أيامًا وتقيم عند ابنها أيامًا ههنا قال: فحمدت الله تعالى على هذه النعمة وجئت ودخلت الدار في جملة الناس فرأيت الدار في نهاية العمارة والحسن وفيها مجلس كبير مفروش بفرش فاخرة وفي صدره شاب وبين يديه كتاب وجهابذة وحساب وفي صفات الدار جهابذة وبين يديه الأموال والتخوت والشواهين يقبضون ويطلقون ورأيت شبهي في وجه الفتى فعلمت أنه ولدي فجلست في غمار الناس فلما خرج الناس حتى لم يبق في المجلس غيري فأقبل عليَّ وقال: يا شيخ هل من حاجة تقولها؟ قلت: نعم، ولكنه أمر لا يجوز أن يسمعه غيرك فأومأ على غلمان كانوا قيامًا حوله فانصرفوا فقال: قل ما تريد، قلت: أنا أبوك فلما سمع ذلك تغير وجهه فعلمت أنه ولدي ولم يكلمني بحرف ثم وثب مسرعًا وتركني في مكاني فلم أشعر إلا بخادم قد جاءني فقال: يا سيدي مولاي يدعوك إليه فقمت أمشي إليه حتى بلغنا إلى ستارة منصوبة في دار لطيفة وكرسي آخر قدامها والفتى جالس خارج الستارة على كرسي آخر فقال: اجلس أيها الشيخ على الكرسي، ودخل الخادم وإذا بحركة خلف الستارة فقلت أظنك تريد تعتبر صدق قولي من جهة فلانة وذكرت اسم جاريتي أمه وإذا بالستارة قد كشفت والجارية قد خرجت إليّ وجعلت تقبل وجهي وتبكي وتقول مولاي والله قال: فرأيت الفتى قد تسور وبهت وتحير، فقلت للجارية: ويحك ما خبرك؟

قالت: دع خبري مع مشاهدتك وما تفضل الله علينا من الإنعام يطول أن أخبرك به ولكن قل أنت ما كان من خبرك فالحمد لله على ما أنعم علينا وتفضل به من مشاهدتك وسلامتك، قال: فقصصت عليها خبري من حين خرجت من عندها إلى يومي ذلك وقصة ما قاله ابن البقال وشرح ذلك كله بمحضر من الفتى ومسمع منه

فلما استوفى الحديث خرج وتركني في مكاني وإذا بخادم قد أقبل وقال يا مولاي يسألك ولدك أن تخرج إليه، قال: فخرجت إليه فلما رآني من بعيد قام قائمًا على قدميه وقال: المعذرة إلى الله وإليك يا أبتاه من تقصيري في حقك فإنك جبيتني بما لم أظن مثله أن يكون والآن فهذه النعمة لك وأنا ولدك وأمير المؤمنين يجهد بي منذ دهر طويل أن أدع الجهبذة وأتوفر على خدمته فلم أفعل طلبًا للتمسك بصناعتي والآن فأنا أسأله أن يرد ذلك إليك وأخدمه أنا في غيرها فقم عاجلاً وأصلح أمرك قال: فدخلت الحمام وتنظفت وجاءني بخلعة فلبستها وخرجت إلى حجرة والدته وجلست ثم إنه أدخلني على أمير المؤمنين فحدثته حديثي فأنعم لي بخلعة وهي هذه وردَّ إليَّ العمل الذي كان مع ابني وأجرى لي من الرزق كذا وكذا وقلد ابني أعمالاً هي من أجل أعماله فجئت أشكرك على ما عاملتني به من الجميل وأعرفك نعمة الله وإحسانه إليّ وأظرفك بهذه القصة، قال عمرو بن مسعدة: فلما سمى لي الفتى عرفته وعلمت أنه أخو أمير المؤمنين.

حكاية (٨٩)

قال الشيخ أبو سعيد الخركوشي النيسابوري: سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول: سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول: كان بمصر رجل عرف بأنه يجمع للفقراء فولد لبعضهم ولد، قال: فجئت إليه فقلت له: ولد لي مولود وليس معي شيء فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح الله بشيء فجاء إلى قبر رجل كان يعرفه وجلس عنده وقال: يرحمك الله كنت تفعل وتصنع وإني درت اليوم وطلبت جماعة في شيء لمولود فلم يتبق لي شيء ثم قام فأخرج لي دينارًا فكسره نصفين وناولني نصفه وقال: هذا دين عليك إلى أن يفتح الله عليك بشيء فأخذته وانصرفت وأصلحت ما اتفق لي به، فرأي ذلك الميت ذلك الشخص صاحب القبر تلك الليلة في منامه وهو يقول: قد سمعت جميع ما قلت وليس لنا إذن في الجواب ولكن احضر منزلي وقل لأولادي يحفرون مكان الكانون ويخرجون قربة فيها خمسمائة دينار فأحملها إلى هذا الرجل قال: فلما كان من الغد تقدم إلى منزل الميت وقصَّ القصة فقالوا له: اجلس فجلس وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاءوا بها فوضعوها بين يديه فقال: هذا مالكم وليس لرؤياي حكم، فقالوا: هو يتسخَّى ميتًا ونحن لا نتسخي أحياء فلما ألحوا عليه حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة قال: فأخذ منها دينارًا فكسره

نصفين فأعطاه النصف الذي اقترضه وحمل النصف الآخر وقال: يكفيني هذا فتصدق بالباقي عن صاحب هذا القبر على فقراء المسلمين، قال أبو سعيد: فوالله لا أدري أي هؤلاء أسخى وأكرم؟

حكاية (٩٠)

أخبرنا أبو منصور قال: أخبرنا حسن بن علي الجوهري قال: أخبرنا أبو حازم قال: حدثنا أبو حسان الزيادي قال: ضاق بي الأمر ضيقة بلغت الغاية حتى ألح عليَّ المعاملون وضايقني أرباب الديون ولم يبق لي حيلة فأنا يومًا على هذا الحال وأنا مفتكر في الحيلة إذ دخل عليّ الغلام فقال: بالباب رجل حاجي يستأذن، فقلت: ائذن له، فدخل رجل أعجمي خراساني فسلم وقال: ألست أبا حسان؟

قلت: بلى فما حاجتك، فقال: أنا رجل غريب أريد الحج ومعي عشرة آلاف درهم وقد احتجت أن تكون قبلك إلى أن أقضي حجي وأرجع، فقلت: بسم الله هاتها فأحضرها بين يدي فتسلمتها منه وخرج بعد أن وزنها وختمها، فلما خرج فككت الختام عن المكان ثم أحضرت المعاملين وأرباب الديون وأعطيت لكل رجل ماله عليَّ من الدين واتسعت وأنفقت وقلت: أضمن هذا المال للخراساني مع عوده إلى أن يرجع يفرج الله نفلاً من عنده فمكثت يومي ذلك في سعة وأنا لا أشك في خروج الخراساني فلما أصبحت في غد دخل غلامي وقال: الخراساني الحاجي بالباب يستأذن فقلت ائذن له، فدخل وقال: إني كنت عازمًا على الحج والآن قد ورد عليَّ الخبر بوفاة والدي وقد عزمت على الرجوع إلى بلدي فأمر لي بالمال الذي أعطيتك أمس قال: فورد عليَّ من ذلك أعظم مورد لم يرد على مثله قط وتحيرت في أمري ولم أدر بما أجيبه فتفكرت وقلت: ماذا أقول للرجل؟ ثم قلت: عافاك الله منزلي هذا ليس بالحريز ولما أخذت مالك وجهته إلى ما هو أحرز من هذا المكان فعد إليّ من الغد لتأخذه فانصرف وبقيت متحيرًا لا أدري ما أصنع؟

إن جحدته قدمني إلى القاضي واستحلفني ولحقتني الفضيحة في الدنيا والآخرة وإن دافعته صاح وهتكني، وتحيرت في أمري وأخذني الهم والغم إلى بلوغ الغاية حتى أدركني الليل وفكرت في بكور الخراساني فلم يأخذني النوم ولا قدرت على الغمض فقمت إلى الغلام وقلت له: أسرج البغلة، فقال: يا مولاي هذه العتمة وما مضى من الليل شيء قال: أين تمضي؟ فرجعت إلى فراشي فإذا النوم ممتنع عني فلم أزل أقوم إلى

الغلام وهو يردني إلى أن فعلت ذلك ثلاث مرات وأنا لا يأخذني القرار حتى طلع الفجر وأسرج البلغة فركبت وأنا لا أدري أين أتوجه فطرحت عنان البغلة وبقيت حتى وصلت الجسر فعدلت بي إليه فتركتها فعبرت ثم قلت: إلى أين أمضي وإلى أين أعبر ولكن إن رجعت وجدت الخراساني على الباب ولكن دعها تمضي حيث شاءت فلما عبرت الجسر أخذت البغلة يمنة ناحية دار المأمون فتركتها حتى قاربت دار المأمون والدنيا مظلمة وإذا بفارس قد تلقاني ونظر في وجهي ثم سار وتركني ثم رجع إليَّ فقال لي: ألست: أبا حسان الزيادي؟

فقلت: بلى، فقال: أجب الأمير الحسن بن سهل، فقلت: وما يريد مني الحسن بن سهل؟ ثم سرت معه حتى وصلنا إلى بابه فاستأذن لي عليه فأذن لي فلما دخلت وسلمت قال لي: يا أبا حسان ما خبرك وما حالك وما قطعك عنا؟ فقلت: لأسباب وذهبت أعتذر، فقال: دع هذا عنك أنت في لونة أو في أمر فما هو فإني رأيتك البارحة في تخبيط كثير؟

فابتدأت وشرحت له قصتي من أولها إلى أن لقيني صاحبه ودخلت عليه، فقال: لا يغمك الله يا أبا حسان قد فرَّج الله عنك هذه بدرة للخراساني مكان بدرته وبدرة أخرى لك تنتفع بها كي توسع بها على نفسك وعيالك وإذا نفذت طالعنا بذلك، فقبلت يده ورجعت إلى بيتي مطمئنًا فإذا بالخراساني على بابي فقضيت ما كان له واتسعت بالباقي وفرج الله وله الحمد والشكر والثناء الحسن وهو أهله.

ويروى أن الخراساني لما قبض المال من أبي حسان قال له: قد كنت حملت هذه الدراهم لأساعد بها أهل المروءات على مرواءتهم ولا أجد لها مستحقًا مثلك فاقبلها مني، ولم يزل به حتى قبلها منه.

حكاية (٩١)

قال: حدثني القاضي أبو عبد الله الحسين بن علي الضمري قال: حدثنا محمد بن عمرو المرزباني. قال: حدثنا الصولي قال: حدثنا أحمد بن موسى بن داود قال: كنا مع المأمون في طريق الشام فأمر مناديًا ينادي بتحليل المتعة فقلنا ذلك ليحيى بن أكثم فقال: ادخلوا عليه بكرة فإن رأيتم للقول موضعًا فقولوا وإلا فأمسكوا إلى أن أدخل أنا قال: فلما كان من الغداة دخلنا وهو يستاك ويقول وهو مغتاظ متعتان كانتا على عهد رسول الله وأبي بكر وأنا أنهى عنهما، من أنت يا أحول حتى تنهي عما فعل رسول الله

وأبو بكر؟ قال: فدخلنا وسلمنا عليه بالخلافة وأمسكنا ثم جاء يحيى فسلم وجلس وجلسنا فقال المأمون ليحيى: مالي أرى في وجهك تغيرًا يا أبا محمد؟

قال: هو غم أخذني يا أمير المؤمنين قال وما سبب غمك؟ قال: لما حدث في الإسلام قال وما حدث فيه؟ قال النداء بتحليل الزنا قال نعم قال ومن أين قلت هذا قال من كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله ﷺ قال وكيف ذلك قال قلت قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾ الى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٧].

يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا قال: فهي الزوجة التي ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها؟ قال: لا قال: فقد صار متجاوزًا هذين الحدين وصار المستمتع في العادين يا أمير المؤمنين.

وهذا الزهري روى عن عبد الله والحسن ابني محمد ابن الحنفية عن أبيهما عن محمد بن علي عن علي بن أبي طالب قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان أمر بها قال: فالتفت المأمون إلينا قال: هذا محفوظ من حديث الزهري قلنا: نعم يا أمير المؤمنين رواه جماعة منهم مالك بن أنس ثم قال: أستغفر الله ثم أمر بتحريمها فنادوا بذلك[1].

حكاية (٩٢)

قال: أخبرنا أبو منصور قال: أخبرنا حسن بن علي الجوهري قال: رفع إلى المعتضد بالله رقعة أن قومًا مجتمعون ويرجعون ويوضون في الفصول وقد كثر فسادهم. فرمى بالرقعة إلى وزيره عبد الله بن سليمان فقال: الرأي عندي قتل بعضهم وإحراق البعض قال: فالتفت المعتضد إليه وقال له: والله لقد بردت لهيب غضبي بقسوتك هذه ونقلتني إلى اللين من حيث أشرت بالحرق وما علمت أنك مستخير ذلك ثم قال: أما علمت أن الرعية وديعة الله عند سلطانها وأن الله تعالى يسأله عنها؟ أما تدري أن أحدًا من الرعية لا يقوم إلا لظلم قد لحقه أو لحق جاره أو داهية قد نالته أو نالت صاحبًا له؟ ثم قال: سل القوم فمن كان سيئ الحال افصله من بيت المال ومن كان يخرجه البطر

---

(١) بنصه في تهذيب الكمال للمزي (٣١/٢١٥).

فخوفه قال عبد الله ففعلت ذلك فصلحت الأحوال.

حكاية (٩٣)

روى الإمام الشافعي ﷺ لما مرض مرض موته قال: مروا فلاناً يغسلني، فلما توفي بلغه خبره فحضروا وقال: ائتوني بتذكرته فأتي بها فنظر فيها فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دينًا فكتبها على نفسه وقضاها عنه وقال: هذا غسلي إياه إنما أراد هذا.

حكاية (٩٤)

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيء بلغني عنه أنه كان راكبًا يومًا حمارًا له فحركه فانقطع زره فمر على خياط فأراد أن ينزل إليه يسوي بزره فقال الخياط: والله لا تنزلن، وقام إليه فسوى بزره، فأخرج له صرة فيها عشرة دنانير سلمها إلى الخياط واعتذر إليه في قلتها.

حكاية (٩٥)

وعن الربيع بن سليمان: قال أخذ رجل بركاب الشافعي ﷺ فقال: يا ربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني(١).

حكاية (٩٦)

وقال الربيع: سمعت الحميدي يقول: قدم الشافعي رحمه الله من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه في موضع خارج من مكة ونشر الدنانير على ثوب ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عليه شيء(٢).

حكاية (٩٧)

قال محمد بن عباد المهلبي: دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم فلما قام

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٥٢/٧)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٠/٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (٣١/١٣) والمزي في تهذيب الكمال (٤٩/٢٩) وأوردها ابن الجوزي في صفة الصفوة (١٨٥/٢)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٧٣/٦).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٥١/٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٣٠/٩)، والخطيب في التقييد (ص ٤٤)، وهو في السير للذهبي (٣٨/١٠).

من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المأمون فلما عاد إليه عاتبه في ذلك فقال: يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء الظن بالمعبود فوصله بمائتي ألف أخرى.

حكاية (٩٨)

وقال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء وأنا أقول: إن كان به رمق أسقيته ومسحت به وجهه فإذا أنا به فقلت أسقيك ماء فأشار أي نعم فلما همّ أن يشرب إذا برجل يقول: آه، فأشار ابن عمي أي انطلق إليه فجئت إليه فإذا هو هشام بن العاص فقال: اسقني سمع آخر يقول آه، فأشار هشام أي انطلق إليه فجئت فإذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات[1].

حكاية (٩٩)

ودخل رجل على سالم بن قتيبة الباهلي يكلمه في حاجة فوضع نعل سيفه على إصبع سالم واتكأ يكلمه في حاجته وقد أدماه وسالم صابر فلما فرغ الرجل من حاجته وخرج دعا سالم بمنديل ومسح الدم من إصبعه وغسله فقيل له: ألا نحيت رجلك أصلحك الله، وأمرته برفع سيفه عنها فقال: خشيت أن أقطعه عن حاجته فيضيق صدره.

حكاية (١٠٠)

وذكر خزيم بن أبي يحيى المرقي أن الرشيد دعاه يومًا ليأكل معه فلما توسط الأكل رفع رأسه إلى رجل ليكلمه بالفارسية قال: فقلت له: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد أن تسير إليه فإني ملم بالفارسية فمرني أن أتنحى لتقدم إليه بما تريد فأعجب الرشيد كرم أخلاقه وصدقه وخاطب ذلك الرجل سرًا بما أراد وأمر لخزيم بصلة سنية[2].

حكاية (١٠١)

وروى أبو عبيدة قال: اجتمعت عند النعمان وفود من العرب وأخرج لهم بردي

---

(١) القصة رواها ابن المبارك في الجهاد (ص ٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/١٨٥)، وأوردها القرطبي في التفسير (١٨/٢٨) والحافظ في الإصابة (٧/٧٢)، وفي الدراية (١/٢٤٤)، والزيلعي في نصب الراية (٢/٣١٨).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٤/٤١) وفيه خريم، بالراء.

محرق وقال: ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما فقام عامر بن احتيمر السعدي فارتدى بأحدهما واتزر بالآخر فقال له النعمان: بما أنت أعز قبيلة في العرب؟

فقال: أبيت اللعن إن العز والمجد في معد ثم في نزار ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب ثم في عوف ثم في بهدلة فمن أنكر هذا فليقل فسكت الناس كلهم فقال النعمان: فهذه حالك في قومك فكيف في نفسك وأهل بيتك؟

فقال: أنا أبو عشرة وعم عشرة وخال عشرة وأما أنا في نفسي فهذا شاهدي ثم وضع قدمه في الأرض وقال: من أزالها من مكانها فله مائة من الإبل فلم يقم إليه أحد فذهب بالبردين وفيه الفرزدق يقول:

فما تم في سعد ولا آل مالك غلام إذا ما قيل لم يتبهدل
لهم وهب النعمان بردي محرق بمجد معد والعديد المحصل[1]

حكاية (١٠٢)

ومن مليح ما ذُكر في حفظ السر وكتمانه ما حدث به أبو سفيان الحميري وصالح بن سليمان قالا: أراد الوليد بن يزيد الحج فاعتقد قوم من وجوه أهل الشام أن يقتلوه فأتوا خالد بن عبد الله القسري ليكون معهم فأبى عليهم، قالوا: أفتكتم علينا؟ قال أما هذا فنعم، فأتى خالد إلى خالد بن الوليد بن يزيد فقال له: قل لأمير المؤمنين يدع الحج عامه هذا، قال: ولم؟ قال: أخاف عليه، فأعلم أباه، فأحضره، وقال: أحقًا ما يقول خالد عنك؟

قال: نعم، قال: أعده عليَّ فأعاده فقال: ومن هؤلاء الذين تخافهم عليَّ فسمهم لي، قال: لا أفعل قال: لتقولن.

قال: لا أقول، قال: إذا أبعث بك إلى يوسف بن عمر، قال وإن بعث به إلى يوسف فعذبه إلى أن مات ولم يسم القوم ولا أحدًا منهم.

حكاية (١٠٣)

قيل: لما استخلف عمر بن عبد العزيز وحم وضاق صدره وكان صديقًا للباقر أبي جعفر عليه السلام، فقال له: يا أبا جعفر إني أخاف أن أكون قد أوبقت نفسي قال له: إنما أخاف عليك أن لا تخاف قال: أوصني.

---

(١) انظر العقد الفريد (٢٥٦/١)، وفيه: أحيمر، بدل، احتيمر.

قال: اجعل الناس عندك ثلاث طبقات فاجعل أكبرهم أبا وأوسطهم أخًا وأصغرهم ولدًا فبر أباك وصل أخاك وارحم ولدك وإذا صنعت معروفًا فزينة وعليك باستعمال أهل الأمانة والدين.

حكاية (١٠٤)

كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي البصرة: أن تحضر إياس بن معاوية المزّي والقاسم بن ربيعة الجوشي وتُبصر أيهما أنفذ في الحكم فتقلده القضاء فلما وقف على الكتاب استدعاهما وقرأه عليهما، فقال إياس: اسأل عنه وعني فقيهي المصر الحسن وابن سيرين، وكان القاسم صديقًا لهما، ففطن لما قصده إياس فقال: أيها الأمير لا تسأل عني وعنه أحدًا واسمع مني ما أقول، قال: قل، قال: والله الذي لا إله إلا هو، وحلف يمينًا مستوفاة جامعة لمعاني الحلف أن إياس بن معاوية أصلح للحكم مني وأنفذ فيه فإن كنت عندك صادقًا فقلده بيميني وإن كنت عندك كاذبًا فما يحل لك أن تقلد الحكم بين المسلمين من يبارز الله تعالى بمثل هذه اليمين كاذبًا؟ فقال له إياس: لا تسمع منه أيها الأمير فإنك جئت به إلى شفير جهنم فافتدى نفسه أن يقع فيها بيمين حلفها كاذبًا يكفر عنها ويستغفر الله وينجو، فقال له الأمير: أو ليس قد فطنت لها؟ أنت لها، وقلده[1].

حكاية (١٠٥)

قيل: لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دعا بنيه وكانوا أحد عشر ابنًا وكان عنده مسلمة بن عبد الملك ولم يخلف غير بضعة عشر دينارًا فأمر أن يكفن ويشترى له موضع يدفن فيها بخمسة دنانير ويُفض الباقي إلى ورثته فأصاب كل ابن نصف أو ربع دينار، وقال: يا بني ليس لي مال فأوصي فيه ولكني قد تركتكم وما لأحد قبلكم تبعة ولا يقع على أحد منكم عين أحد إلا ويرى له حقًا، فقال له مسلمة: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما هو؟ قال: هذه ثلثمائة ألف دينار فرقها فيهم وإن شئت فتصدق بها، قال: أو خير من ذلك يا مسلمة؟ قال: وما هو؟ قال: تردها إلى من أخذت منه فإنها ليست لك بحق فقال له: رحمك الله حيًا وميتًا فلقد ألنت منا قلوبًا قاسية وذكرتها وهي ناسية وأبقيت لنا في الصالحات ذكرًا، فيقال: إنه ما رئي أحد من

---

(١) أورده الذهبي قصة أخرى، كتابته إلى والي حمص ... (٥/٣٢٣).

أولاده قط إلا وهو غنيّ ولقد شوهد واحد منهم وقد جهز من خالص ماله مائة فارس على مائة فرس في سبيل الله.

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة خلف أحد عشر ابنًا كما خلف عمر فأوصى فأصاب كل واحد منهم ألف ألف دينار فيقال أنه لم ير أحد منهم قط إلا وهو فقير ولقد شوهد أحدهم وهو يوقد في الأتون.

حكاية ظريفة (١٠٦)

عن أحمد بن موسى قال: قال الربيع ما رأيت رجلاً أرجل ولا أربط جأشًا من رجل رُفع عنه إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية فأمرني المنصور بإحضاره فأحضرته ودخلت به إليه فقال له المنصور قد رُفع إلينا خبر الودائع والأموال التي لبني أمية عندك فأخرج إلينا منها، فقال: يا أمير المؤمنين أوارث أنت لبني أمية؟ قال: لا، قال: فوصي لهم بأموالهم؟ قال: لا، قال: فما مسألتك عما في يدي من ذلك؟ قال: فأطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه إليه وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين في حقهم وأريد أن آخذ ما ظلموا فيه المسلمين فأجعله في بيت مالهم، فقال: يا أمير المؤمنين تحتاج إلى إقامة البينة العادلة على أن ما بيدي لبني أمية مما خانوه وظلموه دون غيره فقد كان لبني أمية أموال غير أموال المسلمين، قال: فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه إليّ وقال: صدق يا ربيع ما يجب على الشيخ شيء، ثم قال: هل لك من حاجة؟ فقال: حاجتي يا أمير المؤمنين أن تنفذ كتابي على البريد إلى أهلي ليسكنوا إلى سلامتي فإنهم قد راعهم إشخاصي، فقال: لك ذلك، وأمر بإنفاذ البريد، فقلت: بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين، قال: قل، قال تجمع بيني وبين من سعى بي إليك فوالله ما لبني أمية في يدي مال ولا وديعة ولكني لما مثلت بين يديك وسألتني عما سألتني عنه ماثلت بين هذا القول وما قلت لك فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة، قال: يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به فجمعت بينهما، فقال: هذا غلام لي ضُرب على ثلاثة آلاف دينار من مالي وأبق مني فشد المنصور على الغلام فأقر أنه غلامه وأنه أخذ المال الذي ذكر وأبق منه وسعى به كذبًا عليه وخوفًا من أن يقع في يده، فقال المنصور للشيخ: إنا نسألك أن تصفح عنه، قال: قد صفحت عنه جرمه ووهبت له ثلاثة آلاف دينار التي أخذها وثلاثة آلاف أخرى فقال المنصور: ما على ما فعلت من مزيد قال: بل هذا حق كلامك يا أمير المؤمنين،

وانصرف وكان المنصور يتعجب منه كلما ذكره ويقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع[(١)]!.

حكاية (١٠٧)

قيل: أقام رجل على باب معن فلما طال مقامه كتب رقعة يقول فيها:

فما في يديك الخير يا معن كله وفي الأرض أسباب وفيها مذاهب

ستأتي بنات العم ما أنت صانع إذا فتشت عند الإياب الحقائب

ووكل من يوصلها إليه وسار، فلما وصلت وقرأها أمر رده وقال والله ليفتشن عن خير كثير، وأمر فملئت حقيبته دراهم.

حكاية (١٠٨)

قال بعض العرب: خرجت في بعض الليالي إلى السواد فإذا بجارية كأنها صنم فراودتها عن نفسها فقالت: أما لك زاجر من عقل إذا لم يكن لك زاجر من دين؟ قال: فأخجلني كلامها، فقلت: إنما كنت مازحًا، فقالت:

إياك إياك المزاح فإنه يطمع فيك الطفل والرجل النذلا

ويُذهب ماء الوجه بعد بهائه ويورث بعد العز صاحبه ذُلا[(٢)]

حكاية (١٠٩)

قيل: أتي الحجاج بامرأة من الخوارج فجعل الحجاج يكلمها وهي مُطرقة إلى الأرض لا تكلمه ولا تنظر إليه، فقال لها رجل من الشرط: الأمير يكلمك وأنت مُعرضة، فقالت: إني لأستحي من الله أن أنظر إلى رجل لا ينظر الله إليه.

حكاية (١١٠)

قيل: خرج رجلان من المدينة يريدان عبد الله بن عامر بن كُريز للوفادة عليه، أحدهما من ولد جابر بن عبد الله الأنصاري والآخر من ثقيف وكان عبد الله عاملاً بالعراق لعثمان بن عفان ﷺ فأقبلا يسيران حتى إذا كانا بناحية البصرة قال الأنصاري للثقفي: هل لك في رأي رأيته؟ قال: اعرضه، قال: نُنيخ رواحلنا ونتوضأ ونصلي

---

(١) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (٤١٢/١).

(٢) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (٥٠٤/٢).

ركعتين نحمد الله عز وجل فيهما على ما قضي من سفرنا قال له: نعم هذا الرأي الذي لا يُرد، قال: ففعلا، ثم التفت الأنصاري إلى الثقفي فقال له: يا أخا ثقيف ما رأيك؟ فقال: وأي موضع رأي هذا؟ قضيت سفري وأنضيت بدني وأتعبت راحلتي ولا مؤمل دون ابن عامر فهل لك من رأي غير هذا؟ قال: نعم إني لما صليت فكرت فاستحيت من ربي أن يراني طالب رزق من عند غيره، ثم قال: اللهم رازق ابن عامر ارزقني من فضلك، ثم ولى راجعًا إلى المدينة، ودخل الثقفي البصرة فمكث على باب ابن عامر أيامًا فلما أذن له ودخل عليه وكان قد كُتب إليه من المدينة بخبرهما فلما رآه رحب به فقال: خبرت عن ابن جابر أنه خرج معك، فأخبره ما كان منه، فبكى ابن عامر وقال: والله ما قالها أشرا ولا بطرا ولكن رأى مُجري الرزق ومخرج النعمة فعلم أن الله عز وجل هو الذي بيده الخير فسأله من فضله، ثم أمر للثقفي بأربعة آلاف درهم وبكسوة وتحف وأضعف ذلك للأنصاري فخرج الثقفي وهو يقول:

لعمرك ما سعى الحريص بزائد ... فتيلا ولا عجز الضعيف بضائر
خرجنا جميعًا من مساقط روسينا ... على ثقة منا بجود ابن عامر
فلما أنخنا الناعجات ببابه ... تأخر عني اليثربي ابن جابر
وقال سيكفيني عطية قادر ... على ما يشاء اليوم للخلق قاهر
فإن الذي أعطى العراق ابن عامر ... لربي الذي أرجو لسد مفاقري
فلما رآني قال: أين ابن جابر ... وحن كما حنت ضراب الأباعر
وأضعف عبد الله إذ غاب حظه ... على حظ لهفان من الحرص فاغر

حكاية (١١١)

قيل: خرج على الرشيد بعض الخوارج فأنهض إليه جيشًا فظفر به، فلما دخل عليه قال: ما تريد أن أصنع بك؟ قال: الذي تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه، فأطرق الرشيد مليًا ثم رفع رأسه وأمر بإطلاقه، فلما خرج قال بعض من حضر: يا أمير المؤمنين يقتل رجالك ويُفني أموالك في الأرض وتُطلقه بكلمة واحدة: تأمل هذا الأمر فإنه عليك أهل الشر، فأمر برده فلما وقف بين يديه علم أنه قد استغيب عنده فقال: يا أمير المؤمنين لا تُطعهم فلو أطاع الله فيك الخلق ما استخلفك لحظة واحدة فأمر بإطلاقه وقال: لا يعاودني

أحد في شأنه.

حكاية (١١٢)

قال: أتي معن بن زائدة بأسرى فعرضهم على السيف فقال له بعضهم: نحن أسراك أيها الأمير ونحن جياع، فأمر لهم بشيء من الطعام فأحضر، وأتى بأنطاع الدم فبسطت وأتى بالطعام فقال لأصحابه: أمعنوا في الأكل، ومعن ينظر إليهم ويتعجب منهم، فلما فرغوا من أكلهم قام قائمًا وقال: أيها الأمير قد كنا أسراك[1] ونحن الآن أضيافك فانظر ما تصنع بأضيافك؟ فعفا عنهم وخلى سبيلهم فقال له بعض من حضر: ما تدري أيها الأمير أي يوميك أسر وأشرف أيوم ظفرك أم يوم عفوك؟

حكاية عجيبة (١١٣)

قال روح بن مقاتل: لما زفت بوران بنت الحسن بن سهل على المأمون نثر عليها خدمها ألف درة كانت في طبق من ذهب وفرش لها حصير من ذهب مسفوف ونثر عليها جوهر كثير فجعل بياض الدر وحمرة الياقوت وألوان الجواهر تشرق على صفرة الذهب ولم يمسه أحد فبعث الحسن إلى المأمون يقول: هذا نثار نحب التقاطه فقال المأمون لمن حوله من بنات الخلفاء: شرفن أبا محمد فمدت واحدة منهن يدها فأخذت درة وبقى سائر الدر يلوح على الحصر وقيل: أن الحسن أشعل بين يدي المأمون شمعة من العنبر الأشهب وزنها مائة رطل وأمر المأمون أن يحمل إلى الحسن بن سهل عشرة آلاف ألف دينار من مال فارس ففرقها في أصحابه وقيل: أن الحسن نثر على القواد الذين كانوا في خدمة المأمون رقاعًا فيها أسماء ضياع فمن وقعت له رقعة أشهد له الحسن بالضيعة بعد أن حملهم وخلع عليهم ووصلهم، وكان سفر المأمون ومقامه ورجوعه أربعين يومًا ولما قرب زفافها كتبت إليه حظيته عريب تقول:

إنعم تخطتك عيون الردى ... بزف بوران مع الدهر
بيضة خدر لم يزل نجمها ... بنجم مأمون الورى يجري
حتى استقر الملك في حجرها ... بورك في ذلك من حجر
يا سيدي لا تنسى عهدي وما ... أطلب شيئًا غير ما تدري

---

(١) في نسخة (أسراؤك).

قال: فوقفت بوران على الرُقعة وقالت: قد عرفت ما تريد، ثم قالت: يا أمير المؤمنين أنعم بالإذن في زفها إليك فهو والله مكافأة على شعرها، فقال: ذلك إليك ففعلت فزفت معها وسر المأمون مما اجتمع له من الأُلفة بين زوجته وحظيته[(١)].

حكاية (١١٤)

قيل: دخل عمارة بن حمزة على المنصور فقعد في مجلسه، وكان يوم نظره في المظالم، فقام رجل على قدميه وقال: أنا مظلوم يا أمير المؤمنين فقال: ومن ظلمك؟ قال: عمارة بن حمزة غصبني ضياعي وابتز ملكي وعقاري فقال المنصور: قُم يا عمارة فقف مع خصمك للمحاكمة، فقال، يا أمير المؤمنين إن كانت الضياع له فما أُنازعه فيها وإن كانت لي فقد وهبتها له ولا حاجة في محاكمته ولا أبيع موضعي الذي أكرمني به أمير المؤمنين وشرفني بسبب ضياع كثيرة فعجب الحاضرون من شرف نفسه وعلو همته وغزارة مروءته قال الخليفة قد صفحنا عن عمارة لما نجده فيه من التعزز والتكبر وسوغناه له لأنه أهله.

حكاية (١١٥)

قيل: لما تفرق الأمر من يد مروان الجعدي وأيقن بزوال ملكه وغلبة بني هاشم عليه قال لعبد الحميد كاتبه: إني قد احتجت إلى أن تكون مع عدوي وأن تُظهر لهم الغدر بي فإن إعجابهم بك وبأدبك وحاجتهم إليك تدعوهم إلى حسن الظن بك فإن استطعت أن تستعفي في حياتي وإلا لم تعجز عن الإحسان إلى حرمي بعد وفاتي، فقال عبد الحميد: إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين لك وأقبحهما لي وما عندي إلا الوفاء حتى يفتح الله لك أو أقتل معك ثم أنشأ يقول:

أسر وفاء ثم أظهر غدرة ... فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

حكاية (١١٦)

قيل: لما اغتال الحارث بن ظالم خالد بن جعفر فقتله نائمًا قال عمرو بن الإطنابة يعيره بذلك

---

(١) انظر: تاريخ بغداد (٧/٣٢٠)، تاريخ الطبري (٥/١٤٥). فائدة: قال ابن ماكولا في الإكمال (٧/٥٨): وأما بوران أوله باء معجمة بواحدة فهي بوران بنت الحسن بن سهل زوجة المأمون، أخبارها مشهورة. ا هـ.

إنمـــا يقـــتل النـــيام ولا يقـــتل يقظـــان ذا ســـلاح كمـــيا

فلما بلغ الحرث بن ظالم ذلك احتال عليه. وكان عمرو بن الإطنابة لا يدعوه أحد بليل إلا أجابه ولا يسأله عن اسمه فأتاه ليلاً فهتف به فخرج إليه، فقال: ما تريد؟ قال: أعني على إبل لبني فلان وهي منك غير بعيد فإنها غنيمة باردة فدعا عمرو بفرسه وأراد أن يركب حاسرًا، فقال له: البس سلاحك فإني لا آمن امتناع القوم فاستل الرجل سلاحه وخرج معه، فلما برز قال: خذ على نفسك وهذا أنت غير نائم ذا سلاح وأنا الحارث بن ظالم فقال: أمنُن عليّ، فجز ناصيته وأطلقه(١).

حكاية (١١٧)

قال معاوية بن أبي سفيان للحُصين بن المنذر وكان يدخل عليه الناس: يا أبا ساسان كأنك لا تُحسن أدبك فقال:

وكـــل صـــغير الشـــأن يمشي مشمرًا إذا فـــتح الـــبواب بابـــك إصـــبعًا

ونحـــن الجلـــوس الماكـــثون رزانـــة وحلمـــا إلى أن يفـــتح الـــبابُ أجمعا(٢)

حكاية (١١٨)

قال الأصمعي: قصدتُ في بعض الأيام رجلا كنتُ أغشاه لكرمه فوجدت على بابه بوابًا فمنعني من الدخول إليه ثم قال: والله يا أصمعي ما تركني على بابه لأمنع مثلك الدخول عليه إلا لرقة حاله وقصور يده، فكتبت رقعة أقول فيها:

إذا كـــان الكـــريم لـــه حجـــاب فمـــا فضـــل الكـــريم علـــى اللئيم

ثم قلت له: أوصل رقعتي إليه ففعل، فعادت الرقعة وقد وقع على ظهرها.

إذا كـــان الكـــريم قلـــيل مـــال تســـتر بالحجـــاب عـــن الغـــريم(٣)

ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار فقلت: والله لأتحفن أمير المؤمنين المأمون بهذا الخبر فما مر بي مثله فجئت إليه فلما رآني قال: من أين يا أصمعي؟ قلت: من عند رجل أكرم الأحياء حاشا أمير المؤمنين، فقال ومن هو؟ قلت: رجل قراني ماله وعلمه

---

(١) انظر: الأغاني (١١/١٢٨).

(٢) انظر: البيان والتبيين للجاحظ (١/٣١٢).

(٣) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (١/٢١٠).

وأدبه ثم دفعت إليه الرقعة والصرة، فلما رأى الصرة اربد وجهه وقال: هذا ختم بيت مالي ولا بد من الرجل الذي دفعها إليك، فقلتُ والله يا أمير المؤمنين إني لأستحي أن أروعه يُرسلك فقال لبعض خاصته: امض مع الأصمعي فإذا رأيت الرجل فقل له: أجب أمير المؤمنين من غير انزعاج فلما حضر الرجل بين يدي المأمون قال له: ما أنت بالأمس وقفت بموكبنا وشكوت لنا رقة حالك وأن الزمان قد أناخ عليك بكلكله فدفعنا إليك هذه الصرة لتصلح بها حالك فقصدك الأصمعي ببيت شعر واحد فدفعتها إليه، فقال والله يا أمير المؤمنين ما كذبت فيما شكوته إليك من رقة الحال وصعوبة الزمان ولكني استحيتُ من الله أن أُعيد قاصدي إلا كما أعادني أمير المؤمنين فقال المأمون: أحسنت لله درك! أنت ما ولدت العرب أكرم منك! ثم أمر له بألف دينار فقال الأصمعي: ألحقني به يا أمير المؤمنين فتبسم المأمون وأمر له بخمسمائة دينار أخرى فتكمل معه ألف دينار وأمر الرجل بملازمته فعاد من جملة خواصه ونُدمائه ومحاضريه.

حكاية (١١٩)

حدث صالح بن علي الأصخم(١) وكان من وجوه الكتاب قال: طالت بي العطلة وبلغ ذلك بي أعظم الحاجة فبكرت يومًا إلى أحمد بن أبي خالد الوزير لأشكو إليه خلل أحوالي وأسأله أن يلم شعثي، فخرج من بابه وبين يديه الشمع قاصدًا دار المأمون فلما أبصرني أنكر بكوري وقطب في وجهي وقال: هل في الدنيا أحد يبكر هذا البكور ليشغلنا عن أمورنا وأحوالنا؟ فقلت: ليس العجب منك أصلحك الله فيما لقيتني به وإنما العجب مني إذ سهرت ليلتي وأسهرتُ جميع أهلي ترقبًا للصبح حتى أصير إليك في صلاح أحوالي بعد وقوع الاختيار عليك فيما أؤمله عندك لكن عليّ وعليّ، إن وقفت لك بباب أو سألتك عن حاجة حتى إلي تصير معتذرًا مما لقيتني به، ثم انصرف مغمومًا مفكرًا فيه نادمًا على ما فرط مني من التعجل باليمين آيسا من الفرج لاستبعاد مجيء الوزير إليّ واعتذاره مني راجعًا باللوم على نفسي، فإني كذلك إذا دخل علي بعض الغلمان فقال: إن الوزير أحمد بن أبي خالد أخذ في شارعنا ودخل آخر وقال:

---

(١) في البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٥٩) الأفقم، بدل، الأصخم، وفي الفرج بعد الشدة للمصنف (٢/ ٩٥) ابن الأضخم، ولعل الصواب الأضجم، يعني: مائل الفم.

إنه دخل دربنا ودخل آخر فقال: إنه قد قرب منا ثم دخل آخر، فقال: دخل دارنا فخرجت مستقبلاً له فلما استقر به المجلس قال لي: كان أمير المؤمنين قد أمرني بالبكور إليه في بعض مهماته فدخلت عليه وقد غلبني السهو والغم بما فرط مني إليك حتى انكرت حالي فقصصت عليه القصة، فقال: قد أسأت إلى الرجل ولا عليك أن تعتذر إليه، قلت فأمضي إليه فارغ اليد؟ فتريد ماذا؟

فقلت: تقضي دينه فقال: كم ذلك هو؟ قلت ثلاثمائة ألف، أخذهم فأمرني بالتوقيع لك بها، قلتُ: فإذا قضى دينه فيرجع إلى ماذا؟ قال: فوقع له بثلاثمائة أخرى يصلح بها حاله، قلت وبولاية يشرف بها، قال: وله مصر وغيرها ما يشبهها، قلت: فمعونة يستعين بها على سفره، فأمر أن يوقع له بمائة ألف درهم وهذه التوقيعات لك بكل ذلك وثرها من كمه ونهض وانصرف.

حكاية ظريفة (١٢٠)

قيل: أهدر المهدي دم رجل من أهل الكوفة، وكان يسعى في فساد دولته وجعل لمن دل عليه أو جاء به مائة ألف درهم فأقام الرجل حينًا متواريًا ثم إنه ظهر بمدينة السلام أي بغداد فبينما هو يمشي في بعض نواحيها إذ بصر به رجل من أهل الكوفة فعرفه فأخذ بمجامع ثيابه وقال: هذا بُغية أمير المؤمنين فبينما الرجل على تلك الحال إذا سمع وقع الحوافر من ورائه فالتفت فإذا معن بن زائدة فقال: يا أبا الوليد أجرني أجارك الله، فوقف وقال للرجل الذي تعلق به: ما شأنك؟ فقال: بغية أمير المؤمنين الذي أهدر دمه وأعطى لمن يدل عليه مائة ألف درهم، فقال: يا غلام أنزل عن دابتك وأحمل الرجل عليها، فصاح المتعلق به يا للناس! أيحال بيني وبين طلبة أمير المؤمنين؟

فقال له معن: اذهب وخبره أنه عندي، فانطلق إلى باب المهدي فأخبره فأمر بإحضار معن فأتته الرسل فدعا أهل بيته ومواليه وقال لهم: لا يخلص هذا الرجل منكم حتى لا يبقى فيكم عين تطرف، ثم إن مَعْنًا سار إلى المهدي فدخل عليه وسلم فلم يرد عليه السلام فقال له: يا معن أتجير علي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: «نعم» أيضًا: واشتد غضبه، فقال: يا أمير المؤمنين، قتلت في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفًا إلى أيام كثيرة وقد تقدم فيها بلائي وحسن عنائي فما رأيتموني أهلاً أن توهب لي رجلاً واحدًا استجار بي، فأطرق المهدي طويلاً ثم رفع رأسه وقال وقد سرى عنه

الغضب: قد أجرنا من أجرت، قال إن رأى أمير المؤمنين أن يصله فيكون قد أحياه وأغناه، قال: قد أمرنا له بخمسين ألف درهم، قال: يا أمير المؤمنين إن صلة الخلفاء تكون على قدر جنايات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل له العطاء، قال: قد أمرنا له بثلاثمائة ألف قال: فعجلها فإن خير البر عاجله، فأمر بتعجيلها له وانصرف بالمال إلى الرجل وقال له: خذ صلتك والحق بأهلك وإياك ومخالف الخلفاء وإن عدت فأنا غريمك، فأخذه وانصرف.

حكاية لطيفة (١٢١)

قال أبو عبد الله النديم: لقد رأيت الملوك في مقاصيرها ومجامعها فما رأيت أغزر أدبًا من الواثق بالله، لقد خرج إلينا ذات يوم وهو يقول: لعمري لقد عرض عرضه من عرضه لقول الخزاعي:

وإن أمـرأ قـد ضـن عـنى بمـنطق يسـد بـه فقـر امـرئ لضـنين

قال: فانبرى إليه أحمد بن أبي دؤاد يسأله في رجل من أهل اليمامة فأسهب في الشفاعة وأطنب وذهب في القول كل مذهب فقال له الواثق: يا عبد الله لقد أكثرت في غير كثير ولا طيب، فقال: يا أمير المؤمنين إنه صديقي وأنشد:

وأهـون مـا يعطـي الصـديق صديقه مـن المهـيمن الموجـود أن يـتكلما

فقال الواثق: ما قدر اليمامي أن يكون صديقك وإنما أحسبه من بعض خولك فقال: يا أمير المؤمنين إنه قد اشتهر بالاستشفاع في عندك وجعلني بمرأى ومسمع من الرد والاستعفاف فإن لم أقم له هذا المقام كنتُ إذًا كما قال أمير المؤمنين.

خليلـي مـاذا ارتجـى مـن يد امرئ طـوى الكشـح عني اليوم وهو مكين

وان امـرأ قـد ضـن عـني بمـنطق يسـد بـه فقـر امـرئ لضـنين

فقال الواثق لمحمد بن عبد الملك الزيات: بالله يا أبا محمد إلا عجلت لأبي عبد الله حاجته ليسلم من هجنة الرد[1].

---

(١) انظر: طبقات فحول الشعراء (٢/٤٦٤)، والأغاني (١٥/١٠٥)، (١٦/٤٥)، (٢٠/١٣٤)، وقرى الضيف (٣/٤٧٣).

حكاية (١٢٢)

قيل: إن رجلاً سأل حاتما الطائي فقال: يا حاتم هل غلبك أحد في الكرم؟ قال: نعم، غلام يتيم وذلك أني نزلت بفنائه وكان له عشرة أرؤس من الغنم فعمد إلى رأس فذبحه وأصلح لحمه وقدم إليّ وكان فيما قدم الدماغ، فقلت: طيب والله، فخرج من بين يدي وجعل يذبح رأسًا بعد رأس ويقدم الدماغ وأنا لا أعلم، فلما خرجت لأرحل نظرت حول بيته دمًا عظيمًا فإذا هو قد ذبح الغنم بأسرها فقلتُ لهُ: لم فعلت ذلك؟ قال: يا سبحان الله تستطيب شيئًا أملكه وأبخل عليك به إن ذلك لسبُة على العرب قبيحة، فقيل: يا حاتم فبماذا عوضته؟ قال: بثلاثمائة ناقة حمراء وبخمسمائة رأس من الغنم فقيل: أنت إذًا أكرم منه قال: هيهات بل هو والله أكرم لأنه جاد بكل ما يملك وأنا جدت بقليل من كثير.

حكاية (١٢٣)

قيل: توجه عبد الله بن طاهر إلى سلاّمة المغنية وكان قد سمعها وهي تغني بحضرة مولاها هذا الصوت:

فيا جبلي نعمان بالله خلّيا ... نسيم الصبا تخلص إلى نسيمها
أجد بردها أو تشف مني حرارة ... على كبد لم يبق إلا صميمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت ... على نفس مغموم تجلت غمومها

قال فوقف يتسمع فرآه مولاها من مستشرف له فأدخله إليها فوقعت في قلبه فطال اختلافه إليها، فقالت له يومًا وقد خلا مجلسها: أنا والله أحبك، قال: وأنا والله أحبك، قالت: أنا والله أشتهي أن أضع فمي على فمك، وأضمك إلى نفسي وتضمني إلى نفسك. قال: والله وأنا أشتهي ذلك، قالت: فما يمنعك؟ والله إن الموضع لخال وما يقربنا أحد، فقال لها: ويحك إن الله عز وجل يقول: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وأنا أُحب أن تكون خلتي لك في الدنيا منقطعة، متصلة يوم القيامة، ثم وثب وانصرف[1].

(١) انظر: الأغاني (٢/٢٦)، (٥/٢٤٣) والمدهش (ص ٢٦٩، ٥١١).

حكاية لطيفة (١٢٤)

قيل: إنه قدم زياد الأعجم على المهلب بن أبي صُفرة بخراسان فنزل على ابنه حبيب فجلسا على شراب وفي الدار شجرة عليها حمامة فجعلت تغرد وزياد الأعجم يقول:

تغــنــي أنـــت في ذممـــي وجـــاري ... وذمـــة والـــدي أن لا تُضـــاري
إذا غنـــيت أو أطـــربت يـــومًا ... ذكـــرتُ أحـــبتي وذكـــرتُ داري
فإمـــا يقـــتلوك طلـــبت ثـــأري ... بقـــتلهم لأنـــك في جـــواري[1]

فأخذ حبيب سهمًا فرماها فأصابها فماتت فقال له زياد: قتلت جارتي بيني وبينك الأمير المهلب، ثم أتى المهلب فأخبره، فقال: يا حبيب ادفع إلى أبي أُمامة ألف دينار دية جارته، قال حبيب: أعز الله الأمير إنما كنت ألعب، فقال: ليس مع هذا لعب، جار أبي أمامة جاري فدفع إليه حبيب ألف دينار فقال زياد في ذلك:

فللـــه عيـــنا مـــن رأى كقضـــية ... قضـــاها فأمضـــاها الأمـــير المهلـــب
قضـــى ألـــف ديـــنار لجـــار أجـــرتُه ... مـــن الطـــير حضان على البيض ينعب
رمـــاه حبـــيب بـــن المهلـــب رمـــية ... فانفـــذه بالســـهم والشـــمس تغـــرب
فألـــزمه عقـــل القتـــيل بزجـــرة ... وقـــال حبـــيب إنمـــا كـــنت ألعـــب
فقـــال زيـــاد لا يـــروع جـــاره ... بجـــارة جـــاري مـــثل جـــاري أقرب

فلما سمعها المهلب أجازه بجائزة سنية وصرفه مُكرمًا، وبلغ هذا الشعر للحجاج فقال: ما أخطأت العرب إذ جعلت المهلب شيخها[2].

حكاية لطيفة (١٢٥)

حُكي عن المعتصم أنه كان بالجوسق مع نُدمائه وقد عزم على الاصطباح فأمر كلاً منهم أن يطبخ قدرا من الطعام ونظر إلى سلامة غلام أحمد بن أبي دؤاد. فقال: هذا غلام ابن أبي دؤاد قد جاء ليعرف خبرنا والساعة يأتي ويقول فلان الهاشمي وفلان

---

(١) انظر: مطالع البدور(١/١٣).

(٢) انظر: الأغاني (١٥/٣٧٤).

القرشي وفلان الأنصاري وفلان العربي فيقطعنا بحوائجه عما كنا عزمنا عليه، وأنا أشهدكم أني لا أقضي له حاجة اليوم، فلم يكن بأسرع من أن دخل ايتاخ يستأذن لأحمد بن أبي دؤاد، فقال لجلسائه: كيف ترون؟ قالوا: لا يأذن له أمير المؤمنين، فقال: سوأة لهذا الرأي والله لحمي سنة أسهل عليَّ من ذلك، ثم أذن له فدخل فما هو إلا أن سلم عليه وتكلم حتى أسفر وجه المعتصم وضحكت إليه جوارحه ثم قال: يا عبد الله قد طبخ كل واحد من هؤلاء قدرًا وقد جعلناك حكمًا في أطيبها، فقال: بسم الله لتحضر القدور وآكل منها وأحكمُ على علم، فأمر بإحضارها فأحضرت بين يديه وتقدم فجعل يأكل من أول كل قدر أكلاً تامًا، فقال له المعتصم: هذا ظلم، قال وكيف؟ قال: أراك قد أمعنت في هذا اللون وتحكم لصاحبه، قال: يا أمير المؤمنين ليس بلُقمة ولا لقمتين أدرك المعرفة بأخلاط الطعام وعليَّ أن أُوْفي كلاً منها حقه في الذوق ثم يقع الحكم بعد ذلك فتبسم المعتصم وقال: شأنك إذن، فأكل من جميعها كما ذكر ثم قال: أما هذه فقد أحسن طباخها إذ أظهر فلفلها وقلل كمونها، وأما هذه فقد أجاد صاحبها إذ أكثر خلها وقلل زيتها، وأما هذه أحكمها صاحبها بتقليل مائها وكثرة مزتها، وأقبل يصف واحدة واحدة حتى أتي على جميعها بصفات سر بها أصحابها وأمر المعتصم بإحضار الموائد فأكل مع القوم ألطف أكل وأحسنه فمرة يحدثهم بأخبار الأكلة في صدر الإسلام مثل معاوية بن أبي سفيان، سليمان بن عبد الملك وعبيد الله بن زياد والحجاج، ومرة يحدثهم عن أكلة زمانه مثل ميسرة الفراش وحاتم الكيال وإسحاق الحمامي، فلما رفعت الموائد قال المعتصم: ألك حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: اذكرها فإن أصحابنا يريدون أن يتشاغلوا، قال: رجل من أهلك وطئه الدهر فغير من حاله وخشن معيشته، قال: ومن هو؟ قال: سليمان بن عبد الملك النوفلي قال: قدر له ما يُصلحه، قال: خمسون ألف درهم قال: قد أمرتُ له بها، قال: وحاجة أخرى، قال: وما هي؟ قال: ضياع هارون بن المعمر تأمر له بها، قال: قد فعلتُ، قال: فوالله ما برح حتى سأله ثلاث عشرة حاجة لا يرده عن شيء منها، ثم قام خطيبًا وقال: يا أمير المؤمنين عمرك الله طويلاً فتعميرك يخصب جناب رعيتك ويلين عيشهم وينمي أموالهم فلا زلت ممتعًا بالسلامة منعمًا بالكرامة مدفوعًا عنك حوادث الأيام وصروفها، ثم انصرف فقال المعتصم: هذا والله الذي يتزين بمثله ويبتهج بقربه أما رأيتم كيف دخل وكيف أكل وكيف سأل وكيف وصف القدور وكيف انبسط في

الحديث وكيف طاب به أكلنا؟ والله لا يرد هذا عن حاجة إلا لئيم الأصل خبيث الفرع سخيف المروءة والله لو سألني في مجلسي هذا ما قيمته عشرة آلاف ألف دينار ما رددته عنها، وأنا أعلم أنه يكسبني في الدنيا جمالاً وحمدًا وشكرًا وفخرًا وفي الآخرة ثوابًا وأجرًا.

حكاية (١٢٦)

قال حماد الراوية: كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك وكان هشام بن عبد الملك يجفوني لذلك دون سائر أهله من بني أمية في أيام يزيد، فلما مات وأفضت الخلافة إلى هشام خفت على نفسي فمكثت في بيتي لا أخرج مدة إلا إلى من أثق فيه من إخواني سرًا فلما لم أسمع لي خبرًا ولا أحد يذكرني أنست وخرجت وصليت الجمعة وجلست عند باب الفيل فإذا شرطيان قد وقفا عليَّ فقالا: يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمرو، فقلت في نفسي: من هذا كنت أحذر، فقلت للشرطيين: هل لكما أن تدعاني آتي أهلي فأودعهم وداع من لا يرجع إليهم وأصير معكما إليه؟ فقالا: ما إلى ذلك من سبيل فاستسلمت في أيديهما وصرت إلى يوسف بن عمرو وهو في الإيوان فسلمتُ عليه فرد عليّ السلام ورمى إليّ كتابًا فيه «**بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمرو أما بعد: فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إليّ حماد حين يأتيك به غير مروع ولا متعتع وادفع إليه خمسمائة دينار وجملاً مهريًا يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق**» قال: فأخذت خمسمائة دينار ونظرت وإذا بجمل مرحول فوضعت رجلي في الفرز وسرت اثنتي عشرة ليلة حتى وافيت دمشق وأتيت باب هشام فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت عليه فإذا هو في دار قوراء مفروشة بالرخام وبين كل رخامتين قضيب ذهب وحيطانه كذلك وهشام جالس على طنفسة خز أحمر وعليه ثياب خز أحمر وقد ضمخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيديه فتفوح روائحه فسلمتُ عليه فرد السلام واستدعاني فدنوتُ حتى قبلت رجله وإذا جاريتان لم أر قبلهما مثلهما في أذني كل واحدة منهما حلقتان فيهما لؤلؤتان تتوقدان فقال لي: كيف أنت يا حماد؟ قلت: بخير يا أمير المؤمنين، قال: أتدري لم بعثتُ إليك؟ قلت: لا، قال: أتدري من الذي يقول:

فدعا بالصبوح يومًا فجاءت   فتية في يمينها إبريق

قلت: هذا قاله عدي بن زيد في قصيدة له أنشدها فأنشدته:

ويلومـــون فـــيك يابـــنة عـــبد الله والقلـــب عـــندكم معلـــوق
زانهـــا حالـــك الغدائـــر جـــثل وأســـيل صـــلت الجـــبين أنـــيق
وثـــنايا مفلجـــات عـــذاب لا قصـــار الأســـنان ولا هـــن روُق
فـــدعا بالصـــبوح يـــومًا فجـــاء ت قيـــنة في يميـــنها إبـــريق
بكـــر العاذلـــون في وضـــح الصـــبح يقولـــون لي ألا تســـتفيق

قال: فطرب هشام وقال: أحسنت والله يا حماد، يا جارية اسقيه فسقتني شربة ذهب بها ثلث عقلي وقال: أعد فأعدت فاستخفه الطرب حتى نزل عن فرشه ثم قال للجارية الأخرى: اسقيه فسقتني قدحًا فذهب ثلثا عقلي فقلت إن سقتني الثالثة افتضحت فقال: سل حوائجك يا حماد، فقلت: كائنة ما كانت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم قلت: إحدى الجاريتين، فقال: هما جميعًا لك وما عليهما ثم قال للأولى اسقيه فسقتني شربة فسقطت معها فلم أعقل حتى أصبحت وإذا الجاريتان عند رأسي وإذا عشرة من الخدم مع كل واحد منهم بدرة فقالت إحداهما لي: أمير المؤمنين يسلم عليك ويقول لك خذ هذه فانتفع بها في سفرك فأخذتها والجاريتين وانصرفت، وقيل: إنه أقام عنده مدة فوصل إليه منه مائة ألف درهم(١).

حكاية ظريفة (١٢٧)

قال: حدثني عبد الله بن الحسن قال: حدثني القاضي أبو الحسن بن عبد الواحد الهاشمي إن شيخًا من التجار كان له على أحد من القواد في أيام دولة المعتضد بالله مال، قال التاجر: فماطلني وسلك معي سبيل الأبطال فيه وكان يحجبني إذا حضرت بابه من الدخول إليه ويضع غلمانه على الاستخفاف علي إذا رمت لقاءه وخطابه، فتظلمت إلى عبد الله بن سليمان الوزير منه فلم ينفعني ذلك وعزمت على الظلامة إلى المعتضد بالله فبينما أنا حائر في أمري قال لي بعض أصدقائي: هل لك في خلاص مالك من غير حاجة إلى ظلامة؟ فاستبعدت ذلك، فقال: قم معي فقمت معه حتى جاء بي إلى رجل شيخ خياط في سوق الثلاثاء في مسجد وهو يقرأ القرآن ويخيط بأجرة، فقص عليه قصتي وشرح له صورتي وسأله أن يقصد القائد ويخاطبه في الخروج إليَّ من

(١) انظر: الأغاني (٦/٨٦).

حقي، وكانت دار القائد قريبة من منزل الخياط فنهض معنا فلما قربت من داره خفت مبادرة القائده وسطوته وتصورت أن قول الخياط لا ينفع مع مثله مع محله وبسطته، فتأخرت وقلت لصديقي: لقد عرضنا هذا الشيخ ونفوسنا لمكروه عظيم وما هو إلا أن يراه غلمان القائد وقد أقنعوا به إذا كان لا يقبل قول الوزير عبد الله بن سليمان وأكابر الدولة فأولى أن لا يقبل منه ولا يفكر فيه فضحك وقال: لا عليك، وجئنا إلى باب القائد فحين رأى غلمانه الخياط تلقوه وعظموه وهموا لتقبيل يده فمنعهم فقالوا: يا مولانا ما الذي جاء بك فإن قائدنا راكب فإن كان لك أمر نقوم بذكره لك ونتجزه إياه فعلنا وإن أردت الجلوس وانتظاره فالدار بين يديك فلما سمعت ذلك قويت نفسي فدخلنا وجلسنا ووافى القائد فلما رآه أكرمه إكرامًا شديدًا وقال: لستُ أنزع عني ثيابي حتى تأمر بأمرك فخاطبه في شأني فقال: والله ما معي حاضر إلا خمسة آلاف درهم فتسأله أن يأخذها ويأخذ رهونًا من مراكبي الذهب والفضة بقيمة ما يبقى من ماله لأعطيه إياه بعد عشرة أيام، فسارعتُ إلى الإجابة وأحضر الدراهم والمراكب بقيمة الباقي فقبضتها وأشهدت الخياط وصديقي بالرهن إلى تلك المدة فإن تأخر المال كنت وكيله في بيع الرهن وأخذ مالي منه، وخرجنا فلما بلغنا مسجد الخياط طرحت الدراهم بين يديه وقلتُ: قد رد الله تعالى مالي بك وعلى يديك فخذ منه ما تريد على طيبة مني، فقال: يا هذا ما أسرع ما قابلتني بالقبيح على الجميل انصرف بمالك بارك الله لك فيه، قلت: قد بقيت لي حاجة، قال: قل حاجتك، قلت: أحب أن تخبرني عن سبب طاعة هذا القائد لك مع إقلال الفكرة بأكابر الدولة، فقال: الآن قد بلغت غرضك فلا تصدني عن شغلي بحديث لا فائدة لك فيه، فألححت عليه، فقال: أنا رجل خياط أقرأ القرآن وأؤم بالناس في هذا المسجد منذ أربعين سنة لا أعرف كسبًا إلا من الخياطة وكنت في بعض الأيام قد صليت المغرب وخرجت أريد منزلي فأجزت على تُرْكي كان في هذه الدار (وأومأ إلى دار بالقرب منه)، وإذا بامرأة جميلة الوجه قد اجتازت عليه فعلق بها وهو سكران وطالبها بالدخول عليه وهي تمتنع وتستغيث وتقول في كلامها: إن زوجي حلف بطلاق أني لا أبيت ناحية عنه وإن أخذني هذا أو غصبني نفسي وبيتني عن منزلي خربت بيتي ولحقني من العار ما لا ترحضه الأيام عني، وليس هناك أحد يعينها ولا يمنع منها فجئت إلى التركي ورققت له في أن يخلي عنها فلم يفعل، وضرب رأسي بدبوس كان بيده فشجه وأدخل المرأة، فصرت إلى منزلي

وغسلت الدم عن وجهي وثيابي وشددتُ رأسي وخرجت لصلاة العشاء الآخرة فلما فرغنا منها قلت لمن حضر: قوموا معي إلى هذا التركي عدو الله لننكر عليه ونُخرج المرأة من عنده، فقاموا وجئنا فضججنا على بابه فخرج إلينا في جماعة من غلمانه وأوقع بنا وقصدني من بين الجماعة بالضرب الشديد حتى كاد يقتلني، فحملتُ إلى منزلي وأنا لا أعقل بنفسي ونمت قليلاً للوجع ثم طار النوم عن عيني وسهرتُ متقلبًا على فراشي ومفكرًا في أمر المرأة وأنها متى أصبحت طُلقت ثم قلت في نفسي: هذا رجل قد شرب طويلا وليس يعرف الأوقات فلو أذنت لوقع له، أن الفجر قد طلع فربما أخرج المرأة فمضت إلى بيتها وبقيت في حيال زوجها فتكون قد خلصت من إحدى المكروهين وخرجت متحاملاً إلى المسجد وصعدت المنارة وأذنت وجلست أطلع الطريق وأترقب خروج المرأة من الدار وإذا قد امتلأ الشارع خيلاً ورجلا ومشاعل وهم يقولون من الذي أذن في هذه الساعة؟ فخفت منهم ومكثت متخفيًا ثم قلت: أخاطبهم وأصدقهم عن أمري لعلهم يعينوني على خروج المرأة فصحت من المنارة أنا أذنتُ فقالوا: أنزل وأجب أمير المؤمنين فنزلتُ ومضيت معهم وإذا بغلمان كالبدوري فأخذوني وأدخلوني على المعتضد فلما رأيته هبته وأخذتني رعدة شديدة فقال: ليسكن روعك يا شيخ، ثم قال: ما الذي حملك على الأذان في غير وقته حتى تغر الناس فيخرج ذو الحاجة في غير حينه فيؤخذ ماله ويمسك المريد للصوم عن الأكل والشرب في وقت فسح له فيه؟ فقلت يؤمنني أمير المؤمنين لأصدقه، فقال: أنت آمن فقصصت عليه قصة التركي وأريته الآثار التي في رأسي ووجهي فقال: يا بدر عليّ بالغلام التركي والمرأة فلما حضرت سألها المعتضد عن أمرها فذكرت له مثل ما ذكرت له فأمر بإنفاذها مع خادم إلى زوجها ويدخلها دارها ويشرح لزوجها خبرها ويأمره بالتمسك بها والإحسان إليها ثم استدعاني فوقفت قريبًا منه فجعل يخاطب الغلام ويسمعني ويقول كم رزقك قل؟ فيقول: كذا وكذا، فيقول: كم عطاؤك؟ فيقول: كذا وكذا، فيقول: كم مضيفتك؟ فيقول كذا وكذا. فيقول: كسوتك؟ فيقول: كذا وكذا، إلى أن عدد شيئًا كثيرًا ثم قال: كم جارية عندك؟ فقال: كذا وكذا، فقال: أما كان لك في هذه النعمة وفي هذه السعة ما يكفيك ويكف عن محارم الله وخوف سياسة السلطان والجرأة عليه وما كان عذرك في الوثوب بمن أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر فأُسقط الغلام في يده ولم يكن له جواب يرده، ثم أمر أن يحضر جوالق

ومذاق الجص وغل وقيود فأحضر جميع ذلك ثم قيده وغله وأدخله الجوالق وأمر الفراشين أن يدقوه بمداق الجص، وهو يصيح إلى أن خفت صوته وانقطع حسه وأمر به فطرح في دجلة بغداد وتقدم إلى بدر بتحويل ما في داره من خيل ومتاع وغلمان ثم قال لي قد شاهدت هذا كله مني فما رأيت منكرًا كبيرًا وصغيرًا ولو على هذا، وأومأ إلى بدر، فقلت: يا أمير المؤمنين وكيف أقدر على وصول ذلك إليك؟ فقال تنهيه إلى أرباب دولتي فمن تقاعس عن القبول منك فالعلامة بيني وبينك الأذان في مثل هذا الوقت لأسمع صوتك واستدعيك، فقال الشيخ: فدعوتُ له وانصرفت وشاع ذلك بين جميع الجند والغلمان والقواد فما سألت أحدًا بعدها إنصافًا أو الكف عن القبيح إلا وأطاعني كما رأيت خوفًا من المعتضد والأذان في مثل هذا الوقت.

حكاية (١٢٨)

حدث الأصمعي قال: وقعت حرب بالبادية اتصلت بالبصرة وتفاقم الأمر فيها حتى مشي الناس في الصلح بين الجيشين واجتمعوا في المسجد الجامع، قال: فبعثت وأنا حينئذ غلام إلى القعقاع بن ضرار الفزاري فاستأذنت عليه، فأذن لي فدخلت فوجدته في شمله يخلط بزرا لعنز له حلوب فخبرته بمجتمع القوم فأمهل حتى أكل العنز ثم غسل الصحفة وصاح: يا جارية غذينا، فأتته بزيت وتمر، قال: فدعاني للأكل فغسل منه يديه ثم استسقى ماء فشربه ومسح فاضله على وجهه ثم قال: الحمد لله ماء الفرات. بتمر البصرة، بزيت الشام متى يؤدي شكر هذه النعم، ثم أخذ رداءه فارتدى به على تلك الشملة، قال الأصمعي: فتجافيت عنه استقباحًا لزيه - فلما دخل صلى ركعتين ثم مشى إلى القوم فلم تبق مسألة إلا حُلت إعظامًا له ثم جلس فتحمل جميع ما كان بين الأحياء من الديات في ماله ونهض، وهو سيد القوم بفعله.

حكاية (١٢٩)

قيل لمعاوية بن أبي سفيان: إن بالحيرة رجلاً من جرهم له قدم ومسن وفصاحة وعقل وقد مضت عليه بُرهة من دهره ورأى أعاجيب في عصره، فقال معاوية: عليَّ به، فلما حضر قال له: من الرجل؟ قال عبيد بن شرية. قال: ثم ممن؟ قال: من قوم ليست لهم بقية، قال: فكم مضى عليك من عمرك؟ قال عشرون ومائتا سنة قال: أهمتك السنون؟ قال: أجل يا أمير المؤمنين وقرعتني بريبها المنون، قال: فما رأيت في سنينك وطول ما عمرت؟ قال: رأيت يومًا في أثر يوم يتبعه ورأيت قومًا يمضون فلا

يرجعون فهم يجمعون لما يبيد عنهم ولا يعتبرون بمن مضى قبلهم وقد ذهب الدهر بهم كل مذهب فلولا أن المولود يلد لذهبت الأرض بمن عليها ولولا أن الحي يموت لضاقت الأرض بمن عليها.

قال معاوية: إن عندك لعلما؟ قال: نعم فسلني، قال: أي المال رأيت أنفع وإلى صاحبه بالخير أسرع؟ قال: عين جرارة في أرض خوارة تعول ولا تُعال، قال: ثم ما؟ قال: فرس في بطنها فرس يتبعها فرس، قال: فأين أنت عن الصهابية الحمر والعوسية الشقر؟ قال: تلك يا أمير المؤمنين لغيرك، قال: لمن؟ قال: لمن وليها بيديه ولم يكلها إلى غيره، قال: فأين أنت عن الذهب والفضة؟ قال: حجران مصطكان إن أقبلت عليهما نفذا وإن تركتهما لم يزيدا، قال له معاوية: فأخبرني بأعجب ما رأيت في عمرك، قال: نعم يا أمير المؤمنين، كنت في حي من أحياء العرب وقد مات لهم ميت يقال له جبلة بن الحويرث فمشيت في جنازته وانتسبت في جماعته فلما دُلّي في قبره وأعول النساء في أثره أدركتني عليه رقة وعبرة لم أستطع ردَّها فبكيت وتمثلت بأبيات كنت سمعتها، فقال معاوية: قل يا أخا جُرهم، فأنشد:

يا قلب إنك في أسماء مغرور ... فاذكر وهل ينفعنك اليوم تذكير؟
قد بُحت بالجهل ما تُخفيه من أحد ... حتى جرت بك أطلاقًا محاضير
تريد أمرًا فما تدري أعاجله ... خير لنفسك أم ما فيه تأخير؟
استرزق الله مما في خزائنه ... فبينما العُسر إذ دارت مياسير
بينا يُرى المرء في الأحياء مغتبطًا ... إذ صار في التُرب تعلوه الأعافيرُ
يبكي الغريب عليه ليس يعرفه ... وذو قرابته في الحي مسرور
كأنه لم يكن إلا يُذكره ... والدهر أيتما حال دهارير
قد كان آخر عهد من أخيك إذا ... ما المرء ضمنه اللحد الخناصير[1]

قال: فبينما أنا أُردد هذه الأبيات وعيناي ينسكبان انسكابًا لا أملك ردّ دمعهما إذ قال لي رجل إلى جنبي من عُذرة: يا عبد الله هل تعرف قائل هذا الشعر؟ قلت: لا

(١) انظر: المستقصى في أمثال العرب.(٢) انظر: دائرة المعارف للبستاني (٧/٣٧١).

والله، قال: فإن قائله هذا الميت الذي دفنّاه، فأنت الغريب الذي تبكي عليه ولا تعرفه وذو قرابته الذي ذكر أنهم مسرورون هو ذاك وأشار إلى رجل في الجماعة وقال: والله ما يستطيع كتمان ما هو عليه، فقال له معاوية يا أخا جرهم سل ما شئت، قال: ما مضى من عمري ترده وأجل قد حضر تدفعه، قال ليس ذلك إليّ، سل غير هذا، قال: يا أمير المؤمنين ليس إليك رد شبابي ولا دفع الموت عني وأما المال فقد أخذتُ منه في عنفوان شبابي ما كفاني، قال لابد أن تسألني، قال: أما إذا أبيت فأمر لي برغيفين أتغدى بأحدهما وأتعشى بالآخر واتق الله يا أمير المؤمنين واعلم بأنك مُفارق ما أنت فيه وقادم على ما قدمت إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشر فأمر له معاوية برواحل كثيرة من حنطة وغيرها فردها وقال: إن أعطيت المسلمين كلهم مثل ما أعطيتني وإلاّ فلا حاجة لي في شيء من ذلك، وودعه وانصرف.

حكاية (١٣٠)

قيل: كان عند الفضل بن سهل رسول ملك الخزر. وهو يحدث عن أخت الملك ويقال لها خاتون قال أصابتنا سنة احتدم شواظها علينا بحرارة المصايب وصنوف الآفات ففزع الناس إلى الملك فلم يدر ما يُجيبهم به، فقالت له خاتون: أيها الملك إن الحزم خلق لا يخلق جديده وسبب لا يُمتهن عزيزه وهو دليل الملك على استصلاح مملكته وزاجره على استفسادها وقد فزعت رعيتك إليك لفرط العجز عن الالتجاء إلى من لا تزيده الإساءة إلى خلقه عزًا ولا ينقصه العود إلى الإحسان إليهم مُلكًا وما أحد أولى بحفظ الوصية من الموصي ولا بركوب دلالة إلا من الدلال ولا خير رعاية من الراعي ولم تزل في نعمة لم تغيرها نقمة وفي رضا لم يكدره سخط إلى أن جرى القدر بما عمى عنه البصر وذهل عنه الحذر فسُلب الموهوب والسالب هو الواهب فعد إليه بشكر النعم وعُذ به من فظيع النقم فمتى تنسه ينسك ولا تجعل الحياء من التذلل للعمر المذل مسلكًا بينك وبين رعيتك فتستحق مذموم العاقبة ولكن مُرهم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكُنة القدرة وتبديل الألسُن في الدعاء بمحض الشكر فإن الملك ربما عاقب عبده ليرجعه عن سيئ فعل إلى عمل صالح وليبعثه على دأب الشكر لما يحرز به أجرًا وفضلاً، قال: فأمرها الملك أن تقوم فتعظهم بهذا الكلام ففعلت، فرجع القوم عن بابه وقد علم الله منهم قبول الوعظ والأمر والنهي، فلما حال عليهم الحول وما أحد مفتقد النعمة التي كان سلبها وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع والله المحمود.

حكاية (١٣١)

قال أبو بكر حدثنا عبد الرحمن عن عمه الأصمعي قال: قدم وفد على هشام بن عبد الملك وفيهم رجل من قريش يقال له إسماعيل بن الجهم وكان أكبرهم سنًا وأفضلهم رأيًا وحلمًا فقام متوكئًا على عصا وقال: يا أمير المؤمنين إن خطباء قريش قد قالت فأطنبت وأثنت عليك فأحسنت والله ما بلغ قائلهم قدرك ولا أحصى مثنيهم فضلك أفتأذن لي في الكلام؟ قال: تكلم، قال: فأوجز أم أطنب؟ قال: بل أوجز قال: تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى وزينك بالتقوى وجمع لك خير الآخرة والأولى إن لي حوائج أفأذكرها؟ قال: نعم، قال: كبر سني وضعفت قوامي واشتدت فاقتي فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسري ويقي فقري؟ فقال له: يا بن أبي الجهم وما يجبركسرك وينفي فقرك؟ قال: ألف دينار وألف دينار وألف دينار، قال هيهات يا بن أبي الجهم بيت المال لا يحتمل هذا قال: كأنك يا أمير المؤمنين آليت ألا تقضي لي حاجة في مقامي هذا، قال: فألف دينار لماذا؟ قال: أقضي بها دينًا فدحني حمله وأزهقني أهله، فقال: نعم المسلك أسلكتها دينًا قضيت وأمانة أديت وألف دينار لماذا؟ قال: أزوج من أولادي بها من أدرك لأشد بهم عضدي ويكثر بهم عددي، قال: ولا بأس أغضضت طرفًا وحصنت فرجًا وأكثرت نسلا، وألف دينار لماذا؟ قال: أشتري بها أرضًا فأعود بفضلها على ولدي وبفضل فضلها على ذوي قرابتي، قال: ولا بأس أردت ذخرًا ورجوت أجرًا ووصلت رحمًا، ثم قال: لقد أمرنا لك بها، فقال: الله المحمود على ذلك وجزاك الله يا أمير المؤمنين عن الرحم خيرًا فقبضها وانصرف، قال هشام: بالله ما رأيت رجلاً سواك ألطف ولا أرفق في مقال منه، هكذا فليكن القرشي.

حكاية (١٣٢)

حدث علقمة قال: حدثني الفضل بن زيد قال: حدثني أبو زيد بن نوفل قال: سمعت محرز بن ناجية الرصافي يقول: كنت أحد من وقع عليه التهمة في مال مصر أيام الواثق وطلبني السلطان طلبًا شديدًا حتى ضاقت عليّ الرصافة وغيرها من المدن فخرجت أريد البادية مرتادًا دار رجل عزيز الجار منيع الدار أعوذ به وأنزل عليه حتى انتهيت إلى بني شيبان فرفع لي بيت مشرف تظهر رابيته وهي منيفة وبفنائه فرس مربوط ورمح مركوز يلمع سنانه ومن تحته حلة عظيمة فدنوت ونزلت عن الفرس وتقدمت فسلمت على أهل البيت فردوا على السلام نساء من وراء السجف، ثم تقدمن فرفعن خلل الستر ونظرن إليّ بعيون كعيون أخشاف الظبا وكلمت إحداهن فقالت اطمئن يا حضري فلنعم المناخ أنخت وبالصديق نزلت، فقلت: وأنّى يطمئن

المطلوب ويأمن المرعوب دون أن يأوي إلى جبل يعصمه أو معقل يمنعه، وقليل ما يهجع من السلطان طالبه والخوف غالبه، قالت: يا حضري لقد ترجم لسانك عن ذنب كبير وقلب صغير واسم الله لقد حللت بفناء بيت لا يُضام فيه أحد ولا يجوع فيه كبد ما دام لهذا الحي سيد هذا بيت الأسود بن قنان، وأخواله الأراقم وأعمامه شيبان صعلوك الحي في ماله وسيدهم في مقاله وفعاله الأسد الخوار ووقاد النار وطلاب الثأر، لا ينازع ولا يُفارق وبهذا وصفته أمامة بنت الحلاج الكلبي الأحنف تقول:

إذا شئت أن تلقى فتى لو وزنته … بكل معدي وكل يمان

وفى بهم علمًا وحلمًا وسؤددا … وبأسًا فذاك الأسود بن قنان

فتى كالقناة البكر يشرق وجهه … كأن تلالى وجهه القمران

أعز بن أنثى في معد ويعرب … وأوثقهم عقدًا بقول لسان

وأوفاهم عهدًا وأطولهم يدًا … وأكرمهم فعلاً بكل مكان

وأضربهم بالسيف من دون جاره … وأطعنهم من دونه بسنان

فتى لا ترى في عمرك الدهر مثله … ليوم نزال أو ليوم طعان

كأن العطايا والمنايا بكفه … سحابان مرتكنان منهملان

قال: فقلتُ لقد هدأت الروعة وسكنت الوحشة فمن لي به؟ فقالت: يا جارية ادعي مولاك، فخرجت الجارية من مؤخر البيت فلم تلبث إلا قليلاً حتى جاءت وهو معها في جماعة من الحي فنظرت فإذا بغلام شاب حين اختط شاربه وخُشي جانبه فقمت وسلمتُ عليه فرد عليّ السلام ورحب وقال: أي المنعمين علينا أنت؟ فسبقتني المرأة وقالت: يا أبا المرهف هذا رجل أحب جوارك ورغب في قربك نبئت به أوطانه وأزعجه سلطانه وأوحشه زمانه ورفضه إخوانه وقد ضمنا له عنك ما يضمن لمثله عن مثلك فقال: بل الله، ثم قبض بيده على يدي وأجلسني إلى جانبه وأقبل على الجماعة بوجهه وقال: يا معشر بني أبي وذي رحمي اشهدوا أن هذا الرجل في جواري وذمتي فمن أراده فقد أرادني ومن كاده فقد كادني، ثم أمر فضرب لي بيتاً إلى جانب بيته، فلم أزل في جواره إلى أن هلك الواثق فأمنت وانصرفت عنه وأنا مكرم وأنا أشكر الناس له وأكثرهم ثناء عليه.

حكاية (١٣٣)

جاء أعرابي إلى طلحة فسأله وتقرب إليه بالرحم فقال له طلحة: وما رحمك؟ قال: تجمع بيننا النسبة التي بيننا وبينك إلى آدم عليه السلام، فقال: إن هذه الرحم ما سألني به أحد وإن لي أرضًا قد أعطاني بها عثمان ثلاثمائة ألف درهم فإن شئت فأبقها وإن شئت فبعها فهي لك، فباعها من عثمان وقبض ثمنها وانصرف.

حكاية (١٣٤)

كان الأحنف بن قيس جالسًا عند معاوية وقد أخذ البيعة ليزيد ولده بعده ودخل الناس يهنئونه فدخل رجل من العرب فهنأ يزيد ثم أقبل على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن لم تول هذا الشاب المقبل أمور الناس لأضعتها فأعجبه ذلك ثم التفت إلى الأحنف فقال: ما تقول يا أبا بحر؟ فقال: أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت فقال معاوية: جزاك الله عن المظلمة خيرًا وأمر له بجائزة سنية فلما خرج اتبعه الرجل فقال: يا أبا بحر هؤلاء القوم قد أخذوا الأموال وجعلوا عليها الأقفال وإنا لا نصل إلى استخراجها من تحت أيديهم إلا بما سمعت فقال له الأحنف: يا هذا أما علمت أن ذا الوجهين خليق ألا يكون عند الله وجيها؟

حكاية (١٣٥)

قيل: وفد عبد الله بن جعفر الطيار ﷺ على يزيد بن معاوية فقال: كم يعطيك أمير المؤمنين؟ فقال: كان رحمه الله يعطيني ألف ألف درهم، قال يزيد: قدرنا لك لترحمك عليه ألف ألف،قال: بأبي أنت وأمي، قال: ولهذه ألف ألف قال: أما إني لا أقولها لأحد بعدك، قال: ولهذه ألف ألف، قال: فما منعني من الإطناب في وصفك إلا الإشفاق عليك من جودك، قال: ولهذه وحمل المال معه فقيل ليزيد فرقت مال المسلمين على رجل واحد، قال: إنما فرقته على أهل المدينة أجمعين، ثم وكل به من يعلم خبره من حيث لا يشعر به، فدخل المدينة ففرق فيها الأموال حتى احتاج بعد شهر إلى القرض.

حكاية (١٣٦)

قال عبد الملك بن مروان لأسماء بن خارجة: بلغني عنك خصال فحدثني بها، قال: هي من غيري أحسن منها مني، قال: عزمت عليك إلا حدثتني بها، فقال: يا أمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط ولا صنعت طعامًا فدعوت إليه قومًا

إلا كانوا آمن مني عليهم ولا نصب لي وجهه رجل قط فسألني حاجة فاستكثرت شيئًا أعطيه إياه.

حكاية (١٣٧)

قال مصعب: كان الحكم بن المطلب بن عبد الله بن المطلب بن حيصب من أبر الناس بأبيه وكان أبوه المطلب بن عبد الله يحب ابنًا يقال له الحرث حبًا مفرطًا، وكان بالمدينة جارية مشهورة بالفراهة والجمال، قال: فاشتراها الحكم من أهلها بمال عظيم، فقال له أهلها، وكانت مولدة عندهم: دعها حتى نصلح أمرها ثم نزفها إليك ونحملها بما تستأهل منا فإنما هي بمنزلة ولدنا، فتركها عندهم حتى جهزوها وهيئوها ثم نقلوها إليه كما تزف العروس إلى زوجها، وتهيأ الحكم بأجمل ثيابه وأحسن هيئته وتطيب ثم انطلق فبدأ بأبيه ليراها في تلك الهيئة ويدعو له تبركًا بدعائه حتى دخل عليه وعنده ابنه الحرث بن المطلب، فلما رآه أبوه في تلك الهيئة أقبل عليه وقال له: إن لي إليك حاجة فما تقول، قال: يا أبت إنما أنا لك عبد فمرني بما أحببت، قال: تهب جاريتك هذه لأخيك الحرث وتعطيه ثيابك هذه التي عليك وتُطيبه من طيبك وتدعه حتى يدخل على هذه الجارية فإني لا أشك إلا أن نفسه قد تاقت إليها، فقال له الحرث: يا أبت لم تكدر على أخي وتفسد قلبه علي؟ وذهب أن يحلف فبدره الحلم وقال: هي حرة أن تفعل ما أمرك أبي فإن قرة عينه أسر إلي من هذه الجارية، وخلع ثيابه فألبسه إياها وطيبه وأخلاه والجارية.

حكاية (١٣٨)

قال المسيبي: أخبرني القاسم بن المعتمر عن أبي معتوق الحمصي عن أبيه، قال: كنت عند الحكم بن المطلب فيمن كان عنده وقت احتضر فقلت اللهم هون عليه فإنه كان وكان ... وأخذت أعدد محاسنه، فأفاق من غشيته وقال: من المتكلم؟ فقلت له: أنا، فقال: إن ملك الموت يقول لك إني بكل سخي رفيق، قال: ثم إنه فارق حتى كأنه كان فتيلة أُطفئت.

هذه مائة وثمانية وثلاثون خبرًا من أحسن ما يسطر، وأفخر ما يذكر وينشر وقد ذيلت ذلك بنكت عجيبة، من الجوابات المصيبة. فإنها تستجاد من الأقوال، كما استجيد ما قبلها من الأفعال، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق والإقبال. وهو على ما يشاء قدير.

حكاية (١٣٩)

أولها: قال الأصمعي: سمعت مولى لآل عمر بن الخطاب يقول: أخذ عبد الملك بن مروان رجلاً كان يرى رأي شبيب الخارجي فقال له عبد الملك، ألست القائل:

ومنا سويد والبطين وقعنب ومنا أمير المؤمنين شبيبُ

فقال الرجل: لم أقل هكذا وإنما قلت:

ومنا أمير المؤمنين نسيب

فاستحسن عبد الملك ذهنه وحسن اعتذاره فأطلقه.

حكاية (١٤٠)

قال رجل ليزيد بن المهلب: ما بال سيفك يقطع وسيوفنا لا تقطع على أنا نغالي بها؟ فأخذ يزيد يده فوضعها على قلبه، فقال: كيف ترى سكونه؟ قال: أراه ساكنًا، قال: بهذا يقطع سيفي.

حكاية (١٤١)

قال المنصور لعمر بن عبد:؟ بلغني أن كتاب إبراهيم بن عبد الله ورد عليك، قال: رأيت له كتابًا وما قرأته وأنت تعلم برأيي في الخوارج، فقال له: ثبت نفسي بتحليفة، فقال: لئن كذبتك تقية لأحلفن لك تقية.

حكاية (١٤٢)

أهدى المعلى إلى المعتز مرآة فقال له: كيف وقعت على مرآة قال: كلما رأيتَ وجهك الحسن ذكرتني، فأمر له بحلل.

حكاية (١٤٣)

قيل: اجتمع قوم بباب الأوزاعي يتذكرون وأعرابي من كلب ساكت فقال له رجل: بحق ما سُميتم خُرس العرب، قال له: يا هذا أما علمت أن لسان الرجل لغيره وسمعه له؟

حكاية (١٤٤)

قال المبرد: قال عمارة: قال لي عبد الله بن أبي الشوط: يا عُمارة أما علمت أن المأمون لا ينظم الشعر، فقلت له: ومن أفرس منه فيه؟ إنا لننشده البيت فيسبقنا إلى عجزه من غير أن يكون سمعه. فقال: إني أنشدته بيتًا أجدت فيه فلم يحركه قلت وما هو؟ قال:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا ... بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فقلتُ: ما صنعت شيئًا ما زدت أن جعلته عجوزًا في محرابها سبحتها في يدها فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولاً عنها وهو المطوق لها؟ قال: هلا قلت كما قال جرير في عبد العزيز بن مروان.

فلا هو في الدنيا مُضيع نصيبه ... ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله(١)

حكاية (١٤٥)

قال عمر بن الخطاب ﷺ لامرأة: والله لأسوءنك، قالت: والله ما أنت على ذلك بقادر. قال: وكيف؟ قالت: أتستطيع أن تنزعني عن الإسلام؟ قال: لا، قالت: فما يسوءني غيره.

حكاية (١٤٦)

قيل: أمر الرشيد يحيى بن خالد بهدم إيوان كسرى، فقال: تهدم بناء دل على فخامة شأن بانيه وأنكم أزلتم مُلكه وأوهنتم أمره، فقال له: يا مجوسي، ثم أمر بنقضه فقدر لهدمه نفقة استكثرها الرشيد فقال له يحيى: لم يكن يحسن بك أن تعجز عن هدم شيء بناه غيرك.

حكاية (١٤٧)

قال رجل للأحنف أخبرني الثقة عنك بسوء قال الثقة لا يتمُ.

حكاية (١٤٨)

قالت اليهود للنبي ﷺ: أليس لم تزل نبياً؟ قال بلى، قالوا: فلم لم تنطق في المهد كما نطق عيسى عليه السلام؟ فقال: إن الله عز وجل خلق عيسى ابن مريم من غير فحل فلولا أنه نطق في المهد لما كان لمريم عُذر إذا أُخذت بما أخذ به غيرها وأنا وُلدتُ بين أبوين.

حكاية (١٤٩)

قيل لشيخ: لو دعوت الله عز وجل أن يرزقك حمارًا يوقيك ويحمل رحلك، فقال: أنا أكرم على الله من أن يجعلني سائس حمار.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٥/٢٠٤)، وتاريخ بغداد (١٠/١٨٩).

حكاية (١٥٠)

قالت عائشة رضي الله عنها: ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقال النبي ﷺ هل بقي منها شيء؟ فقلت: يا رسول الله ما بقي منها إلا كتفها فقال ﷺ «**كلها إلا كتفها**»[١].

حكاية (١٥١)

قال المأمون لأحمد بن أبي يوسف إن أصحاب الصدقات قد تظلموا منك، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما رضى أصحاب الصدقات عن رسول الله ﷺ حتى أنزل الله فيهم ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨] فكيف يرضون عني؟ فضحك المأمون[٢].

حكاية (١٥٢)

قال هشام بن عبد الملك لزيد بن علي: بلغني أنك تريد الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة، فقال: وإسحاق ابن أمة فأخرج الله من صلبه خير ولد آدم.

حكاية (١٥٣)

قيل لعائشة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين متى أعلم أني مُحسن؟ قالت: إذا علمت أنك مُسيء، قال: فمتى أعلم أني مُسيء؟ قالت: إذا علمت أنك مُحسن.

حكاية (١٥٤)

قيل لُرقية: ما بالُ القراء أشبق الناس؟ قالت: لأن الله أحب أن يُعف نساءهم قيل: فما بالهم أحد الناس؟ قالت: لأن عز القرآن في صدورهم، قيل: فما بالهم أشدُ الناس تمسكًا بما في أيديهم؟ قالت: لأنهم اكتسبوه من حله فيكرهون أن يضعوه في غير حقه.

حكاية (١٥٥)

قيل ليحيى بن خالد: غير حاجبك، قال: فمن يعرف إخواني القدماء؟

حكاية (١٥٦)

قال بعضهم لهشام: أنا أقول بالاثنين، قال: فتقول إن أحدهما يخلق شيئًا لا يستعين عليه بالآخر؟ قال: نعم، قال: فما تصنع بالاثنين واحد يخلق كل شيء أصح

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٥/٤٤)، (٨٣)، وأورده المناوي في فيض القدير (٢/١٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠/١٥٥، ١٥٧).

لك فانقطع.

حكاية (١٥٧)

قال رجل لثُمامة: تقدر أن تؤخر ما قدم الله وتقدم ما أخر الله؟ قال: هذا على ضربين إن أردت أن أصير رأس الحمار ذنبه فلا، وإن أردت أن أقدم معاوية على علي وقد أخره الله فنعم.

حكاية (١٥٨)

قال رجل لهشام القرطبي: كم تعد؟ قال: من واحد إلى ألف ألف وأكثر، قال: لم أرد هذا كم تعد من السن؟ قال: اثنتين وثلاثين سنة ست عشر من أعلى وست عشر من أسفل، قال: لم أرد هذا. كم لك من السنين؟ قال: والله مالي منها شيء السنون كلها لله، قال: يا هذا ما سنك؟ قال: عظم، قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن اثنتين رجل وامرأة، قال: كم أتى عليك؟ قال: لو أتى عليّ شيء قتلني، قال: فكيف أقول؟ قال: قل كم مضى من عمرك؟

حكاية (١٥٩)

قال عمر بن عبد العزيز لنعيم بن سلامة الحميرى: قومك الذين قالوا: ربنا الله وظلموا أنفسهم؟ فقال: نعيم: الذي قال قومك أشد يا أمير المؤمنين إذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فتبسم عمر.

حكاية (١٦٠)

وقال بلال بن بُردة لابن أبي علقمة: إنما دعوتك لأسخر منك، قال ابن علقمة: لئن فعلت ذلك لقد سخر أحد الحكمين من الآخر.

حكاية (١٦١)

قال معاوية يومًا لأهل الشام وعنده عقيل بن أبي طالب ﷺ: هل سمعتم قول الله عز وجل ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ قالوا: نعم، قال: فإن أبا لهب عمه، وأشار إلى عقيل، فقال عقيل: يا أهل الشام هل سمعتم قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ قالوا: نعم، قال: فإنها عمته، وأشار إلى معاوية.

حكاية (١٦٢)

قيل: مر مبارك التركي[1] بابن، أيوب المكي وهو واقف بباب الجسر فقال: يا أبا أيوب كيف ترى هذه الفرس؟ قال: فأرها، ثم مر وأقبل منارة المسعودي فقال له أبو أيوب: من أين أقبلت؟ فقال: من الفسر ألك حاجة يا أبا أيوب؟ قال: نعم تلحق مباركًا فتعطيه السين وتأخذ الصاد.

حكاية (١٦٣)

قال رجل في مجلس أبي حنيفة: ما كذبت قط، فقال أبو حنيفة: أما نحن فقد شهدنا عليك بهذه.

حكاية (١٦٤)

نظر الفرزدق إلى شيخ من أهل اليمن فقال: كأنه عجوز سبأ، فقال اليماني: عجوز سبأ خير من عجوز قريش. هذه قالت ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤].

وتلك حمالة الحطب.

حكاية (١٦٥)

استقبل عبد الملك أخاه عبد العزيز حين رجع من مصر على ألف جمل. قال له عبد الملك: وما عير أحق أن يقال لها أيتها العير إنكم لسارقون من هذه.

حكاية (١٦٦)

حدث أبو أحمد قال: أخبرني الجلود قال: حدثني محمد بن زكريا قال: حدثنا محمد بن عبد الله الحسمى عن المدائني قال: دخل عمرو بن العاص على معاوية وهو يتغدى، فقال له: هلم يا عمرو، قال: هنيئًا يا أمير المؤمنين أكلت آنفًا، فقال: أما علمت يا عمرو أن نزاهة المرء ألا يدع في بطنه مستزادًا لمستزيد، فقال: قد فعلت يا أمير المؤمنين قال: ويحك فلمن تقنيه؟ أهو لمن أوجب حقا من أمير المؤمنين وما أراك أولاً ضيعت حقًا لحق لعلك لا تدركه، فقال عمرو: ما لقيت منك يا معاوية، ثم دنا فأكل.

---

(١) مبارك التركي، مستحدث مدينة المبارك بقزوين. وفي مكة زقاق خشبة دار مبارك التركي، وانظر: أخبار مكة للفاكهي (١٢١/٤)، ومعجم البلدان (٧٩/٥).

حكاية (١٦٧)

قال قوم من الخوارج لمحمد بن الحنفية: لم غرر بك أبوك في الحروب ولم يغرر بالحسن والحسين عليهما السلام؟ قال: لأنهما عيناه وأنا يمينه فهو يدفع بيمينه عن عينيه.

حكاية (١٦٨)

سئل بعضهم عن حاله عند الوفاة فقال: ما حال من يريد سفرًا طويلاً بغير زاد ويقدم على ملك عادل بغير حُجة ويسكن قبرًا موحشًا بلا أنيس؟

حكاية (١٦٩)

قال: تفاخرت قريش عند معاوية والحسن بن علي عليهما السلام عنده لا ينطق، فقال معاوية: ما يمنعك من الكلام يا أبا محمد؟ فما أنت والله بكليل اللسان ولا مأشوب الحسب فقال: والله يا أمير المؤمنين. ما ذكروا مكرمة ولا فضيلة إلا ولي فحصها ولبابها ثم قال شعرًا:

فيما المراء وقد سبقت مبرزًا سبق الجياد على المدى المتنفس[(١)]

حكاية (١٧٠)

قال: أتى مروان على رجل أخذ على ابن أخ له فقال الرجل: كيف أوخذ على ابن أخي ولا علم لي بما صنع؟ فقال مروان: أرويت الشعر؟ قال: لا، قال: أو ما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجني عليك وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب

فقال الرجل: لكن الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ فقال مروان: صدق الله وكذب الشاعر، ثم خلى عنه[(٢)].

حكاية (١٧١)

قال رجل لعقيل بن أبي طالب، وكان عجيب الجواب: إن فيكم يا بني هاشم لجمالا، فقال: هو منا في الرجال ومنكم في النساء.

---

(١) انظر: المحاسن والأضداد للحافظ (ص ١١٠)، وروايته (المقوس) بدل (المتنفس).

(٢) انظر: جمهرة خطباء العرب (٢/٤٠٥)، والأغاني (١٣/٢٥٠)، ومجمع الأمثال للميداني (١/١٢٩٧)، والمستقصى في أمثال العرب (٢/٤٩).

حكاية (١٧٢)

وقال رجل من ولد أبي جهل لشريك: كان علي يقنت في الفجر، قال: نعم ويلعن فيها أباك.

حكاية (١٧٣)

قيل لأبي العتاهية الرياحي: كيف أصبحت؟ قال: على خلاف ما يحب الله. وخلاف ما يحب الشيطان. وخلاف ما أحب أنا. قيل له: كيف. قال: لأن الله يحب أن أطيعه ولا أعصيه ولست كذلك والشيطان يحب أن أعصى الله وأطيعه ولست كذلك. وأنا أحب أن لا أهرم ولا أفتقر ولا أموت ولست كذلك[1].

حكاية (١٧٤)

قيل: ذكر المبرد أن رجلاً جاء إلى عامل البصرة وكان هذا العامل قد ولاه المنصور الإجراء على القواعد من النساء اللواتي لا أزواج لهن وعلى العُميان والأيتام فقال له: أسألك أيها العامل أن تُثبتني مع القواعد، فقال له: أولئك نساء فكيف أثبتك فيهن؟ قال: ففي العُميان. قال: أما هذا فنعم لأن الله عز وجل قال: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ قال: وتفضل بإثبات ولدى بالأيتام، قال: ولك أيضًا فإنه من يكون أنت أباه فهو يتيم وانصرف وقد أثبت في العُمي وبنوه في الأيتام.

حكاية (١٧٥)

قيل لابن عمر: إن المختار يزعم أنه يُوحى إليه، قال: صدق، قال الله عز وجل ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾.

حكاية (١٧٦)

أرسل الحسن بن سهل إلى دينار بن عبد الله: ما دينك؟ فبعث إليه: وما ظننت أن حيًا يسأل عن هذه المسألة ولا ظننتها إلا لمنكر ونكير، ديني الإسلام وطاعة الأمير.

---

(١) انظر: مجاني الأدب (١/٧٦).

حكاية (١٧٧)

قيل: أرسل رجل لابن عتاب: أعلم فلانا بشكري، قال: قل حتى أسمع.

حكاية (١٧٨)

قيل: أمر النعمان بتقييد عدي بن زيد فلما قيد ضحك، فقيل له: أتضحك وأنت تقيد؟ قال: فأنا أبكي من يحله.

حكاية (١٧٩)

قيل: التقى رجلان قرشي وأنصاري، قال الأنصاري ممن أنت؟ قال: من قريش: قال: فإن قريشًا ثلاثة أصناف صنف آوينا وصنف نصرنا وصنف مننا عليهم وصنف قتلنا فمن أي صنف أنت؟

حكاية (١٨٠)

تكلم رجل في مجلس ابن عباس فخلط، فقال ابن عباس: بكلام مثلك رُزق الصمت المحبة.

حكاية (١٨١)

قال المتوكل لأبي العيناء ما أشد ما مر عليك في ذهاب بصرك؟ قال: فوت رؤيتك يا أمير المؤمنين مع إجماع الكافة على جمالك.

حكاية (١٨٢)

قيل: لما توجه خالد بن الوليد من الحجاز إلى أطراف العراق دخل عليه عبد المسيح بن عمرو بن نُفيله فقال له: إلى أين أقصى أثرك؟ فقال: ظهر أبي فقال: فمن أين خرجت؟ قال من بطن أمي، قال: على ما أنت؟ فقال على الأرض، قال: ففيم أنت؟ قال: في ثيابي، قال: فمن أين أقبلت؟ قال من خلفى، قال: وأين تريد؟ قال: أمامي، قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد، قال أتعقل؟ قال: نعم وأقيد، قال أحرب أنت أم سلم؟ قال: سلم قال. فما بالُ هذه الحصون؟ قال: بنيناها لسفيه حتى يجيء حليم ينهاه.

حكاية (١٨٣)

قيل: قدم إياس بن معاوية المزني شيخًا إلى قاضي دمشق وكان إياس يومئذ غلامًا أمرد، قال له القاضي: أما تستحي أن تقدم شيخًا كبيرًا؟ قال إياس: الحق أكبر منه، قال: ما أظنك يا غلام إلا ظالم، قال: ما على ظنك خرجت من أهلي، قال:

اسكت، قال: فمن ينطق بحجتي إذًا؟ قال: ما أظنك تقول في مجلسك هذا حقًا؟

قال: بلى أشهد أن لا إله إلا الله، فبلغ ذلك عبد الملك فعزل القاضي وولاه وهو يومئذ غلام أمرد.

حكاية (١٨٤)

قيل: وأتي بعدي بن أرطأة وهو يومئذ أمير البصرة وإياس بن معاوية قاضي البصرة يومئذ وكان عدي أعرابي الطبع، قال: يا هناه أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: فاسمع مني، قال للاستماع جلستُ، قال: إني تزوجت امرأة، قال بالرفاء والبنين، قال: وشرطتُ لأهلها أن لا أُخرجها من بينهم. قال: أوف لهم بالشرط. قال: أنا أريد الخروج. قال: في حفظ الله. قال: فاقض بيننا. قال: قد فعلتُ، قال: فعلى من قضيت؟ قال: على ابن أمك.

حكاية (١٨٥)

قال عبد الله بن طاهر لشيخ يضحك: يا فلان قد تعوج شدقك، قال: ذلك عقوبة من الله تعالى لكثرة ثنائي عليك بالباطل.

حكاية (١٨٦)

قيل: كتب رجل إلى صديق له يشكو زمانه فكتب إليه «اعلم أنه ليس من أحد أنصفه زمانه فبلغت به حال بحيث استحقاقه ولن تجد الناس إلا أحد رجلين رجل يقدم في نفسه أخره دهره ومتأخر في قومه قدمه عصره فارض بالحال التي أنت عليها وإن كانت دون أملك واستحقاقك اختيارًا وإلا رضيت اضطرارًا والسلام».

قيل: عُرض على بعض الخلفاء جارية سوداء وكانت ذات صورة حسنة فقال لها: ما اسمك؟ قالت: مكة، فقال: قد قرب الله الخطا دعيني أقبل الحجر الأسود، فقالت: وأين أنت من قوله تعالى: ﴿ لَمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ﴾ فاستحسن جوابها وسرعته وأمر بشرائها وحظيت عنده.

يحكى في سير الأكاسرة أن بعض ملوكهم مر بصبي يسوق حمارًا غير منبعث وهو يعنف عليه بالسوق فقال له كسرى يا غلام ارفق به فقال أيها الملك إن في الرفق به مضرة عليه وفي العنف إحسان إليه فقال وما بالرفق به من المضرة قال يطول تعبه ويشتد جوعه ويفزي عطشه فقال وما بالعنف به من الإحسان قال يخف حمله ويطول أكله ويقصر طريقه قال فأعجب الملك كلامه وقال قد أمرت بإثبات اسمك في حشمي

فقال له كفئت مئونة ورزقت بذلك معونة فقال وقد أمرت لك بألف درهم قال رزق مقدور وواهب مأجور قال لولا أنك حدث السن لاستوزرتك قال لن يعدم الفضل من رزق العدل. قال فهل تصلح لذلك قال إنما الحمد والذم بالتجربة ولا يعرف الإنسان نفسه حتى يبلوها فاستوزره فوجده صائبًا ذا رأي وفهم رحيب ومشورة تقع مواقع التوفيق.

تم الكتاب بحمد الله الملك الوهاب والصلاة على سيدنا محمد وآله أجمعين بيد الفقير إلى الله محمد علي بن الشيخ حماد بن الشيخ عبد الله البرعوني يوم الخميس الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٠٣٠ هـ.

فضل العطاء على العسر

لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري
المتوفى ٣٨٢هـ

تحقيق
أحمد فريد المزيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. كتب الشيخ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل الأديب إلى بعض الرؤساء:

«جعل الله السيد في حيز السلامة ومحلة الشكر، كما آتاه من الفضل، ما تدانى دونه شأو الوصف والذكر؛ ووفر الفواضل عليه، كما قيض الفضائل له؛ ولا أزال عن الكرام ظله، ولا أزل عن الشرف رحله، وأبقاه مذيلاً بالتمام مُطرزًا بالإكرام، ما رسا ثبير[1] واختلف ابنا سمير[2] إنه حميد مجيد فعال لما يريد».

الجود: أيد الله السيد، إذا كان عن يسار وجدة، وإثراء وسعة، واجب لا يسع الإخلالُ به، ولا يجمل التقصير فيه والمشاهد أن المرء إذا أمسك مع الكثرة، وبخل مع الثروة، تناوله اللوم من كل وجه، وانتزع إليه الذم من كل جانب، فهو المدفوع إلى السماحة، والمحمول على الإنالة؛ ليبعد من اللوم، وينزه عن الذم. وليس يدُل بذله وإن جزل، وبره وإن كمل على كرم أصليّ، وسماح عُنصُري، كما يدل عليه جُهد المُقل، ومواساة المخل[3] ومن لم يعط من اليسير، لم يعط من الكثير، وقد قلت:

من لم يواسك في قليل　　　لم يواسك في كثير

والحق يلزم في الكثير وليس يسقُط في اليسير.

وقال الأول:

ليس من فضل مال　　　إنما الجود للمُقل المواسي

والعرب تقول: «أعط أخاك من عقنقل الضب» (وعقنقل الضب مُصرانه[4]. أي أنك إن لم تملك إلا معى ضب فلا تبخل به على أخيك، واجعل له منه قسما، وصير له فيه سهمًا). ويقولون: «أخوك من آساك»، وقال رسول الله ﷺ «**اتقوا النار ولو بشق**

---

(١) ثبير: جبل من أعظم الجبال، يقع في الطريق بين مكة وبين جبل عرفة.

(٢) ابنا سمير: يقال: سمير الدهر وأبناؤه: الليل والنهار، وهذان مثلان يدلان على الدوام والثبوت.

(٣) يعني المحتاج الفقير، يقال: أُخل به بالبناء للمجهول: أي صار ذا خلة وفقر وحاجة.

(٤) أي أمعائه.

تمرة»[1].

وأخبرنا أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد، عن الجوهري، عن المنقري، عن الأصمعي، عن بعض العباسيين، قال: كتب كلثومُ بنُ عمرو إلى رجل في حاجة.

بسم الله الرحمن الرحيم، أطال الله بقاءك، وجعله يمتد بك إلى رضوانه وجنته، أما بعد، فإنك كنت روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها وتستريح القلوب إليها؛ وكنا نُعفيها من النجعة[2] استنماما لزهرتها، وشفقة على نضرتها، وادخارًا لثمرتها؛ حتى مرت بنا في سفرتنا هذه سنة كانت قطعة من سني يوسف – عليه السلام – : اشتد علينا كلبها، وأخلفتنا غيومها، وكذبتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها. فانتجعتك، وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك، مع علمي بأنك نعم موضع الرائد. واعلم أن الكريم إذا استحى من إعطاء القليل ولم يحضره الكثير، لم يعرف جوده ولم تظهر نعمته وأنا أقول في ذلك[3]:

ظـل اليسـار علـى العباس ممدود ... وقلـبه أبـدًا بالـبخل معقـود

إن الكـريم ليُخفـي عـنك عسـرته ... حـتى تـراه غنـيًا وهـو مجهـود

وللبخـيل علـى أمـواله علـل ... زرق العـيون علـيها أوجـه سـود

إذا تكـرهت أن تعطـي القلـيل ولم ... تـدر علـى سـعة لم يظهـر الجـود

بـث الـنوال، ولا تمـنعك قلـته، ... فكـل مـا سـد فقـرًا فهـو محمود

لأبي هلال العسكري، قال: فشاطره ماله حتى بعث إليه بقيمة نصف خاتمه وفرد نعله.

وما مدحت العرب ولا تمدحت بمثل الإعطاء على العسر والمواساة على القلة. وذلك أن أكثرهم كان في شدة وإضاقة، فلو جعلوا ذلك حجة وقبضوا أيديهم عن صلة

---

(١) رواه البخاري (١٤١٧)، (٦٠٢٣)، ومسلم (١٤٢/٧)، (١٠١٦).

(٢) يعني: طلب الكلأ في مساقط الغيث.

(٣) روى هذه الأبيات الخطيب في تاريخ بغداد (٤٩١/١٢)، وأوردها أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني (٤٦/٣)، وعزاها لبشار بن برد، وفيها ابن عبد ربه في العقد الفريد (١١٧/١) لحماد بن عجرد، وقال الأستاذ محمود شاكر رحمه الله: ولعل الصواب أنها للعتابي كلثوم بن عمرو.

الغريب وبر البعيد، لارتفعت العوارف[1] مما بينهم، وغاض الجود فيهم.

وأنشد عبد الملك بن مروان قول عروة بن الورد:

أتهزأ مني أن سمنت، وأن ترى بجسمي جهد الحق، والحق جاهد

وأني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد[2]

أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسوا قراح الماء والماء بارد[3]

فقال: ما كنت أشتهي أن يلدني أحد من العرب إلا هذا.

وقد أحسن عتيبة بن بجير الحارثي، من بني الحارث بن كعب، في قوله:

ومستنبح بات الصدى يستتيهه إلى كل صوت فهو في الرحل جانح[4]

فقلتُ لأهلي: ما بغام مطية؟ وسار أضافته الكلاب النوابح[5]

فقالوا: غريب طارق طوحت به متون الفيافي والخطوب الطوائح

فقمت، ولم أكشم مكاني، ولم تقم مع النفس علات النفوس الشحائح

وناديت شبلا[6] فاستجاب، وربما ضمنا قرى عشر لمن لا نصافح

فقام أبو ضيف كريم، كأنه وقد جد من فرط الفكاهة مازح

إلى جذم مال قد نهكنا سوامه وأعراضنا فيه بواق صحائح

---

(١) يعني: صنائع الجود.

(٢) العافي: القاصد، الطالب.

(٣) انظر: الكامل في الأدب (٣٦/١) والعقد الفريد (١١٨/١)، وأمالي القالي (٢٠٤/٢).

(٤) قال الشيخ الأستاذ الكبير محمود شاكر رحمه الله: من عادة العرب أن ينبح طارق الليل نباح الكلاب لعل كلبنا يسمعه فيجيبه، وفاعل ذلك هو المستنبح الذي يطلب نباحة كالكلب أن يسمع نباحًا، ويستتيهه، استفعل من (تاه) ويريد بذلك أن صدى صوته قد جعله حيران لا يدري أيسمع نباحًا أم يسمع صدى فلذلك بقي جانحًا في رحله لا يغادره خشية الضلال من الهلكة.

(٥) البغام: صوت الناقة الخفي حين تحف.

(٦) يعني: ولده شبلاً.

جعلناه دون الذم، حتى كأنه إذا عُد مال المكثرين - منائحُ
لنا حمد أرباب المئين، وما يُرى إلى بيتنا مال مع الليل رائح

وأخذ هذا المعنى إسحاق بن إبراهيم الموصلي فقال:

عطائي، عطاء المكثرين تكرمًا ومالي كما قد تعلمين قليل

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الحسن بن يحيى قال سمعت إسحاق يقول: أنشدت الرشيد شعرًا فلما بلغتُ إلى قولي:

وكيف أخاف الفقر، أو أحرم الغنى ورأي أمير المؤمنين جميل؟

قال: لا، كيف: لله در أبيات تجيء بها ما أحكم أصولها وأحسن فصولها، وأقل فضولها. قلت: هذا الكلام، والله أحسنُ من شعري.

والأبياتُ هي هذه:

وآمرة بالبخل قلتُ لها: اقصري، فذلك أمر ما إليه سبيلُ
أرى الناس خُلان الجواد، ولا أرى بخيلاً لهُ في العالمين خليلُ
وإني رأيت البخل يزري بأهله فأكرمت نفسي أن يقال: بخيلُ
ومن خير حالات الفتى لو علمته إذا نال شيئًا أن يكون ينيلُ
عطائي عطاء المكثرين تكرمًا ومالي كما قد تعلمين قليلُ
وكيف أخافُ الفقر، أو أحرمُ الغنى ورأيُ أمير المؤمنين جميلُ؟

ومن عجيب ما يروى في هذا الباب أن الفرزدق دخل على يزيد بن المهلب وهو يُعذب في سجن الحجاج فأنشده:

أبا خالد! ضاعت خراسان بعدكم؛ وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ؟
فلا قطرت بالمرو بعدك قطرة، ولا اخضر بالمروين بعدك عود[1]
فما لعزيز بعد عزك بهجة وما لجواد بعد جودك جود

---

(١) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١/٣٥١).

وكان يزيد قد أعد مالا يُصانع به الحجاج ليقصر من تعذيبه، فقال لغلمانه: ادفعوا إليه المال ودعوا لحمي للحجاج يقطعه كيف يريد[١].

وأعجب من هذا أن عمر بن عبيد الله بن معمر مر بزنجي يأكل عند حائط وبين يديه كلب، إذا أكل لقمة طرح له لقمة.

فقال له: أهذا الكلب كلبك؟ قال: لا، قال: فلم تطعمه مثل ما تأكل؟ قال: إني أستحي من ذي عينين ينظر إليّ، أن أستبد بمأكول دونه. قال: أحرُ أنت أم عبد؟ قال: عبد لبعض بني عاصم، فأتى عُمرُ ناديهم فاشتراه واشترى الحائط، ثم جاءه فقال: أشعرت أن الله قد أعتقك؟ قال: الحمد لله وحده، ولمن أعتقني بعده. قال: وهذا الحائط لك، قال: أشهدك أنه وقف على فقراء المدينة. قال: ويحك! تفعل هذا مع حاجتك؟ قال: إني أستحي من الله أن يجود لي بشيء فأبخل به عليه.

والعرب تقول: «أتاك ريان بلبنه»[٢] معناه يعطي لغير كرم، ولكن لكثرة ما عنده.

ونحوه، وإن لم يكن منه قول إبراهيم بن العباس (شعرًا):

لا تمدحن ابن سهل إن وجدت له ... فعلا جميلا، ولا تعذل إذا أزما[٣]

فليس يمنع إبقاء على نشب ... وليس يعطي الذي يُعطيه معتزما

لكنها خطرات من وساوسه ... يعطي ويمنع: لا بُخلا، ولا كرما

وقال أشجع السلمي يمدح يحيي بن جعفر البرمكي بإعطاء الكثير على الإقلال:

يروم الملوك مدى جعفر ... ولا يصنعون كما يصنع

وكيف ينالون غاياته ... وهم يجمعون ولا يجمع

وليس بأوسعهم في الغنى ... ولكن معروفه أوسع

وليس للمعطي أن يمنع القليل استحياء من قلته، لأن المنع أقل منه ولا للمعطي

---

(١) انظره في: المستطرف في كل فن مستظرف (١/٣٥٤).

(٢) انظر: مجمع الأمثال (١/٤٢)، وجمهرة الأمثال (١/٩، ٧٢)، والمستقصي في أمثال العرب (١/ ٣٧).

(٣) يعني: أمسك وبخل.

أن يتسخطه، فرُب قليل سد خلة كبيرة، وجبر فاقة عظيمة، وربما يبلغ به إلى كثير. ولولا ذلك لم يكن للوصول إليه سبيل.

وكتب ابنُ المعتز «لا تستقل شيئًا من زيادة الله إياك، فتُنفر نفيسها عنك. وقليل تترقى منه إلى كثير، خير من كثير تنحط به إلى قليل».

وقال ابن الرومي، أنشدناه أبو أحمد، عن ابن المسيب، عنه:

رأيت المطل ميدانًا طويلاً … يروضُ طباعهُ فيه البخيل
فما هذا المطالُ؟ فدتك نفسي … وباعُك بالندى باع طويل
أظنك حين تقدر لي نوالاً … يقل لديك لي منه الجزيل
ويعوزك الذي ترضى لمثلي، … وإن لم يعوز الرأي الجميل
وفيما بين مطلك واختلالي … يموت بدائه الرجل الهزيل
فلا تقدر بقدرك لي نوالاً … ولا قدري فتحقر ما تُنيل
وأطلق ما تَهم به عساه … كفافي أيها الرجلُ النبيل
وإلا فالسلام عليك مني … نبت دار فأسرع بي رحيل
إذا ضاقت على أمل بلاد … فما سُدت على عزم سبيل(١)

وتقول العرب: «**إن الرثيئة تفثأ الغضب**» يجعلونه مثلاً لحسن موقع المعروف وإن كان قليلاً، وأصله أن رجلاً غضب على قوم فأتاهم ليوقع بهم، فسقوه رثيئة فسكن غضبه فكف عنهم. والرثيئة لبن حامض يصب عليه حليب.

وأخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن زكريا، عن الأصمعي قال: ذكر أعرابي رجلاً فقال: ما رأيت رجلاً أعشق للمعروف منه، ولا رأيت الرزق أبغض أحدًا بُغضه.

ومما يجري مع هذا ما أخبرنا به أبو أحمد عن الجلودي، عن أحمد بن الفضل، عن عبد الوهاب، عن إبراهيم بن عبد الأعلى، عن الحسين بن فهم، عن عمه قال: اشتهى صديق لي فروجًا أطبخه له؛ فأكلت الجارية اللحم كله إلا لحم الصدر، ونحن لا نعلم، فكتبت إليه:

---

(١) انظر: جمهرة الأمثال (١/٤٧٨).

طبخنا لك فروجًا فطاف الأهل بالقدر
ولم نقدر على المنع لقبح المنع في الذكر
فآثرناك بالصدر لأن الصدر للصدر

وهذا مثل ما تقدم من قولنا: «إن إعطاء القليل خير من المنع لأن المنع أقل منه».

ومثل ذلك: أن رجلاً اتخذ دعوة فجاءته الهدايا من كل وجه. وكان من أصدقائه رجل مملق فوجه إليه بجراب أشنان وجراب ملح وكتب إليه: «لو تمت الإرادة بحسب النية، وملكتني القدرة ببسط الجدة، لبدرت السابقين إلى بِرِّك، ولكنت إمام المتقدمين في إكرامك. لكن البضاعة قعدت عن الهمة، وقصرت عن مساواة أهل الثروة.وكرهت أن تطوي صحيفة ولا يكون لي فيها ذكر؛ فوجهت بالمبتدأ به لطيبه ويُمنه. وبالمختوم به لطهارته ونظافته، مصطبرًا على ألم التقصير فأما ما ينوى فالمعبر عني به كتاب الله عز وجل: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٩١].

وشبيه بهذا الخبر ما ذكره جعفر بن قدامة، عن منّة[١] البرمكية قالت: كانت لأم علي بنت الرايس جارية مغنية يقال لها مكر، وكانت من أحسن الناس وجهًا وغناء، وكان لها رُفقاء من الكتاب ووجوه التجار، وكان أبو يحيى الكنخي يعاشرها فافتصدت يومًا فأهدى لها رفقاؤها صنوف الهدايا، وبعث إليها أبو يحيى بثلاث سلال مختومة، فإذا سلة فيها ماش ومعه رقعة فيها: «الماش خير من لاش»[٢]، وفي الأخرى عصافير بأجنحتها، فلما فُتحت طارت؛ ومعها رقعة فيها «يا سيدتي أعتقتُ عنك هؤلاء المساكين، ولو كان بدلها عبيدًا لأعتقتهم» وفتحت الأخرى فإذا هي فارغة، وفيها رقعة مكتوب فيها: «يا مولاتي لو كان عندي شيء لبعثت إليك بشيء، ولكن ليس عندي شيء فلم أبعث إليك بشيء، فضحكوا وبعثوا إليه بنصيب وافر من كل ما أُهدي إليها» فكتبت إليه أم علي: «أعطى الله عهدًا إن لم تكن هديتُك أملح من كل هدية وردت علينا».

وكان أعرابي يأتي ابن عائشة في كل سنة فيصله بعشرة دنانير، فجاء ذات مرة فأخبر

---

(١) هي جارية مغنية مقتدرة كانت للبرامكة. وانظر الأغاني (٣٣٢/٤).

(٢) الماش: قماش البيت.

بأنه مُضيق عليه ومدين فمثل بين يديه وقال: قد أخبروني بُعذرك وبما عليك من الدين، ووالله ما قصدتك إلا وأنا على غاية الإضافة،وأنت تُعطى وأنا لا أُعطى، ثم قال:

وقـــد خُـــبرت أن علـــيك ديـــنًا فـــزد في رقـــم ديـــنك واقـــض ديني

فضحك ابن عائشة وقال له خذ هذه السجة، وهي من الخشب كانت في داره، فأخذها الأعرابي وباعها بثمانية دنانير، فالصلة بالقليل ربما تقع موقعها بالجزيل، وللرد مصيبة حلت بالسائل والمسئول.

قال رجل: كنت أمشي مع سفيان بن عيينة إذ أتاه سائل فسأله، فلم يكن معه ما يعطيه، فبكى، فقلت: يا أبا محمد: ما الذي أبكاك؟ قال: أي مصيبة أعظم من أن يأمل فيك رجل خيرًا فلا يصيبه! ونحوه قول الشاعر:

ألـــيس كـــبيرًا أن تُلـــم ملمـــة، ولـــيس علينـــا في الحقـــوق مُعـــول

وقال آخر:

يـــرى المـــرء أحـــيانًا، إذا قـــل مالـــه مـــن الخـــير أبـــوابًا فـــلا يســـتطيعها

ومـــا إن بـــه بُخـــل، ولكـــن مالـــهُ يقصـــر عـــنها، والغـــني يُضـــيعها

وما ساد أحد قط، ولا سار ذكره بشيء كإيثاره على نفسه. وقد مدح الله تعالى الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

وما ذُكر حاتم وكعب بن مامة الإيادي إلا بإيثارهما على أنفسهما. وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر، عن أبي حاتم، عن أبي عبيدة قال: أجواد العرب ثلاثة: حاتم بن عبد الله الطائي، وكعب بن مامة الإيادي، وكلاهما آثر على نفسه وضُرب بهما المثل، والجواد هرم بن سنان المري الذي يقول فيه زهير[١]:

إن البخيل ملوم حيث كان، ولـــ كـــن الجـــواد علـــى علاتـــه هـــرم

هـــو الجـــواد الـــذي يعطـــيك نائلـــه عفـــوًا، ويظلـــم أحـــيانًا فـــيظلم

وكان مما آثر به حاتم على نفسه، أنه خرج في الشهر الحرام يطلب حاجة، فلما

---

(١) انظر: خزانة الأدب (١/٣٢٩)، ومجمع الأمثال (١/٣٢٩)، (١/١٨٨)، وجمهر الأمثال (١/ ٣٣٨)،و المستقصي في أمثال العرب (١/٥٦).

كان بأرض عنزة ناداه أسير لهم: يا أبا سفانة! أكلني الإسار والقملُ ... قال: ويلك، والله ما أنا ببلاد قومي، وقد نوهت باسمي، ومالك مترك، فساوم العنزيين فاشتراه وخلاه، وأقام في قده حتى أتى بفدائه.

فقال الفرزدق حين صافن عاصمًا العنبري:

فلما تصافنا الإداوة أجهشت ... إلى غضون العنبري الجراضم[(١)]

على ساعة لو أن في القوم حاتمًا ... على جوده ضنت به نفس حاتم

وصحب كعب رجلاً من النمر بن قاسط في شهر ناجر[(٢)] فتصافنا ماءهما، فجعل النمري يشرب نصيبه. فإذا أصاب كعبًا نصيبه قال: اسق أخاك النمري، فيؤثره على نفسه ويسقيه، حتى أضر به العطش، وأسرع السير حتى رفع له أعلام الماء وقد غلبه العطش فقيل له: رد كعب فلم يقدر على الورود فمات. فقال رجل من إياد يبكيه[(٣)]:

ما كان من سوقة أسقى على ظمأ ... خمرًا بماء إذا ناجودها بردا

من ابن مامة كعب ثم عي به ... زو المنية إلا حرة وقدى

ومما جاء في مدح القليل ما أنشدناه أبو أحمد، عن أبي بكر:

وإن قليلاً يستر الوجه أن يُرى ... إلى الناس مبذولا، لغيرُ قليل

وقال زهير[(٤)]:

على مكثريهم حقٌ من يعتريهم، ... وعند المقلين السماحة والبذل

فلم يخل فقيرًا منهم ولا غنيًا من بذل، وقريب من هذا المعنى ما أنشدناه أبو القاسم، عن العقدي عن أبي جعفر، عن ابن الأعرابي:

---

(١) الجراضم: الأكول الضخم، والأبيات من قصيدة في هجاء العنبري المضل، وهي في ديوانه (٤٠٥).

(٢) أي أشد فصل الصيف حرًا.

(٣) انظر: مجمع الأمثال (١/١٨٤)، وجمهرة الأمثال (١/٩٥)، والمستقصى في أمثال العرب (١/ ٥٤).

(٤) انظر: جمهرة خطب العرب (٣/١٧٦)، ونفح الطيب (٣/٣٣٦).

ولا عـزنا يغـدو علـى ظلـم غيرنا ... ولـيس علينـا للظلامـة مـذهب
نـريح تـلاد الحلـم وسـط بيوتـنا ... إذا حلـم أقـوام مـن الـناس يعزب
ولا ألطـم ابـن العـم إن كان إخوتي ... شـهودًا، وإخـوان ابـن عمـي غيبُ
علـى سـفر، أو صـادفتهم منـية ... فأوحـد مـنهم ظهـره حين يغضب(١)
علـى كـل حـال قـد قلتني عشيرتي ... علـى الفقـر مـني، والغنى حين أترب
غنـيتُ فلـم أبخـل علـى مُقتريهم ... بشـيء،ولم أكـدُدهمُ حـين أنكـبُ
يعـيشُ الفـتى بالفقـر يومًا، وبالغنى، ... وكـل كـأن لم يلقـهُ حـين يـذهبُ

وهذا مأخوذ من قول أبي كبير:

فـإذا وذلـك لـيس إلا حيـنه ... وإذا مضـى شـيء كـأن لم يُفعـل

وأخذه آخر(٢) فقال:

كـأن الفـتى لم يعـر يومًا إذا اكتسى ... ولم يـك صُـعْلوكا إذا مـا تمـولا
ولم يـك في بُـؤس إذا بـات لـيلة ... يُناغـي غـزالا فاتـر الطـرف أكحلا

وإذا رضي منك بالقليل فلم يوجد عندك، كان الذم بك أليق، واللؤم بك أعلق، وطريق عُذرك أضيق. وقال آخر:

ولـيس يـتم الحلـم للمـرء راضيًا ... إذا كـان عـند السـخط لا يتحلم
كمـا لا يـتم الجـودُ للمرء مُوسرًا ... إذا كـان عـند العُسـر لا يتكـرم

وسأل ابن الرومي رجلاً قفيزين من حنطة فمنعه، فقال:

سـألت قفيـزين مـن حـنطة ... فجـدت بكـر مـن المـنع واف(٣)

---

(١) أوحد منهم ظهره: أي بقي منفردًا لا ظهر له، يقال في الدعاء: «أوحد الله جانبه» أي أبقاه وحيدًا لأعدائه.

(٢) هو جابر ثعلب الطائي كما في الحماسة.

(٣) القفيز: مكيال تواضح الناس عليه قديمًا، والكُر: ستون قفيزًا، وقال ابن سيدة: يكون بالمكيال
=

كـــأني ســـألتك حـــب القلـــو ب: ذاك الذي من وراء الشفاف[١]

وقال أوس بن حجر:

مـــنعت قلـــيلا نفعـــه، وحـــرمتني يســـيرًا فهـــبها بـــيعة لا تقالهـــا

وأنشدنا أبو أحمد وغيره لبعضهم، يمدح رجلاً بقلة المال وكثرة النيل:

لـــه نـــار تُشـــب بكـــل أرض إذا الـــنيران جُللـــت القـــناعا[٢]

ومـــا إن كـــان أكثـــرهم ســـوامًا، ولكـــن كـــان أرحـــبهم ذِراعـــا

وقال أشجع:

ولـــيس بأوســـعهم في الغـــنى ولكـــن معـــروفه أوســـع

وقال آخر[٣]:

ومـــا الجـــود عن فقر الرجال ولا الغنى، ولكـــنه خـــيمُ الـــرجال وخيرهـــا

فنفســـك أكـــرم عـــن أمـــور كـــثيرة فمـــا لـــك نفـــس بعـــدها تســـتعيرها

وقـــد تخـــدع الدنـــيا، فيُمســـي غنيها فقـــيرًا، ويغـــنى بعـــد بـــؤس فقيرهـــا

وكـــم طامـــع في حاجـــة لا يـــنالها وكـــم آيـــس مـــنها أتـــاهُ بشـــيرُها

اعلم أدام الله عزك أن اليسير تعطيه عفوًا، وتبذله صفوًا من غير مطل يُغيض ماءه، ويكدرُ هواءه، يقوم مقام الكثير وينُوب مناب الجزيل؛ لأن المنع خير من المطل، ويسير النيل خير من المنع، على ما قدمناه قبل، وقد قال ابن الرومي:

مـــن الحـــيف تطفـــيف النوال ومطلةُ فعجـــل خسيسًـــا، أو فأجـــل موفـــرا

فكـــن نخلـــة تلـــوي وتُســـني عطاءها وإلا فكـــن عفصـــا أقـــل وأيســـرا

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن القاسم بن إسماعيل عن العطوي، عن يحيي

=

المصري أربعين إردبًا.

(١) الشفاف: غشاء القلب.

(٢) أي ستر ضوءها مخافة أن يراها طارق فيحضرها.

(٣) القائل: هو الحسين بن مطير الأسدي.

ابن أكثم قال: دخلت على المأمون وبين يديه طعام في طبق فدعا بي إليه، وكان لحمًا باردًا قليلاً، فخاف أن أستقله فقال من الشعر له:

اعرض طعامك وابذله لمن دخلا واحلف على من أبي واشكر لمن أكلا

ولا تكن سابري العرض مُحتشما من القليل، فلست الدهر مُحتفلا

وفي الحديث «**خير الصدقة جهد المقل إلى فقير في السر**».

وقد علمت، أدام الله عزك، أن الوصف بكرم النفس، وسعة الصدر، وسماحة الكف؛ من أنفس ما يُراد، وأجل ما يُرتاد. ومن رزقه بإنالة قليل لا يجحف به. فقد أوتي الحظ الجسيم، وسيق إليه المتجر الربيح. والشكر القليل ثمنُ النوال الجزيل، فإذا رُزقت كثير الشكر على قليل النيل، فاعلم بأنك مسعود.

وأنشد أبو تمام في قريب من هذا المعنى(١):

ومُستنبح قال الصدى مثل قوله، حضأتُ له نارًا لها حطب جزلُ

(حضأت النار فحضأت أي ألهبتها فالتهبت، وقال ابن دريد حضوتُ بغير همز بمعنى حضأت، وقال غيره ويقال حضي الرجل يحضي إذا حرص وشره).

وقمتُ إليه مُسرعًا فغنمته، مخافة قوم أن يفوزوا به قبل

فأوسعني حمدًا، وأوسعته قرى وأرخص بحمد كان كاسبه الأكلُ

وأخبرنا أبو أحمد، عن ابن دريد، عن أبي معاذ خلف بن أحمد المؤدب، عن المازني، عن أبي عبيدة قال: كان بالبصرة رجل من موالي بني سعد يقال له: نبيت، وكان صاحب صلاة بالليل، وكان الأعراب ينزلون عليه: فنزل عليه قوم ولم يُعشهم وقام يُصلي إلى الصباح، فقال رجل منهم:

لخبز نبيت وعليه لحم أحب إليّ من صوت القَرآن

تبيتُ تُدهده القرآن حولي كأنك عند رأسي عقربان

فذكر أن للطعام مكانًا على قلته، ونزارة قيمته، وليس السخاء بالكثير بأحمد من السخاء بالقليل إذا وافق الحاجة وقد قيل: «**خير السخاء ما وافق الحاجة**»(٢)، ولم

---

(١) انظر جمهرة الأمثال (١٩٢/٢).

(٢) انظر: مجمع الأمثال (١٨٣/٢)، وجمهرة الأمثال (٣٦٥/١، ٤٩٥)، وجمهرة خطب العرب (١٣٤/١).

يشترط فيه الكثرة والقلة، وقيل:

وأغبط من ليلي بما لا أنالهُ، وقلة ما قرت به العينُ صالحَ

وأخبرنا أبو القاسم بن شيران، عن عبد الرحمن بن جعفر، عن الغلابي، عن عيسى بن يزيد، عن موسى بن عقبة، عن مقسم مولى ابن عباس. (ح) وعن الغلابي عن مُطرف عن ابن دارة. (ح) وعن الغلابي عن عبد الله بن الضحاك، عن هشام بن معاوية والهيثم بن عدي: عن الحسن قالوا: وفد عبيد الله بن العباس على معاوية؛ فلما كان ببعض الطريق أصابتهُ السماء فأم أبياتًا من الشعر؛ وإذا أعرابي قد قام إليه فلما رأى هيئته وبهاءه، وكان من أحسن الناس شارة وأحسنهم هيئة، قال الأعرابي لامرأته: إن كان هذا من قريش فهو من بني هاشم، وإن كان من اليمن فهو من بني آكل المرار[1]. فأنزله، وذلك في الليل، فقام الأعرابي إلى عُنيزة له يذبحها فجاذبته امرأته وقالت: أكل الدهر مالك وشربه، ولم يبق لك ولبناتك إلا هذه العنيزة نضع درة كمخة عرقوب، ثم تريد أن تفجعهن بها؟ قال: والله لأذبحنها. فقال: والله، إذ لا يتركك بناتُك، قال: والله؛ للموت خير من اللؤم ... [ثم] قال: وعبيد الله يسمع:

قرينتي لا توقظي بُنيه إن توقظيها تنتحب عليه[2]

وتنزع الشفرة من يديه أبغض بهذا وبها إليه

ثم ذبح الشاة وأضرم النار، وجعل يقطع من أطايبها ويلقيه على النار، ثم قربه إلى عبيد الله بن العباس ومن معه، فجعل عبيد الله يأكل ويحدثه في خلال ذلك بما يُلهيه ويضحكُه، حتى إذا أصبح وانجلت السحابة وهمَّ بالرحيل قال لمقسم: كم معك من نفقتك؟ قال: خمسمائة دينار، قال: ألقها إلى الشيخ، قال: ما تُريد إلا أن تسأل الناس في طريقك: إن هذا يرضيه عشر ما سيمت. وتأتي معاوية ولا تدري علام توافقه؟ قال: ويحك، إنا نزلنا على هذا وما يملك إلا هذه الشاة، فخرج لنا من دُنياه كلها، ونحن نُعطيه بعض ما نملكه فهو أجودُ منا، قال: فألقاها إليه وارتحل، فأتى معاوية فقضى حوائجه، فلما انصرف قال لمقسم: انظر ما حال صاحبنا. فعدل إليه

(١) هو حُجر جد امرئ القيس، وبنو أكل المرار سادة اليمن وملوكها.

(٢) أي تشتد في مقاومته ومناقرته.

فإذا إبل وشاء وحال حسنة؛ فلما بصُر الأعرابي بعبيد الله أكب على أطرافه يقبلها ثم قال: بأبي أنت وأمي، قد مدحتك ولا أدري والله من أي خلق الله أنت. وأنشده:

توسمته لما رأيتُ مهابة … عليه، وقلتُ المرء من آل هاشم

وإلا؛ فمن آل المرار فإنهم … ملوك، وأبناء الملوك الأكارم

(قال الشيخ أبو هلال: ثم ذكر أبياتًا رديئة اللفظ والوصف أظنها من عمل ابن دأب، فإنه كان عمولا لأمثالها فيما يرويه من الأحاديث) فقال عبيد الله: أصبت؛ أنا من ولد هاشم؛ وقد ولدني آكل المرار[1]، فبلغ معاوية ذلك فقال: لله در عبيد الله من أي بيضة خرج، وفي أي عُش درج، هذه والله من فعال عبيد الله مُعلم الجود، وهو والله كما قال الحطيئة[2]:

أولئك قوم، إن بنوا أحسنُوا البناء … وإن عاهدوا أوفوا، وإن عقدوا شدوا

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها … وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا

وقال بعض الحكماء: «ذلل أخلاقك للمحاسن، وقدها للمحامد وعلمها المكارم، وعودها الجميل والإيثار على النفس فيما تحمد غبه ولا تُداق الناس وزنًا بوزن وتكرم بالغنى عن الاستقصاء وعظم قدرك بالتغافل عن دنيء الأمور، وأمسك رمق الضعيف بالمعونة، وصل من رغب إليك بجاهك، وإن عجزت عما رجاه عندك، ولا تكن بحاثًا عمن غاب عنك فيكثر عناؤك، وتحفظ من الكذب فإنه أسقطُ الأخلاق للأقدار، وهو نوع من الفحش، وضرب من الدناءة، وأصله من استعداد المتمني، وهو أضغاث فكر الحمقى، فإذا استحكم في الضمير بتسويل النفس الضعيفة جاشت، فغلى على اللسان، كما يفورُ الماء في الإناء إذا احتدمت تحته النار. واعلم أنه أغلب شيء على صاحبه، وأشده تمكنًا منه، وأحرى أن لا يُنزع منهُ بحيلة، وذلك لضروراته وطول صحبة العادة له». وقيل لبعض الحكماء: ما الشح؟ قال: أن ترى إعطاء القليل سرفا، والإنفاق في الحق تلفا.

ومما يرغب في الإحسان قول بعض الحكماء لأصحابه: اعلموا أن كل يوم يمر بكم

---

(١) لأن أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية.

(٢) انظر: نفح الطيب (٤/٥٤٥)، والأغاني (٢/١٩١).

يحمل ما يُثبت فيه من حسن وقبيح، ثم يمضي فلا يعود؛ فإن قدرتم أن تخُطوا في كل يوم مكرمة. وتثبتوا فيه حسنة تبتهجوا بذكره ولو بعد حين، فلا تؤخروا ذلك فتغبنوا حظكم من يومكم، فإن الأيام صحائف، فخلدوا فيها الجميل؛ وقد رأيتم حفظها لما استودعت من المحامد وأفعال الكرام في قديم الدهر وأول الزمان، ثم لم يدرس[1] ذلك مع ذهاب القرون، ولا ينسى على حال؛ وما حوت من العار لا يمحوه الآخر عن الأول.

وقال بعض الحكماء: بإجالة الفكر يُستدرك الرأي المصيب، وبحسن التأني تسهُل المطالب وبلين كنف المعاشرة تدوم المودة، وبخفض الجانب تأنس النفوس؛ وبسعة خلق المرء يطيب عيشه، وبكثرة الصمت تكون الهيبة، وبعدل المنطق تجب الجلالة؛ وبالنصفة يكثر الواصلون، وبالإفضال تعظم الأقدار، وبالتواضع تتم النعمة، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال، وباحتمال المؤن يجب السؤدد، وبالسيرة العادلة يقهر المناوئ، وبالحلم عن السفيه تكثر أنصارُك عليه، وبالرفق والتودد تستفيد محبة القلوب وبحسن اللقاء يألفك الثناء الجميل، وبإيثارك على نفسك تستحق اسم الكرم، وبالصدق والوفاء تكون للناس رضي، وبنفي العُجب تأمن مقت أولي الألباب، وبترك ما لا يعنيك من الأمر يتم لك الفضل، ومن رضي للناس بالمسامحة دام استمتاعه بهم.

ومما يجري مع ذلك، وإن لم يكن منه، قول بعض الحكماء: ما أخلق الأعراض، ولا أذل الأقدار مثل نيل ممتن به، واستطالة منعم بفضله. ولفقدُ السعة مع تزهد النفس أغنى من امتهان عرضك لمن يستكثر قليل نيله لك، ويستقل ما بذلت له من شكرك.

ونحوه: كافئ المعروف وإن جل، واشكره وإن قل وإذا أصابتك شدة فاذكر أن ما بعدها أشد منها وأفظع، فإن ذلك يهون عليك شدة بلائها، ويتحمل عنك ثقل أعبائها.

قال الشيخ أبو هلال: وقد علمنا أن المرء وإن ملك الدنيا بحذافيرها لم ينتفع منها إلا بقدر الحاجة، ولا وجه لتسخطه القليل وهو حظه، وتطلعه إلى الكثير وهو فضل.

فمن جيد ما روي في فضل الإعطاء على العُسر: أن رجلا دخل على المنصور فقربه ثم أمر بإعطائه عشرة آلاف درهم، فُحملت معه. وخطا خطوات مُنصرفًا فرده وأمر له بمثلها، فقبضها، وخطا خُطوات مُوليًا فرده وأمر له بمثل هذا أيضًا؛ فلما انصرف قال: لقد أراني وأنا هارب من بني أمية، وقد نادى مناديهم ببراءة الذمة ممن وُجد منا في

(١) يعني: لم يبل، ولم يذهب.

بلادهم، فأردت الخروج من الكوفة في الهاجرة فدفعت إلى هذا الرجل وهو يحذو النعال فقال لي: لعلك من هذه الفرقة المهجورة؟ قلت: نعم، فدفع إليّ شق درهم كان معه، ولما وليت ردني وأعطاني أرغفة كان أعدها لعشائه، ولما انصرفت ردني ودفع إليّ زوجي نعال كانتا له وكنتُ حافيا، فوقع مني موقعًا محمودًا فانصرفتُ ولقيته اليوم ففعلت ما فعلتُ، على علم مني أنه كان في قليل ما أعطانيه أجودُ مني في كثير ما أعطيته.

ومما يجري مع ذلك، وإن لم يكن منه، قول بعض الحكماء: المُقل السخي غني بجميل الذكر، والبخيل المُكثر فقير بسوء الذكر، وخمولُ الذكر أحمد من الذكر الذميم.

ومما يجري مع ذلك ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبي بكر، عن أبي حاتم قال: حضرتُ بعض وُلاة البصرة، ولم يُسمه، وكان جبارًا فسمعت رجلاً يقول في مجلسه: الأتباع يؤنسهم البشر، ويوحشهم الازورار، ويلُمهم لين الجانب، ويُفرقهم عنف المعاشرة. وازدحام الآمال لديك، نعمة من الله عليك، فقابل النعمة بحسن المجاورة تستدم واردها، وتستدع نافرها قال: فمازلت أعرف موقع هذا الكلام من ذلك الوالي حتى افترقنا.

وإذا كان البشرُ، أصلحك الله، يصلح لتألف القلوب، فالنيل وإن كان قليلاً أصلح لها، فليس ينبغي أن يستحي أحد من بذله، ولا يستصغر أحد أخذه، فإن قليل النفع كثير إذا قيس بفقده. وإذا عرفت المنفعة في تفاريق العصا مع قلتها ونزارة قيمتها، وعلمت أن نزر المنافع جزل في بعض المواضع. وقد علمت أن حاتمًا وكعبًا و هرمًا لم يجعلوا أمثالاً في الجود لعظم عطياتهم في القدر، لأن الواحد منهم إنما كان يقري ضيفًا، أو يهب بعيرًا، أو عددًا من الشاء قليلاً ...، ولكن ذهب صيتهم في السماح، وبعد ذكرهم في الجود، لأنهم كانوا يعطون وهم محتاجون، ويُنيلون وهم مختلون. وقد عرفت أن كعبا إنما رزق هذا الاسم الكبير في الجود بما آثر صاحبه، ورزقه حاتم بإنهابه ماله؛ ولم يكن بالعكر الدثر ولكن قصدًا أو قليلاً نزرًا، وأن هرما إنما أعطى زهيرًا رواحل وثيابا تقل قيمتها ولا يعظم مقدارها، وكان عطاء الرشيد والبرامكة والمأمون والأمين في اليوم الواحد أكثر من جميع ما أعطاه أولئك في جميع أيامهم، ولم يُضرب بواحد من هؤلاء المثل كما ضُرب بأولئك. فهذا يدل على أن الناس إنما استحسنوا منهم بذلهم مع ضيق أحوالهم. وقلة ذات أيديهم؛ فجعلوهم أمثالاً مضروبة لكل من استغربوا فعله، واستبدعوا صنيعه.

وفي أخبار حاتم: أن جارية جاءته في ليلة شاتية فقالت: جئتك يا أبا سفانة من عند

صبية لهم ضعفاء[1] من الجوع، فقال: والله لأشبعنهم، فتعجبت امرأته من قوله لعلمها أنه لا شيء عنده. فقام إلى فرسه فذبحها وأوقد، فجعل يكبب لها اللحم حتى اكتفت واكتفى أولادها. ثم قسم بقيته ولم يدخر لعماله شيئًا.

فبمثل هذا كان يبعد ذكر جوده، ومبلغ ما يجود به قصد. وأعطى غيره الكثير وأعطى من الذكر القليل.

ولقد حدث محمد بن صالح بن داود قال: ركبنا مع عمي، يعقوب بن داود، إلى يحيى بن خالد بن برمك، قال: فكلمه في حوائج للناس تبلغ ثلاثة آلاف درهم فقضاها كلها، ثم قال له: قد رأيت قلة وفاء الناس لك على كثرة معروفك عندهم؛ فلو سألت لنفسك فأبى أن يسأل إلا لهم، وسأله أن يُسكنه مكة ففعل، وأجرى عليه في كل سنة خمسمائة ألف درهم سوى ما حمله إليه من الطعام من مصر.

وأخبرنا أبو أحمد[2] عن الصولي، عن [محمد بن] القاسم بن خلاد قال: حدثني محمد بن عمرو قال: خرج كوثر، خادم الأمين محمد، ليرى الحرب، فأصابته رجمة في وجهه فجلس يبكي، فوجه محمد من جاء به وجعل يمسح الدمع عن وجهه ثم قال:

ضربوا قرة عيني ولأجلي ضربوه
أخذ الله لقلبي من أناس أحرقوه

وأراد الزيادة عليها فلم يواته طبعه، فقال للفضل بن الربيع: من ههنا من الشعراء؟ قال: الشاعر عبد الله بن أيوب التميمي. فقال: عليّ به. فلما دخل أنشده البيتين وقال: قل عليهما. فقال:

ما لمن أهوى شبيهُ فبه الدنيا تتيهُ
وصلهُ حلو ولكنْ هجرُهُ مُر كريهُ
من رأى الناس له الفضل عليهم حسدوه

---

(١) هو صياح الثعلب والذئب وغيرهما، ثم كثر حتى قيل للإنسان إذا شق عليه فاستغاث أو بكى بصوت ذليل.

(٢) انظر: تاريخ بغداد للخطيب (٣/٣٣٩).

مــــثل مـــا قـــد حســـد الـــــ قـــائم بالملـــــك أخـــــوه[1]

فقال محمد: هذا والله خير مما أردت، بحياتي عليك يا عباسي إلا نظرت، فإن كان جاء على الظهر ملأت أحمال ظهره دراهم، وإن جاء في زورق ملأته له. فأوقر له ثلاثة أبغُل دراهم، وغناه ليلة إبراهيم بن المهدي[2]:

يـــا أمـــين الله عـــش أبـــدًا دُمْ علــــى الأيــــام والـــزمن

أنـــت تبقـــى والفـــناء لـــنا فـــإذا أفنيتـــنا فكُـــن

فقام من مجلسه وأكب عليه وقبل رأسه، فقام إبراهيم فقبل أسفل رجليه وما وطئتا عليه من البساط، فأمر له بثلاثة آلاف دينار. فقال إبراهيم: يا سيدي: قد أجزتني إلى هذه الغاية بعشرين ألف الف درهم، قال: وهل هي إلا خراج بعض الكور[3].

وقال يومًا لبعض غلمانه: ويحك، أما تغسل ثيابك، قُم وخُذ ثلاثين بدرة[4] واغسل بها ثيابك؛ فذهب وقبضها.

ورأى رجل ليحيى بن خالد رؤيا أيام الهادي فأخبره، فخاف يحيى أن يكون دُس عليه فانتهره وتوعده، فلما استُخلف الرشيد دخل إليه، وكتب إلى بعض العمال فدفع إليه خمسمائة ألف درهم.

وسأل يحيى مؤدب ابنه إبراهيم عن حاله فقال: تعلم كذا، وحفظ كذا، واتخذ له من الضياع كذا. قال: لم أسألك عن هذا فقال: عم يسأل الوزير؟ قال: اتخذت له مِننًا في أعناق الرجال؟ قال: لا؛ قال: بئس الخليط أنت. فأمر بحمل خمسمائة ألف درهم إليه ليُفرقها عنه في الناس. قال: فو الله لقد فرقنا في أقوام ما ندري من هم.

وكان محمد بن خالد بن برمك ما يستام عليه سائم إلا قبله، ونهى وكلاءه عن المكاس؛ وكان الجديُ يُشترى له بألف درهم؛ وباقةُ الريحان بخمسمائة درهم.

---

(١) يعني: المأمون.

(٢) انظر: الأغاني (٤/٥٨).

(٣) يعني المدن.

(٤) يعني كيس يكون فيه قدر معين من النقود.

وكان الفضل بن يحيى أمر بأن تحمل صُرر الدنانير فتلقى في عتب أبواب جيرانه بالليل، فإذا أصبحوا وجدوها، فرُبما بلغ ذلك في الليلة الواحدة مائة ألف ... وكان إذا جاء الشتاء تصدق بجميع ما في خزائنه من كسوة الصيف، وإذا جاء الصيف تصدق بجميع ما فيها من كسوة الشتاء. وما روى مثل هذا الجود عن أحد في أول ولا آخر، فقال فيه أبو قابوس الحيري:(١)

رأى الله للفضل بن يحيى فضيلة ... ففضله، والله بالناس أعلمُ

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ... ويومُ نعيم فيه للناس أنعمُ

وقال أبو النضير [عمر بن عبد الملك]:

ويفرح بالمولود من آل برمك ... بُغاة الندى والرمُح والسيفُ ذُو النصل

وتنبسط الآمال فيه لفضله، ... ولا سيما إن كان من ولد الفضل

وقال آخر:

إذا نزل الفضلُ بن يحيى ببلدة، ... رأيت بها عُشب السماحة ينبُتُ

ووجه المأمون إلى طاهر بن الحسين بمائة ألف دينار، فصادفه الرسول وهو راكب فثنى رجلهُ على ظهر فرسه فقسمها وسار ولم يبق منها دينار واحد.

وأخبرنا أبو القاسم بن شيران؛ عن عبد الرحمن بن جعفر، عن الغلابي، عن إبراهيم، عن الأصمعي قال: لما ولدت ابنة جعفر محمدًا قال مروان بن أبي حفصة:

لله دُرك يا عقيلة جعفر ... ماذا ولدت من الندى والسُؤدُد

إن الخلافة قد تبين نُورُها ... للناظرين على جبين مُحمد

إني لأعلمُ إنه لخليفة ... إن بيعةٌ عُقدت وإن لم تُعقد

فأمر له هارون بثلاثة آلاف دينار، وأمرت زبيدة أن يحشى فُوهُ جوهرًا فكانت قيمة الجوهر عشرة آلاف دينار.

وأخبرنا أبو القاسم، عن عبد الرحمن، عن الغلابي، عن سعيد بن محمد الخراساني قال: دخل ابن أبي المخيس على المهدي، وكان أعرابيًا بدويًا، فأنشأ يقول:

---

(١) انظر: المستطرف (١/٥٠٠).

خلـــيفة الله المُصـــفى بالكـــرم | يــا خــير مــن طــبق نعــلاً بقــدم
فــدتك نفســي مــن معاريض السقم | غُــذتُ بقــير الهاشــي باالحــرم
بقــبر عــبد الله ذي الأنــف الأشـــم | وعـــذت بالمهـــدي مـــن ديـــن جثم
علــى حــتى سُــل جســمي فانهــدم | فجــل عــني غُمــة مـــن الغُمـــم

فقال المهدي: نعم ملاذُ خلتك يا بن أبي المخيس. حاجتك؟ قال: ديني. قال فكم هو؟ قال: خمسة آلاف درهم، قال: يا غلام: أعطه إياها. فلما رأى أنه قد أمر له بها، التفت إليه وقال: بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا جعلتها دنانير، قال: اجعلوها دنانير:

وأخبرنا أبو القاسم، عن عبد الرحمن، عن الغلابي، عن الزبير قال: استنشد المهدي جدي عبد الله بن مُصعب نسيبًا حلوًا فأنشده قول الأحوص[(١)]:

خمـــس دســـــن إليّ في لطـــف | حُـــور العُـــيُون نـــواعم زُهـــر
فطـــرقتهن مـــع الرســـول وقـــد | نـــام الـــرقيبُ، وحلـــق النســـر
مســـتبطنًا للحـــي إن فـــزعوا | عضـــبًا يلـــوح بمتـــنه أثـــر
فمكـــث ليلـــتهُن ناعمـــة | حـــتى استفقن وقـــد أضـــا الفجـــر
بأشـــم، معســـول مُـــزاحتهُ، | غـــض الشـــباب، رداؤه غمـــرُ
زول بعـــيدُ الصـــيت مُشـــتهرُ | جابـــت لـــه جـــيب الدُجـــى عمـــرُ
قامـــت تُخاصـــره لكلـــتها | تمشـــي الـــتأود غـــادة بكـــر
ســـيفانة أشـــر الشـــباب بهـــا | رقـــراقة لم يُـــبلها الدهـــر
وتـــراجعا مـــن دُون نســـوتها | كلمـــا تُســـر كأنهـــا ســـحر
كُـــل يـــرى: أن الشـــباب لـــهُ | في كـــل غايـــة صـــبوة عُـــذْرُ

---

(١) انظر: الأغاني (١٧/٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥).

حـــتى إذا أبـــدى مـــودتها وبـــدا هـــواها مالـــهُ ســـتر[١]
ســـفرتْ ومـــا ســـفرتْ لمعْـــرفة وجهـــا أغـــر كأنـــه الـــبدرُ

وأنشده لصخر بن الجعد [الخُضري]:

هنيـــئًا لكـــأس قطعهـــا الحـــبل بعدما عقـــدنا لكـــأس مـــوعدًا لا نخُـــونُها
وإشماتهـــا الأعـــداء حـــين تألـــبُوا حـــوالي، واشـــتدت عليَّ ضغونها[٢]
فـــإن تصـــرمي، وكلت عيني بالبكا، وأشمـــت أعدائـــي فقـــرت عـــيونها
فـــإن حـــراما أن أخـــونك؛ ما دعا مـــع اللـــيل قَمـــريُّ الحمام وجوُنها
ومـــا طـــرد الليلَ والنهار، وما بكتْ علـــى شـــجر ورقـــاء شـــاج رنينُها
وقـــد أيقـــنت نفســـي بأن حيل بينها وبيـــنك لـــو يـــأتي بـــيأس يقيـــنُها
ولكـــن أبـــتْ أن تستفيق، ولا ترى سُـــلوا ولا مجلـــود صـــبر يُعيـــنها
لـــو أنـــا إذ الدنـــيا بـــنا مطمئـــنة دجـــا ظلـــها ثم ارجحـــنت غُصونها
هـــونا، ولكـــنا بغـــرة عيشـــنا عجبـــنا لدُنـــيانا فكـــدنا نعيـــنُها
وكـــنا إذا نحـــنُ التقيـــنا، وما نرى لعيـــنين إلا مـــن حجـــاب يصـــونها
أخـــذنا بأطـــراف الأحاديـــث بينـــنا وأوســـاطها حـــتى تُمـــل فـــنونُها

فأعطاه سبعة آلاف دينار.

وأخبرنا أبو القاسم بن شيران، عن عبد الرحمن بن جعفر، عن الغلابي، عن جعفر بن أحمد النوفلي، عن محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان قال: كان بالبصرة فتى من بني تميم، وكان شاعرًا ظريفًا فاستشارني في مدح المأمون وقصده، فلم أشر عليه به؛ لقلة رغبة المأمون التي كانت في الشعر؛ فقال: رُبما زهد الرجل في الشيء ثم أقبل عليه. فخرج والمأمون بسلغوس[٣] قال: فخرجت بسحر نحو العسكر فلقيت

---

(١) انظر: الأغاني (١٧/٣٥٣).

(٢) أي حقدها.

(٣) انظر: تاريخ الطبري (١٠/٢٩٧، ٢٩٨).

رجلاً على بغل أسود ما رأيتُ مثله، فسألني عن مقدمي، فذكرتُ له أنني قصدتُ المأمون بشعر خفيف حلو؛ فاستنشدنيه فقلت: إنما قصدت الخليفة، فقال: أنشدنيه فإن كان على ما تصف لأصلنك، ولأحملنك على بغلي هذا، فأنشدته[1]:

مأمـــون: يـــا ذا المـــنن الشـــريفهْ وصـــاحب المـــرتبة المَنـــيفهْ

وقائــــــد الكتيــــــبة الكثـــــيفهْ هـــل لــك في أرْجـــوزة ظـــريفهْ

أظـــرف مـــن فقـــه أبي حنـــيفهْ لا والـــذي أنـــت لـــه خلـــيفهْ

مـــا ظَلمـــت في أرضـــنا ضـــعيفهْ أميرُنـــــا مُؤنـــــتهُ خفـــــيفهْ

مـــا يجـــتبي شـــيئًا ســـوى الوظـــيفهْ فالـــذئبُ والـــنعجةُ في ســـقيفهْ

واللص والتاجر في قطيفهْ

قال: فضحك واستطاب الشعر، وأومأ إلى واحد من غلمانه فجاء يركضُ، فقال: كم معك؟ قال: ثلاثة آلاف دينار، قال: ابذُلها إلى السعدي. ثم قال: وفينا لك؟ قلتُ: والله ما هذا وفاء، هذا عطاء البحر إذا زخر، وضرب كفل بغله وانصرف.

فهؤلاء أيدك الله أعطوا هذا الكثير ولم يحظوا من الذكر بما حظى به مُعطى القليل. فليس ينبغي أن يُستَحْي من إعطاء ما كسب مثله الذكر الباقي في الأعقاب، المستغرق لمدى الأحقاب، الذي لا تقدح فيه الأزمان، ولا تتحيفه صُروف الحدثان، وأنشدنا أبو أحمد، عن أبي بكر:

وكـــنتُ إذا دُعـــيتُ إلى طعـــام أجـــبتُ، ولم يكُـــنْ مـــني تـــوان

ظللـــنا مـــن بشاشـــتنا كأنـــا بـــيوم لـــيس مـــن هـــذا الـــزمان

فذكر أنه إذا دُعي إلى طعام لم يكد في تحصيله سُرَّ سرورًا وبشَّ بشاشة ليس له بمثلها عهد في زمانه. روي عن عمر ﷺ أنه قال: كنا نعد المقرض بخيلا، إنما كانت مواساة. ومما هو داخل فيما نحن فيه قول أبي هريرة ﷺ: «**إن صدقة أحدكم يقبلها الله ويربيها كما يُربي أحدُكم فلوهُ وفصيلهُ، حتى اللقمةُ تصير مثل أُحُد**».

وقالت بعض النساء: يا رسول الله: إنه يأتيني السائلُ فأتزهد له بعض ما عندي،

---

(١) انظر: ثمار القلوب في المضاب والمنسوب للثعالبي (ص ١٧٠).

فقال: ضعي في يد المسكين ولو ظلفًا مُحرقًا.

وقال عبد الله بن مسعود: كان راهب عبد الله ستين سنة، فنزلت به امرأة فواقعها ست ليال، ثم ندم فهرب، فأتى مسجدًا فمكث ثلاثًا لا يطعم، فأتى برغيف فأعطى نصفه رجلاً عن يمينه، ونصفه رجلاً عن يساره، ثم قبضه الله؛ فوضع عمل ستين سنة في كفة، ووضعت السيئة في كفة فرجحت فجئ بالرغيف فرجح بالسيئة.

وكان عند عائشة طبق عنب، فجاء سائل فدفعت إليه حبة واحدة منه، فضحك نساء كن عندها فقالت: إنما فيما ترين مثاقيل ذر كثيرة، أرادت قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وسأل رجل ابن عبيد الله بن زياد فأعطاه درهما، فقال أصلح الله الأمير، صاحب العراق وخليفة أمير المؤمنين يُعطي درهما، فقال: نعم، إن من بيده خزائن السموات والأرض ربما رزق أخص عباده وأقربهم منه وسيلة اللقمة والتمرة، فما يكبر عندي أن أصل رجلاً من إخواني بمائة ألف درهم، ولا يصغُر عندي أن أُطعم سائلاً رغيفًا — إذا كان الجواد الكريم يفعل ذلك.

ومثلُ هذا الخبر خبرُ المنصور مع «سلم الحادي» وقد ذكرناه في «كتاب الدينار والدرهم» ونورده ههنا لمجانسته ما قبله. وهو الذي أخبرناه أبو أحمد، عن عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن الفضل، عن إبراهيم بن السندي بن شاهك، عن الفضل بن الربيع، عن أبيه قال: حدا «سلم الحادي» بين يدي أبي جعفر بطريق مكة وهو حاج:

أغـــر بـــين حاجبـــيه نـــوره ... إذا تغـــدى رُفعـــت ســـتوره

يـــزينه حـــياؤه وخـــيره ... فـــتى، قلـــيل في الـــورى نظـــيره

يضـــحك مـــن بهائـــه ســـريره ... ومســـكه يشـــوبه كافـــوره

أودى الصـــبا، ونفـــدت زهـــوره، ... والقلـــبُ قـــد ألهـــبه ســـعيرهْ

والحـــب داء هالـــك أســـيره ... لا شـــيء يـــردي الهمـــم أو يـــثيره

إلا رواح الصـــب أو بكـــوره ... فـــوق خـــدب جائـــل ضـــفوره[1]

---

(١) الخدب من الأباعر الصلب الشديد الضخم والضفور جمع ضفر وهو ما يشد منه البعير من =

قال فاستحسن أبو جعفر الأبيات وضرب برجله وقال: يا ربيع: أعطه نصف درهم، فقال: يا أمير المؤمنين: نصف درهم؟ لقد حدوتُ بها بين يدي هشام فأمر لي بمائة ألف درهم، فقال: مائة ألف درهم من مال الله! ما كان له أن يعطيكها، وما كان لك أن تأخذها؛ يا ربيع! استخرجها منه. قال: يا أمير المؤمنين: قد والله وصلتُ بها القرابة، وحملت بها الكل، وأنفقتها على الولد، وما بقى منها شيء. قال: فما زلتُ أسفرُ بينه وبينه حتى ضمن أن يحدُو به ذاهبًا وجائيًا، ولا تلزمه مئونة؛ فقلت بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

كويـــتب يـــرفعهُ تصـــغيرهْ ... كأنمـــا تصـــغيرُه تكـــبيرهُ

لم يُـــر في ســـقُوطه نظـــيرُهُ ... الكلـــبُ مـــن أخلاقـــه يمـــيرُهُ

والقـــردُ يحكـــيه ويســـتعيرُهُ ... أقـــبح مـــن ظاهـــره ضـــميرُهُ

إذا تغـــدى أطـــبقت سُـــتُورُهُ ... وسُـــمرتْ أبـــوابهُ ودُورُهُ

وحُرســـتْ حـــيطانُه وســـوره ... والديـــدبانُ فـــوقها ناظـــورُهُ(١)

وقـــام عـــند ســـتْره نذيـــرُهُ ... لا يقـــربُ الـــباب ولا يطُـــورُه(٢)

خلـــق مـــن الـــناس، ولا يـــزُورُهُ ... إلا شـــقي غـــره غـــرورُهُ

فـــإن دنـــا أحـــرقهُ ســـعيرُهُ ... وكُســـرتْ ســـاقاهُ؛ لا يُجـــيرُهُ

خلـــق، ولا يُرجـــى لـــه جُـــبُورُهُ ... حـــتى إذا اســـتوفي وطـــم بـــيرُهُ(٣)

ثم عـــلا مـــن قظـــة زفـــيرُهُ ... وأُحْصِـــنَتْ مـــن بعـــدها قـُــدُورُهُ

وأثبـــتتْ مـــن خُبْـــزِه كُسُـــورُهُ ... وحصُـــلت فضـــلاته وسُـــورُهُ

ودار في الـــدار بهـــا وزيـــرُهُ ... وصـــار في ديـــوانه تـــوفيرُهُ

عاد إليه عائدًا سُرورُهُ

=

الشعر المضفور.

(١) الناظور: حافظ الزرع.

(٢) يعني: دام حوله ودنا منه.

(٣) طمَّ: امتلأ.

قال: وسمعت أصحابنا يتحدثون أن رجلاً حمل لرجل حملاً وبلغ به غاية بعيدة، فأعطاه «قيراطًا» فاستحقره واستزادهُ، فقال: أتستحقره، وإنك لو اشتريت به رغيفًا فأكلته دفعت به يومك، وكسبت عليه أضعافه؟ أو قربة ماء كفاك في شربك وطهورك يومين؛ أو باقة بقل زينت بها مائدتك، وطبت في أكلك؟ أو ملحًا أجزاك في طبيخك وغيره أيامًأ؟ أو أشنانًا كفاك في تطييب يدك مُدة؟ أو دخلت به الحمام نقيت جسدك؟ أو ابتعت به الصابون نظفت به ثوبك؟ أو احتجت إلى عبور نهر كان مقنعًا لملاحك، إلى غير ذلك من المنافع؟ لقد صغرت عظيمًا، واستحقرت جسيمًا. فانطلق لرجل به ولم يماكسه.

وقريب من ذلك أن رجلاً قال لرجل: ادفع لي دريهما، فقال: أتصغره؟ إنه عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف عشر ديتك.

وذكر أن بعض الهاشميين زار محمد بن بشير فأحضره خُبزًا قد أتت عليه أيام، وتمرات، فقال الهاشمي: هذا جود الأذواء، يريد أنه من اليمن، فقال محمد:

لقــل عــارًا إذا ضـــيف تضـــيفني ... مــا كـــان عندي؛ إذا أعطيتُ مجهُودي

جُـــودُ المُقـــل إذا أعطـــاك نائلـــه، ... وُمكـــثير في الغـــنى، ســـيان في الجود

وقال غيره:

أقِـــل وأثـــرى، كـــل ذاك يســـرني؛ ... وللدهـــر والإنســـان حـــال تقلـــبُ

ويلـــزمُني حـــق فـــلا أســـتطيعهُ، ... ولا يـــنفع الـــراجين أهـــل ومـــرحبُ

ومـــا أبطـــل الإعـــدامُ حقًا لراغب، ... ولكـــنه في حالـــة اليُســـر أوجبُ(١)

ومثل هذا أيدك الله كثير، وفيما سقته إليك كفاية لك، إن شاء الله تعالى.

(١) انظر: البيان والتبيين للجاحظ (١/١٤٧٣).

الدُّر المنضُود
في ذَمِّ البخل ومَدْح الجُود

لزين الدِّين عبد الرَّؤوف المناوي

المتوفى ١٠٣٢هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، الحمد لله،الذي من لم يسأله يغضب عليه ومن سأله أعطاه وأنعم عليه.

وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة أعدها ذخرًا للوقوف بين يديه، وأن محمدًا عبده ورسوله الذي جبله على السخاء وحببه إليه وعلى آله وصحبه والمهتدين بهديه المحافظين عليه آمين.

وبعد: فهذا كتاب جمعت فيه نبذة مما جاء في مدح الجود وذم البخل ورتبته على ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في ما ورد في فضيلة السخاء

وفيه فصول:

الفصل الأول: فيما جاء فيه من الأحاديث النبوية.

الفصل الثاني: فيما ورد فيه من الآثار وكلام الحكماء وخاتمة الأخبار.

الفصل الثالث: في بعض حكايات الأسخياء.

الباب الثاني: في ذم البخل

وفيه فصول:

الفصل الأول: فيما ورد في ذمه من الأخبار المصطفوية.

الفصل الثاني: فيما جاء في ذمه وما ورد في ذلك من الأشعار.

الخاتمة: في وصايا وحكم.

الباب الثالث: في علاج البخل ليزول

وسمّيتهُ: «الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود» أقول مستمدًا من فيض واجد الوجود:

الباب الأول
في فضيلة السخاء
الفصل الأول
فيما جاء فيه من الأحاديث النبوية

وقد رتبتها أربعين حديثًا:

الحديث الأول: عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «**السخاء خلق الله الأعظم**»[(١)] رواه أبو الشيخ وابن النجار وغيرهما.

الحديث الثاني: عن علي وأبي سعيد وأبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**السخاء شجرة من أشجار الجنة، أغصانها متدليات في الدنيا، من أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة، والبخل شجرة من أشجار النار أغصانها متدليات في الدنيا فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى النار**» رواه البيهقي والخطيب وغيرهما بأسانيد ضعيفة[(٢)].

الحديث الثالث: عن عبد الله بن جراد عن النبي ﷺ قال: «**السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج الجنة إلا سخي، والبخل شجرة تنبت في النار فلا يلج النار إلا بخيل**»[(٣)].

الحديث الرابع: عن أبي هريرة عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**السخاء شجرة في الجنة فمن كان سخيًا أخذ بغصن منها فلم يتركه الغصن حتى يدخله الجنة، والشح شجرة في النار فمن كان شحيحًا أخذ بغصن منها فلم يتركه الغصن حتى يدخله النار**» رواه الخطيب في تاريخه[(٤)].

الحديث الخامس: عن علي ﷺ عنه ﷺ قال: «**السخاء شجرة في الجنة حسنة**

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٣٤١)، وأورده المناوي في فيض القدير (٤/١٣٧)، والسيوطي في جمع الجوامع (١٩١٣)، وهو ضعيف.

(٢) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/١٨٢، ١٨٣)، والخطيب في تاريخه (٣/٢٠٦، ٢٥٣)، وابن عدي في الكامل (١/٢٣٦).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٣٤١)، والبيهقي في الشعب (٧/٤٣٥).

(٤) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٣/٢٠٦).

المظهر والمخبر» رواه الديلمي[١].

الحديث السادس: عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**السخاء حسن ولكنه في الأغنياء أحسن**»[٢].

الحديث السابع: عن أبي الدرداء قال: قال ﷺ: «**السخاء من اليقين ولا يدخل النار من أيقن**»[٣].

الحديث الثامن: عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا إلى المصطفى قال: «**السخي**[٤] **قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد عن النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار ولجاهل سخي، أحب إلى الله من عابد بخيل**» رواه الترمذي والبيهقي والدارقطني والخطيب بأسانيد ضعيفة[٥].

الحديث التاسع: عن أبي أمامة عنه عليه الصلاة والسلام قال: «**السخي إنما يجود من حسن الظن بالله والبخيل إنما يبخل من سوء الظن بالله**»[٦].

الحديث العاشر: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**السخي الجهول أحب إلى الله من العالم البخيل**» رواه الديلمي والخطيب[٧].

الحديث الحادي عشر: عن عمران بن الحصين عنه ﷺ: «**إن الله يحب الإنفاق ويبغض الإقتار فأنفق وأطعم ولا تصر صرًا فيعسر عليك الطلب**»[٨] رواه القضاعي وغيره.

الحديث الثاني عشر: عن ابن عباس عنه عليه الصلاة والسلام: «**شاب سخي**

---

(١) في مسند الفردوس (٢/٣٤١٩).

(٢) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٢/٧٧).

(٣) أورده ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٦/٣٧٠) وقال: لم أجد له إسنادًا.

(٤) في المطبوعة السخاء، وهو تصحيف ظاهر.

(٥) رواه الترمذي (١٩٦١) وابن حبان في روضة العقلاء (ص ٢٣٥) وابن عدي في الكامل (٣/ ١٢٣٩) والديلمي (٢/٣٤٢)، والدارقطني في العلل (٨/٢١٨)، والبيهقي في الشعب (٧/٤٢٧).

(٦) أورده الهندي في كنز العمال (٦/٣٩٢) وعزاه لأبي الشيخ.

(٧) تقدم في حديث رقم (٨).

(٨) انظره في رقم (٥٣).

حسن الخلق أحب إلى الله من شيخ بخيل عابد سيئ الخلق»[١] رواه الحاكم والديلمي.

الحديث الثالث عشر: عن ابن عمر قال: قال ﷺ: «**لا تجتمع أربعة في مؤمن: الصدق في اللسان، والسخاء في المال، والمودة في القلب، والنصيحة في المشهد والمغيب، إلا أوجب الله له الجنة»**[٢] رواه الديلمي.

الحديث الرابع عشر: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من يوم يُصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»**[٣] رواه الشيخان وغيرهما.

الحديث الخامس عشر: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ألا إن كل جواد في الجنة، حتمًا على الله وأنا به كفيل ألا وإن كل بخيل في النار، وأنا به كفيل»**، قالوا يا رسول الله من الجواد؟ ومن البخيل؟ قال: «**الجواد من جاد بحقوق الله في ماله،والبخيل من منع حقوق الله وبخل على ربه، وليس الجواد من أخذ حرامًا، وأنفق إسرافًا»**[٤] رواه الأصبهاني في ترغيبه وهو غريب.

الحديث السادس عشر: عن عائشة رضي الله عنها عنه ﷺ قال: «**ما جُبِلَ وليُّ الله إلا على السخاء وحسن الخلق»**[٥] رواه أبو الشيخ في الثواب.

الحديث السابع عشر: عن عمران بن الحصين عنه ﷺ قال: «**إن الله استخلص هذا الدين لنفسه فلا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما»**[٦] رواه الطبراني في الأوسط والأصبهاني لكنه قال: «**جاء جبريل فقال: يا محمد إن الله استخلص هذا الدين لنفسه**» فذكره.

---

(١) رواه تمام الرازي في فوائده (٣/٣٨، ٣٩/ ف)، وأورده المناوي في فيض القدير (٤/١٥٣)، وعزاه للحاكم في تاريخه، والديلمي في الفردوس.

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٥/١٨٥).

(٣) رواه البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (١٠١٠)، وأحمد في المسند (٢/٣٠٥، ٣٠٦، ٣٤٧).

(٤) رواه الأصبهاني في الترغيب (١/٢٣٨)، (٢/٦٣٧).

(٥) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/١٧٩)، والأستاذ القشيري في الأربعين (١/١٨٩)، والديلمي (٤/٥٧).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط (٨٢٨٦)، وفي الكبير (٣٤٧)، (١٨/١٥٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢/١٦٠)، وبنحوه عن عائشة، وجابر، وأنس.

الحديث الثامن عشر: عن ابن عباس: قيل يا رسول الله من السيد؟ قال: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قالوا: فما في أمتك سيد؟ قال: بلى رجل أعطى مالاً ورزق سماحة وأدنى الفقير وقلّت شكايته في الناس[١] رواه الطبراني في الأوسط.

الحديث التاسع عشر: عن عائشة رضي الله عنها رفعته إلى المصطفى ﷺ: **«الجنة دار الأسخياء والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة بخيل ولا عاق ولا منان بما أعطى»**[٢] رواه ابن عدي والخطيب والدارقطني وغيره.

الحديث العشرون: عن عائشة عنه ﷺ: **«إن في الجنة بيتًا يقال له بيت الأسخياء»**[٣] رواه الطبراني في «الأوسط» وأبو الشيخ في الثواب ولكنه قال: «دار الأسخياء».

الحديث الحادي والعشرون: عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: **«الرزق إلى أهل البيت الذي فيه السخاء أسرع من الشفرة إلى سام البعير»**[٤] رواه أبو الشيخ في الثواب ولابن ماجه من حديث ابن عباس.

الحديث الثاني والعشرون: عن عمر عنه عليه الصلاة والسلام: **«إن الله تبارك وتعالى بعث حبيبي جبريل إلى إبراهيم قال: يا إبراهيم إني أتخذك خليلاً على أنك أعبد عبادي لي، ولكن اطلعت في قلوب المؤمنين فلم أر قلبًا أسخى من قلبك»**[٥] رواه أبو الشيخ في الثواب.

الحديث الثالث والعشرون: عن ابن مسعود عنه ﷺ قال: **«تجافوا عن ذنب السخي فإن الله أخذ بيده كلما عثر»**[٦] رواه ابن أبي الدنيا والأصبهاني عنه وأبو

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٧٠٠٦)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٩٨)، (٧/٤٤٠)، وضعفه الحافظ في الفتح (٦/٤١٧).

(٢) رواه ابن عدي في الكامل (١/١٩٠)، والدارقطني في المستجاد، وابن الجوزي في الموضوعات (١/١٨٥)، والخطيب في البخلاء، بتحقيقنا.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط، كما في الترغيب (٣/٢٦٠)، والقضاعي (١/١٠٠، ١٠١).

(٤) رواه ابن ماجه (٣٣٥٧)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١/٢٧٠).

(٥) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٢٦٠)، وزاد الطبراني والعجلوني في الكشف (٢/٢٤١).

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية (٤/١٠٨)، والأصبهاني في الترغيب (١٥٢١)، والخطيب في التاريخ (٨/٣٣٤).

الشيخ عن ابن عباس.

الحديث الرابع والعشرون: عن ابن مسعود عنه عليه الصلاة السلام: «**الجود من جود الله فجودوا يجُدْ الله لكم إن الله خلق الجود فجعله في صورة رجل وجعل رأسه راسخًا في أصل شجرة طوبى وشيد أغصانها بأغصان سدرة المنتهى، ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغضن منها أدخله الجنة، وخلق البخل من مقته، وجعل اسمه راسخًا في أصل شجرة الزقوم وتدلى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله النار البخل من الكفر والكفر في النار**»[1] رواه الخطيب وفيه أبو بكر النقاش ذو مناكير.

الحديث الخامس والعشرون: عن ابن عمر رفعه إلى سيد البشر قال: «**طعام السخي دواء وطعام الشحيح داء**»[2] رواه الحاكم والخطيب والديلمي.

الحديث السادس والعشرون: عن سلمان الفارسي قال: «**إذا مات البخيل قال: اللهم احجب هذا العبد عن الجنة، كما حجب عبادك عما جعلت في يديه من الدنيا متاع الغرور**»[3].

الحديث السابع والعشرون: عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الإيمان الصبر والسماحة، وحسن الخلق**»[4] رواه البيهقي في الزهد بإسناد صحيح.

الحديث الثامن والعشرون: عن ابن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «**خلقان يحبهما الله، وخلقان يبغضهما الله، فأما اللذان يحبهما الله تعالى فالسخاء والشجاعة، وأما اللذان يبغضهما الله، فسوء الخلق والبخل، وإذا أراد الله بعبد خيرًا**

---

(١) رواه الخطيب في البخلاء، بتحقيقنا، وأورده العجلوني في كشف الخفاء (١/٤٠٤).

(٢) رواه الخطيب في البخلاء بتحقيقنا، ط بيروت، والديلمي في الفردوس (٢/٤٥٥)، وهو في كشف الخفاء (٢/٥٠).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) رواه أحمد في الزهد (ص ١٠)، وابن أبي شيبة في الإيمان (٤٣)، والبيهقي في الزهد الكبير (٢/٢٧٤).

استعمله على حوائج الناس»[1] رواه أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي.

الحديث التاسع والعشرون: عن جابر عنه ﷺ قال: **«من موجبات المغفرة إطعام المسلم السُغبان»**[2] أي الجيعان، رواه الحاكم وغيره.

الحديث الثلاثون: عن أبي سعيد أنه ﷺ قال: **«يقول الله تعالى اطلبوا الفضل عند الرحماء من أمتي تعيشوا في أكنافهم فإن فيهم رحمتي ولا تطلبوا من القاسية قلوبهم فإنهم ينتظرون سخطي»**[3] رواه الخرائطي وابن حبان في الضعفاء.

الحديث الحادي والثلاثون: حديث علي أنه عليه الصلاة والسلام قال: **«اطلبوا المعروف من رحماء أمتي تعيشوا في أكنافهم ولا تطلبوا من القاسية قلوبهم فاللعنة تنزل عليهم [يا علي] إن الله خلق المعروف وخلق له أهلاً فحببه إليهم وحبب إليهم فعاله ووجه إليهم طلابه كما وجه الماء في الأرض الجديدة لتحيا به وتحيي به أهلها، وإن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»**[4].

الحديث الثاني والثلاثون: عن ابن عباس عنه عليه الصلاة والسلام قال: **«الخير إلى البيت الذي يعشى فيه»**. وفي رواية: **«الذي يأكل فيه من الشفرة إلى سنام البعير»**[5].

الحديث الثالث والثلاثون: عن طلحة بن عبيد الله قال: قال رسول الله ﷺ **«إن الله جواد يحب الجود، ويحب معالي الأمور، ويكره سفاسفها»**[6]. رواه الخرائطي في مغارم الأخلاق وهو مرسل.

الحديث الرابع والثلاثون: عن سهل بن سعد رفعه إلى المصطفى ﷺ قال: **«إن**

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢/٢٤٩)، والأصبهاني في الترغيب (١/١١٤).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/٥٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٧/٩٠).

(٣) رواه ابن حبان في المجروحين (٢/٢٨٦)، والقضاعي في الشهاب (٦٩٩)، (٧٠٠)، والعقيلي في الضعفاء (٣/٣)، وابن الجوزي في الموضوعات (٢/١٥٨).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٤/٣٢١)، وقال: صحيح ولم يخرجاه، وقال العراقي، ليس كما قال.

(٥) تقدم برقم (٢١).

(٦) رواه هناد في الزهد (٨٢٨)، والحاكم في المستدرك (١/٤٨)، والبيهقي (١٠/١٩١)، والبغوي في شرح السنة (١٣/٨٢، ٨٣)، وأبو نعيم في الحلية (٥/٢٩).

الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأمور ويكره سفاسفها»[1]. رواه الطبراني والبيهقي والحاكم.

الحديث الخامس والثلاثون: عن ابن عباس عنه عليه الصلاة والسلام قال: «**أقيلوا السخي زلته فإن الله أخذ بيده إذا عثر**»[2]. رواه الخرائطي وغيره.

الحديث السادس والثلاثون: عن الهلالي قال: «**أوتي النبي ﷺ بأسرى من بني النضير العبد فأمر بقتلهم، وأفرد منهم رجال**»، **فقال علي يا رسول الله الذنب واحد والدين واحد فما بال هذا من بينهم؟ قال:** «**نزل علي جبريل فقال: أقبل هؤلاء وأنزل بهؤلاء، واترك هذا فإن الله شكر له سخاء فيه**»[3]. كذا رواه الغزالي. لكن قال الغزالي لم أجده.

الحديث السابع والثلاثون: عن أنس رفعه إلى المصطفى ﷺ: «**إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا بصيام ولكن دخلوها بسماحة الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للمسلمين**»[4]. رواه الدارقطني في «المستجاد وابن لال في المكاره».

الحديث الثامن والثلاثون: عن أبي سعيد، وجابر عنه ﷺ قال: «**كل معروف جعلته إلى غني أو فقير صدقة والله يحب إغاثة اللهفان**»[5]. رواه الدارقطني وغيره.

الحديث التاسع والثلاثون: عن جابر: بعث رسول الله ﷺ بعثًا عليهم سعد بن عبادة وجهد [وأفخر لهم] فيه تسع ركايب فحدثوا رسول الله فقال: «**إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت**»[6]، رواه الدارقطني.

الحديث الأربعون: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**[يا زبير] اعلم أن**

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤٨/١)، والطبراني في الكبير (٥٩٢٨/١)، وأبو نعيم في الحلية (٢٥٥/٣)، (١٣٣/٨).

(٢) تقدم في (٢٣).

(٣) لم أعثر عليه.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الأولياء، والديلمي في الفردوس (٢٧٢/١).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (١١)، والخطيب في الجامع (٣٨٥/١).

(٦) رواه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٣٣/ق).

مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث الله إلى كل عبد بقدر نفقته فمن كَثَّر كُثِّر له ومن قلل قُلل له»[1]. رواه الدارقطني.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢١٦)، والخطيب في التاريخ (٣/١٩)، وابن الجوزي في الموضوعات (٢/١٧٩)، وأورده السيوطي في تذكرة المؤتسي (ص ٣٥)، والمناوي في الفيض (٢/٤٤٣).

الفصل الثاني

ما جاء في فضيلة السخاء والجود في الآثار وكلام الحكماء الأخيار

قال علي كرم الله وجهه: إذا أقبلت الدنيا عليك فأنفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى.

لا تبخل بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف

وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خُلف

وسأل معاوية الحسن بن علي عن المروءة والبخل والكرم فقال: المروءة حفظ الرجل دينه وحرزه نفسه وحسن قيامه بضيفه والإقدام في الكراهية والذب عن الجار والصبر في المواطن والكرم والتبرع بالمعروف، قيل السؤال والإطعام في المحل والرأفة بالمسائل مع بذل النابل[1].

وأنزل الله في القرآن: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

وقال ابن عباس ﷺ: سادات الناس في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأتقياء.

في منثور الحكم: الجود خير موجود.

ويقال في المثل: سور بلا جود كملك بلا جنود.

وقال الحكماء: الجود حارس الأعراض ومن جاد ساد ومن أضعف ازداد.

رفع إلى الحسن رقعة فقال: حاجتك مقضية، فقيل يا ابن رسول الله ﷺ: لو نظرت في رقعته ثم أجبت على قرأ ذلك قال: يسألني الله عز وجل عن ذلة مقامه بين يدي متى قرئ رقعته.

قال ابن السماك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه.

وسئل بعض العرب فقال: من احتمل شيمنا وأعطى سائلنا وأعفى عن جاهلنا.

---

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه (١/١٩١)، وتم مقابلة النص وتصحيحه عليه.

وقال علي بن الحصين: من وصف ببذل ماله لطلابه سخيًا إنما السخي من يبدأ بحقوق الله في أهل طاعته، ولا ينازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله تامًا.

وقيل للحسن ما السخاء؟ قال أن تجود بمالك لله.

وقيل ما الشح؟ قال: أن تمنع مالك فيه.

قيل ما الإسراف؟ قال: إنه الإنفاق بحب الرياسة(١).

وقال الإمام جعفر الصادق ﷺ: لا مال أعود من العقل، ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا مظاهرة كالمشاورة، ألا وإن الله تعالى يقول:

«إني جواد كريم ولا يجاورني لئيم، واللؤم من الكفر،وأهل الكفر في النار والكرم من الإيمان وأهل الإيمان في الجنة».

قال حذيفة: ربَّ فاجر في دينه أحمق في معيشته يدخل الجنة بسماحته.

ورأى الأحنف بيد رجل درهمًا فقال: لمن هذا؟ قال لي: قال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك.

وسمي واصل بن عطاء الغزالي: لأنه كان يجلس إلى الغزالين فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئًا.

وكتب الحسن بن علي إلى أخيه يعاتبه في إعطاء الشعراء فأجابه: خير المال ما وُقي به العرض.

وقيل لابن عيينة ما السخاء؟ قال بر الإخوان والجود بالمال وورث عبد الرحمن ابن الحارث خمسين ألفًا فبعث بها سرًا إلى إخوانه وقال قد كنت أسأل لهم الجنة في صلاتي أفأبخل عليهم بالدنيا.

وقال الحسن: بذل المجهود في منتهى الجود قيل لبعض الحكماء من أحب الناس إليك؟ قال: من كثرت أياديه عندي، قيل فإن لم يكن؟ قال: من كثرت أيادي عنده.

وقال عبد العزيز بن مروان: إذا مكنيِّ الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي كيدي عنده.

---

(١) انظر: العقد الفريد (١/١٩١، ١٩٥).

وقال المهدي لشبي: كيف رأيت الناس في داري؟ قال: يا أمير المؤمنين يدخل الرجل منهم راضيًا ويخرج راضيًا متمثل عند عبد الله بن جعفر:

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع

قال ابن جعفر: إن سماع هذا ليبخل الناس ولكن أمطر المعروف مطرًا فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً أو اللئام كنت له أهلاً.

وقال الحكماء: جود الرجل يحببه إلى أضداده وبخله يبغضه إلى أولاده.

وقالوا: خير الأمور ما استرق حرًا وخير الأعمال ما استحق شكرًا.

وأنشد صالح بن عبد القدوس:

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ويستره عنهم جميعًا سخاؤه

تغط بأثواب السخاء، فإنني أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وقالوا: الإحسان رق والمكافآت عتق.

وقالوا: بالإحسان يرتبط الإنسان ومن بذل ماله أدرك آماله.

قال الراغب: والجود على ألسنة الورى محمود ولذلك قيل: كفى بالجود حمدان اسمه مطلقًا ما يقع إلا في جدا، وكفى بالبخل دنا أن اسمه مطلقًا لا يقع إلا في ذم[1].

وقيل لحكيم أي فعل البشر أشبه بفعل الباري؟ قال: الجود ومن شرفه أن الله قرن ذكره بالإيمان ووصف أهله بالصلاح والفلاح أجمع لسعادة الدارين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ إلى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٣، ٤، ٥] وقال: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦].

وحق للجود أن يقترن بالإيمان فلا شيء أخص به منه ولا أشد مجانسة له فمن صفة المؤمن انشراح الصدر فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإيمان ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا، وهما من صفة الجواد والبخيل. الجواد يوصف بسعة الصدر والبخيل بضيق الصدر والإمساك.

وقالوا: السخاء إن سخا الرجل بما في يده يصون عرضه عن ذم اللئام وتركه ما

(١) انظر: العقد الفريد (٢/١٨٧، ٢٧٢).

في أيدي الناس يغلق عنه باب الملام فإن هو جمعهما فقد وهب أشرف أخلاق الكرام ويوطى على مسحه الخاص والعام ويقال في مثل ذلك مدحًا: فلان بماله متسرع وعن مال غيره متورع ويقال: مراتب العطاء ثلاثة سخاء وجود وإيثار، فالسخاء: إعطاء الأقل وإمساك الأكثر، والجود عكسه، والإيثار إعطاء الكل من غير إمساك لشيء وهذه أشرف الرتب وأعلاها وأحقها بالمدح وأغلاها فإن إيثار المرء غيره على نفسه أفضل من إيثار نفسه على غيره وكفى بهذه الجملة شرفًا، وقد مدح الله تعالى أهلها في قوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقالوا: الجواد من لم يكن جوده لدفع الأعداء ولا لطلب الجزاء كما قال عبد الله بن جعفر: أمطره معروفك، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً وإلا كنت له أهلاً.

وقيل لبعض الكرماء من أحب الناس إليك قال: من كثرت أياديه عندي قيل فإن لم يكن؟ قال: من كثرت أيادي عنده[١].

وقال عبد الملك بن مروان: خير المال ما أفاد حمدًا أو نفى ذمًا ولا يتركن أحدكم أبدًا بالمن يعول فإن الناس كلهم عيال الله تكفل بأرزاقهم فمن وسع أخلف عليه، ومن ضيق ضُيق عليه، وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه **وقال بعضهم:** عليكم بالمعروف فإنه ينفس أجره وذكره وذخره وضعوه عند ذوي الإحسان فإنهم أصوب له وأشكر لما يسدي إليهم.

قال عبد الملك بن مروان: ولله العجب ما أشد ما بنى قوله هذا وفعله وخالف سخاؤه بخله، وقد قسم خلائقه بين الإيجاب والسلب وخص لسانه بالمدح، وقلبه بالقلب.

وقال زهير لولده: عليكم باصطناع المعروف واكتسابه وتلذذوا بطيبه ونسيمه والرضا به، وارضوا مودات الرجال من أثمانه فرب رجل قد صغر من مال فعانى هو وعقبه الذكر الجميل وفي منعه[٢].

قال الشاعر:

وإن كـنت ذا حظ من المال فاكتسب ... بـه الأجـر وارفـع ذكر أهل المقابر

---

(١) أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد (١/١٩٥) وعزاه لمعاوية.

(٢) انظر: العقد الفريد (١/١٩٤).

وقال بعضهم:

سألت معوم القبر عمن ثوى به ما أعلم ما لاقى فقالت جوانبه
أتسأل عن من عاش بعد وفاته بمعروفه أخواته وأقاربه

وقال المكياني:

يا بني العلا والمجد والإحسان والفضل والمعروف أكرم فان
الجود رأي مسدد وموفق والبذل فعل مؤيد ومعان
والبر أكرم ما ربته خطيئته فالشكر أفضل ما حوته يدان
وإذا الكريم مضى وولى عمره كفل الثناء له بعمر ثان

وقال بعضهم: الدراهم مياسم تسمى حمدًا وذمًا فمن حبسها كان لها ومن أنفقها كانت له.

ونظم شاعر معنى فقال:

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه يملكه المال الذي هو مالكه
ألا إنما لي الذي أنا منفقه وليس لي المال الذي أنا تاركه

ورأى الأحنف في يد رجل دراهم فقال: لمن هذا الدرهم فقال: لي قال: لا يكون لك حتى تخرجه من يدك، إنما مالك لك، وللحاجة أو للورثة فلا تكون أحجز الثلاثة.

وقال شاعر:

جمعت مالا تعلم هاي جمعت له يا جامع المال أيامًا تفرقه
جمعت مالاً ولم تجمع له عمرًا ما لمالك مالك إلا حين تنفقه

وقال ابن معدي يكرب: عليكم بهذا المال فاطلبوه أجمل الطلب ثم أخرجوه في أجمل مذهب فصلوا به الأرحام، واصطنعوا به الكرام واجعلوه قية لأعراضكم ووصلة تصلون به إلى أغراضكم تحسن في الناس مقالتكم فإن بذله تمام الشرف وثبات المروءة وإنه ليسود غير السيد ويقوي غير الأسد حتى يكون عند الناس نبيلاً ويكون في القلب مهابًا جليلاً.

قال الحافظ: ليس شيء ألذ ولا أسر، ولا أنعم من عز الأمر والنهي، ومن الظفر بالأعداء، ومن تقليد عقود المنن في أعناق الرجال، فإن هذه الأمور تصيب الروح، وحظ الذهن وقسمة النفس ويقال إن أحببت أن يزاد في الإحسان إليك، وأن يثبت لديك ما أنعم به عليك فاقضِ حاجة من قصدك وأبسط له بالبشر وجهك وبالمعروف يدك.

وقال بعضهم: لا يمكن أحدكم المعروف فإن أصابه يعوض خيرًا منه، إما شكرًا في الدنيا أو ثوابًا في الآخرة المعروف (ليته) لا تأكله النار ولا يدنسه العار.

قال الأحنف: [ما ادخرت الآباء للأبناء] ولا أبقت الأموات للأحياء أكمل من المعروف عند ذوي الإحسان والآداب(١).

وقال الشاعر قصيدة:

أخالد إن المال يُبْقي لأهله ... جمالاً ولا تبقى الكنوز على الحمد
فكل والحكم من عاره مردة ... ولا تبقها إن العوارى للرد

قال الشاعر:

وقال الناس في الدنيا أحاديث ... تبقى ولا تبقى المواريث
فرحمت الله على مالك ... طابت له فيها الأحاديث

وقال المتنبي:

وأحسن شيء في الورى وجه محسن ... وأعف كف فهو كف منعم
وأشرفهم من كان أشرفهم ... وأشرف أقدامًا على كف معظم
لمن يطلب الدنيا إذا لم ... تسر وإن تحب أو إساءة محرم

ومن أحسن ما قيل:

تمتع من الدنيا بساعتك التي ... ظفرت بها أما لم يعقك العوائق
فما أمسك الماضي عليك بعائد ... ولا يومك الآتي به أنت واثق

وقال آخر:

---

(١) انظر: العقد الفريد (١/١٩٤).

إذا المال لم ينفع صديقًا ولم يهب **قريبًا ولم يجبر به حال معدم**
فعقباه أن يختاره كف وارث **وللباخل المورروث عقبى التندم**

قال الوارق:

تمتع بمالك قبل الممات **وإلا فلا مال إن أنت متا**
شقيت به ثم خلفته **لغيرك سحقًا وبعدًا ومقتًا**
يجود عليك بزور البكاء **وجدت له بالذي قد جمعتا**
وأوهبته كل ما في يديك **وخلاك رهنًا مما قد كسبتا**

وينتظم: في سلك هذه الأبيات ما رُوي في بعض الحكايات أن هشام بن عبد الملك لما احتضر رأى أهله يبكون فقال لهم:

جاد هشام لكم بالدنيا وجدتم له بالبكاء وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب يا سوء حال هشام إن لم يغفر الله له.

وقال بعضهم:

لا تحيهن بالرد وجه مؤمل **فلخير وقتك أن ترى رسولاً**
واعلم بأنك عن قريب صائب **خيرًا فكن خيرًا لمن يذوق جميلاً**

وقال يحيى البرمكي: إن الرجل ليأتيني ويدعي من العلم والأدب ما أعلم أنه فيه كاذب، فأعطي الجاهل ليرغب في العلم.

وقال بعض العرب:

أنا ابنة عبد الله وابنة مالك وما **نية وأذى الوردين والغرس الورد**
إذا ما عملت الزاد فالتمس له **الولا فإني غير آكله وحدي**
وكيف يسيغ المرء زادًا وحسرة **خفيف المعايا ذي الحصاصة والجهد**
كريمًا قصيا أو قريباً فإنني **أخاف مذمات الأحاديث من بعدي**
وللموت زيادة يا بخل ما **لا حظ إطراق الإكلين على همدي**

وقال ابن المعتز:

أيا عازلي في الندى لا تعزلي **لسائل ظل يشكو سطوة العدم**

وقال بعضهم:

ذريـــني وإتـــلافي المـــال فـــإنني أحـــب مـــن الأخـــلاق ما هو أفضل

وقال بعضهم:

فأنـــت تلـــوم علـــى بـــذل الـــنوال يـــد ولـــوع فغلـــب الكـــريم بالباقي
لا تجزعـــي أن تـــرى لي فاقـــة أسدًا فمـــن خـــزائن رب العـــرش إنفاقـــي

وقال بعض الحكماء(١):

الدنـــــيا غـــــرارة غـــــدارة فـــإن بقـــيت لـــك لم تـــبق لهـــا

وقال بعضهم:

بـــادر إن كـــنت في حـــال تُسَـــرُّ به لكشـــف معضـــلة أو بـــذل معروف
واســـتغنم الخـــير تأتـــيه وتفعلـــه ولا تشـــم بـــرق تعلـــيل وتســـويف
واسمـــع مـــن الدهر وافهم من مواعظه وكـــيف يـــأتي بتشـــتيت وتألـــيف

وما أحسن قول ابن حجاج:

خـــذ الـــوقت قنصًـــا واخـــتلس فـــوائده بالطـــيب أو بالطلـــب
ولا تعلـــل بالأمـــاني فإنهمـــا عطايـــا أدبـــت الـــنفوس الكـــواذب

وقال ابن شداد:

لا تـــزهدن في المعـــروف فـــإن الدهـــر ذو صـــروف
والأيـــام ذوات نـــوائب علـــى الشـــاهد والغائـــب
كـــم مـــن ذوي رغـــبة صار مرغوباً وكم من طالب صار بما لديه مطلوبًا (٢)

ويقال: انتهز الفرصة قبل أن تجرع الغُصة.

وقالوا: الفرصة سريعة الذهاب بطيئة الإياب ينتهزها العاقل ويذهل عنها الغافل.

---

(١) انظر: المدهش (١/١٧٤).

(٢) انظره في: جمهرة خطب العرب (٢/٥٠٤)، والبيان والتبيين (ب/٢٧١، ٣٤٣)، والمستظرف (١/٣٥٥).

وقال القائل:

أحسن وأنت معاني إليّ أيها الإنسان   إن الـزمان فـروض كما تدين تدان

وقال بعضهم:

لـيس في كـل سـاعة وأوان   تتهـيأ صـنائع الإحسـان

فـإذا أمكنـتك فـبادر إلـيها   حـذرًا مـن تعـذر الإمكـان

واغتـنمها إن قـدرت علـيها   حـذرًا مـن تغـير الأزمـان

أحـزم الـناس مـن إذا أحسن الدهر   إلـيه يلقـى الإحسـان بالإحسـان

قال ابن النقيب:

الحمـد لله أنفـع مـا اجتـناه المجتني   والمجـد أرفـع مـا ابتـناه المبـتني

فـإذا ولـيت وكـان أمـرك نافـذًا   فادخـر صـنعًا في الـولاية وابـتني

مـن قـبل أن يسـعى لهـا فـتفوته   ويقـول عـند فـواتها يـا ليـتني

وقال ابن هند:

وإذا هـبت رياحـك فاغتـنمها   فـإن لكـل خافقـة سـكون

ولا تغفـل عـن الإحسـان فـيها   فـلا تـدري السـكون مـتى يكون

وقال بعضهم:

لا تقطعـن عـادة الإحسان عن أحد   يقـدر الأيـام تـارات

واذكـر فضـيلة صـنع الله إذ جعلت   إلـيك لا لـك عـند الناس حاجات

ومما يلزم الكريم الماجد بشر الوجه المسائل والواقد.

قالوا: البشر أول البسر وهو دال على السخاء كما يدل الشجر على المطر والنوار على الثمر.

وقال أبو العتاهية:

طوبي لمن جرت الأمور الصالحات على يديه   للخير هذا ولا تزال وجوههم تدعو إليه

وقال آخر:

تـراه إذا مـا حييـته مـتهللاً   كأنـك معطـيه الـذي أنـت سائله

ولــو لم يكــن في كفــه غــير نفسه لجــاد بهــا فليــتق الله ســائله

وقيل لعبد الله بن جعفر: وكان جوادًا اقتصد في العطاء فإن من ذهب ماله ذل فقال: إن الله عودني بالإفضال عليّ، وعودته بالإفضال على عباده فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني إمداده لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

الفصل الثالث

في بعض حكايات الأسخياء والأخيار

وذلك بحر ما له قرار، وإنما اقتصرنا فيه على أنموذج قليل: فأسخى الناس على الإطلاق المصطفى ﷺ ففي الحديث الصحيح أنه ما سئل شيئًا قط فقال «لا»[١] **فإن يكن عنده أعطى وإن لم يكن عنده استدان. أعطى عيينة بن حصين من الإبل مائة وأعطى أقرع بن حابس مثلها، وأعطى أعرابيًا غنما بين جبلين فانطلق الأعرابي وقال لقومه: أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفقر»** [٢].

وقال أنس بن مالك ﷺ أتي النبي ﷺ بمال من البحرين لم يؤت قبله بمثله فوضع في المسجد ثم خرج فصلى فلما فرغ جلس فدعى بالمال فما رأى أحدًا إلا أعطاه منه، ولم يقم حتى فرق جميعه فجاء عمه العباس فقال: يا رسول الله إني فديت نفسي، وفديت عقيلاً، فقال المصطفى ﷺ: «**خذ**» فحثي في ثوبه حتى ذهب ليقوم فلم يستطع فقال: يا رسول الله مر من يرفعه علي، **فقال: لا** قال: فارفعه أنت، **قال: لا** فنثر منه ثم احتمله على كاهله وذهب، فما زال النبي ﷺ يتبعه ببصره حتى خفي عنه تعجبًا من حرصه[٣].

ومن أجود العرب في الجاهلية الذين ضرب بهم المثل في الجود ثلاثة[٤]: كعب ابن أمامة الأيادي، وهرم بن سنان النمري، وحاتم الطائي.

وقد جمعهم شاعر في بيت من الأبيات:

لو أدرك العصر ابن كعب وابن الهرم ... وابن حاتم جود كفيه لما ذكروا

ومن أجود العرب في الإسلام: عمرو بن عبد مناف، فإنه أول من هشم الثريد وجمع عليه قومه فسمي لذلك هشامًا.

ومن أجوادهم: عبد الله بن عباس،وأخوه عبيد الله بن عباس، فمن المأثور عن عبد

---

(١) رواه البخاري (٥٦٨٧)، ومسلم (٢٣١١)

(٢) رواه البخاري (٤١١)، (٤٩٩٤)، ومسلم (٢٩٦١).

(٣) لم أعثر عليه، وترده الأحاديث الصحيحة المشهورة في رده ﷺ أخذ الصدقة هو وآله شرفهم الله شرفًا على شرفهم.

(٤) انظر في أخبارهم: العقد الفريد (١/٢٤١).

الله أن رجلاً أراد مضارته فأتى وجوه قريش وهم جلوس في فضاء الكعبة وقال: يقول لكم عبد الله تغدوا عنده اليوم فأتوه عند الغدى فملئوا البيت فسألهم عن سبب مجيئهم فأخبروه الخبر فأمر بعض خدامه بشراء فاكهة وآخرين بنحر إبل، وآخرين بأن يطبخوا، وقدم الفاكهة لهم فلم يفرغوا منها حتى قدمت الموائد، فأكلوا حتى شبعوا وانصرفوا ثم قال: لوكيله: - أيوجد مثل هذا كل يوم إذا أردناه؟ قال نعم قال: فليتغدوا عندنا كل يوم(١).

وجاء إليه رجل من الأنصار، قال: يا ابن عم رسول الله ﷺ ولد لي الليلة مولود سميته باسمك تبركًا بك ولكن أمه ماتت، قال عبد الله، بارك الله لك في الهبة وأجزل لك الأجر على المصيبة، ثم أمر وكيله أن يشتري للمولود جارية تحضنه، ودفع لوالده مائتي دينار نفقة وقال قد جئتنا وفي المال قلة وفي الحال ضعف، فقال الأنصاري: جعلت فداك والله لو سبقت حاتم بيوم ما ذكرته العرب، وأنا أشهد أن عفو جودك أكثر من محموده وظل كرمك أغزر من وابله(٢).

وأما عبيد الله: فإنه كان لفرط جوده يسمى بعلم الجود وهو أول من وضع الموائد على الطرق، وكانت نفقته خمسمائة دينار وكان إذا خرج من دون الطعام طعام إلى رحابه ومجالسه لا يرد إليها منه شيء فإن لم يوجد من يأكله ترك مكانه فربما أكلته السباع.

واجتمع قراء البصرة إليه حين كان عاملها وقالوا: لنا جار صوام قوام زوَّج بنته من ابن أخيه وليس عنده ما يجهزها به فأدخلهم داره وأخرج لهم سبعة بدر فحملوها، فقال ابن عباس: ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه، ارجعوا ولنكن أعوانه على تجهيزها، فليس بالدنيا يقدر ما يشغله عن عبادة ربه ففعل وفعلوا، وكان هو والناس في ماله سواء، من سأله أعطاه ومن لم يسأله ابتدأه فلا يرى أنه يفتقر فيقتصر لا يرى أنه محتاج فيدخر.

وكان يقال: من أراد الجمال والفقه والسخاء فليأت دار العباس فالجمال للفضل والفقه لعبد الله، والسخاء لعبيد الله.

---

(١) انظر: العقد الفريد (١/٢٤٦).

(٢) انظر: العقد الفريد (١/٢٤٩).

ومدحه بعضهم فقال:

أسـلج مـن حاجبـيه نـوره إذا تغـذى رفعـت سـتوره

يـزينه خـباؤه وخـيره ومسـكه يشـوبه كافـوره

ومن الأجواد عليٌّ بن أبي طالب: حكى الطيبي في شرح المشكاة: أن مؤذنًا لعلي قال لجارية من جواريه مرت عليه أنا أحبك، فشكته إليه فقال: قولي له وأنا أحبك فأي شيء بعد هذا، فقالت له ذلك فقال: إذن أصبر حتى يحكم الله بيننا، فذكرت ذلك لأمير المؤمنين فدعى بالمؤذن وسأله عن القصة فأخبره بالصدق، فقال: خذ بيدها فهي لك وقد حكم الله بينكما.

ومن الأجواد عمر بن الخطاب ﷺ: قال الأعمش: كنت عنده يومًا فأتي باثنين وعشرين ألف درهم فلم يقم من مجلسه حتى فرقها.

وكان إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به، وكان كثيرًا ما يتصدق بالسكر فقيل له في ذلك فقال: إني أحبه وقد قال الله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وأعتق ألف نسمة، وإذا رأى عبدًا من عبيده ملازمًا للصلاة أعتقه فقيل له: إنهم يخدعونك، فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له.

وأتى له أعرابي وقال:

يـا عمـير الخـير جـزيت الجـنة اكسـي بـناتي واتهـنه

وكـن لـنا مـن الـزمان جـنة أقسـم بـالله لتفعلـنه

فقال عمر ﷺ: إن لم أفعل يكون ماذا؟ قال:

يـوم يكـون الأعطـيات بقـند يكـون حسـن حـالي لتسـألنه

إمـا إلى نـار وإمـا إلى جـنة وموقـف المسـئول بينهـنه

فبكى عمر ﷺ حتى اخضلت لحيته ثم قال: يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره، أما والله لا أملك غيره.

من الأجواد الحسين بن علي بن أبي طالب: سمع رجلاً يقول: اللهم اعطني عشرة آلاف درهم فأخذ بيده وانطلق به إلى منزله فأعطاه ذلك. وخرج عما في يده

من المال مرتين، وقاسم الله ماله ثلاث مرات حتى أنه أعطى نعلاً وأمسك نعلها.

ومن الأجواد عثمان بن عفان ﷺ: اشترى بئر رومة بأربعين ألف درهم ووقفها على المسلمين وأنفق في جيش العسرة عشرة آلاف دينار فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ظهرًا لبطن وهو يقول: «**غفر الله لك يا عثمان ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ولا تبالي ما عملت بعد اليوم**».

وأصاب الناس قحط في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ فلما اشتد بهم الأمر جاءوا إلى أبي بكر الصديق وقالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ، إن السماء لم تمطر والأرض لم تنبت وقد توقع الناس الهلاك فما تصنع؟ فقال: انصرفوا واصبروا فإني أرجو الله لا تمسوا حتى يفرج الله عنكم، فلما أصبحوا خرجوا يتلقونها فإذا هي ألف بعير موثوقة برًا وزيتًا ودقيقًا فأناخت بباب عثمان ﷺ فجعلها في داره فجاء إليه التجار فقال: ما ترون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد، فقال: كم تربحوني؟ قالوا اللهم درهمين، قال: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: أربعة، قال: أعطيت أكثر، قالوا: خمسة، قال: أعطيت أكثر، قالوا: ليس في المدينة تجار غيرنا فمن الذي أعطاك، قال: إن الله تعالى أعطاني بكل درهم عشرة دراهم أعندكم زيادة، قالوا: لا، قال: فإني أشهدكم الله تعالى أني جعلت ما حملت العير صدقة لله على الفقراء والمساكين.

ومنهم الإمام الحسين بن علي ﷺ: وسأله رجل حاجة فقال له: حق سؤالك إياي يعظم لدي معرفتي بما تحب لك يكثر علي، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله والكثير في ذات الله قليل، وما في ملكي وفاء لشكرك فإن قبلت الميسور ورفعت عني مؤنة الاحتمال والاهتمام لما تكلفه من واجبك فعلت، فقال: يا بن رسول الله ﷺ، أقبل وأنا شاكر العطية وأخذك على المعنى، فدعى بوكيله فحاسبه فلم يفضل عنده إلا خمسمائة دينار، ومائة ألف درهم، فدفعها له كلها، فقال له مواليه: ما عندنا درهم، قال: أرجو أن تكون لي عند الله تعالى أجرًا عظيمًا.

ومنهم الزبير بن العوام ﷺ: كان له ألف عبد يؤدون إليه الخراج كل يوم فما يدخل بيته منهم درهمًا بل يتصدق به كله.

ومنهم عبد الرحمن بن عوف: باع أرضًا من عثمان بن عفان ﷺ بأربعين ألف درهم، فقال: سقا الله ابن عوف من سلسبيل الجنة.

وحمل في عهد رسول الله ﷺ مرة على خمسمائة فرس في سبيل الله، ومرة على ألف

وخمسمائة راحلة في سبيل الله، وشاطر الله ماله ثلاثة مرات، وأمر أن يتصدق بعد موته بثلث ماله، فعوفي به فتصدق به بنفسه، وأعتق ثلاثين ألف عبد.

وجلس مرة في بيته على عهد المصطفي ﷺ وكتب جريدة بتفرقة جميع ماله على فقراء المهاجرين والأنصار حتى كتب أن قميصه الذي على بدنه لفلان، ثم لما صلى مع رسول الله ﷺ الصبح وناوله الجريدة فنزل جبريل عليه السلام بمحمد وقال: يا محمد ربك يقرئك السلام وكذا لعبد الرحمن، يأمرك أن ترد له جريدته وتقول له إن الله تعالى قبل صدقتك، وأنت وكيل الله ووكيلك فيما يصنع في ماله ما يشاء ويتصرف فيه كما كان ولا حساب عليه.

ومنهم سعد بن العاص: سأله رجل فقال لغلامه: أعطه خمسمائة فمضى الغلام ثم رجع إليه مستفهمًا أدينارًا أو درهمًا، فقال: ما كنت أردت إلا درهمًا، وأما وإذا رجعت فصيرها دنانيرًا، فجعل الرجل يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ قال: أبكي على أن الأرض تأكل مثلك.

ولما عزل عن المدينة انصرف ليلة من المسجد إلى منزله فرأى رجلاً يتبعه، فقال له: ألك حاجة، فقال: لا. ولكني لما رأيتك وحدك وصلت جناحك فقال: وصلك الله يا ابن أخي اطلب لي جلدًا أو ادع لي مولاي فلان، فأتاه به، فكتب له حكمًا بعشرة آلاف درهم وأشهد قومًا عليه وقال: إذا جاءت غلتنا دفعنا ذلك فمات سعيد في ذلك العام فجاء الرجل بالصك إلى مولاه عمر فأمضاه وأعطاه العشرة آلاف درهم.

ومنهم قيس بن سعيد بن عبادة: روي أن سعيدًا بعث بعثًا عليهم قيس بن سعد مجهد وانتحر لهم زيد سبع ركايب فبلغ النبي ﷺ فقال: **«إن الجود لمن شيمة أهله ذلك**[1] **ومرض فاستبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له: إنهم تخلفوا عنك حياء لما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع إخوانه من العيادة، ثم أمر مناديًا من كان لقيس عليه دين فهو منه في حل، فأتوه من كل فج حتى تهدم درج منزله من عشية ذلك اليوم، وكان مناديه ينادي على الأطر أي على القصر: من كان يريد شحمًا ولحمًا فليأت دار سعد».**

(١) تقدم في رقم (٣٩).

ومنهم معاوية بن أبي سفيان: قال عبد الله بن نمر: ما رأيت أحدًا بعد رسول الله ﷺ أجود من معاوية وهو أول من أعطى ألف ألف درهم في صدقة وكان يعطيها للحسن والحسين وعبد الله بن جعفر فلما انصرفوا من المدينة قال الحسن بن علي لأخيه الحسين: لا تلقه ولا تسلم عليه وأخبره بدينه فبينما يتحادثان إذ مر بختني قد أعياه ما غلبه من المال فقال: اصرفوه لأبي محمد وكانوا ثمانين ألف دينار(١).

ولما مات معاوية: ولي ابنه يزيد ودخل عليه عبد الله بن جعفر وقال له: إن والدك كان يصل رحمي في كل عام بألف ألف درهم فقال يزيد: نعم وكرامة أعطوه ألف ألف، وألف ألف، فقال عبد الله: بأبي أنت وأمي، وما قلتها لأحد غيرك، فقال يزيد: لا جرم إني أضعفها لك زيدوا له ألف ألف، وألف ألف أخرى، فخرج عبد الله بأربعة آلاف وما هي في يده إلا عارية.

ولم تزل أعطيات الخلفاء ألوف الألوف وكان آخر من فعلها من الخلفاء المنصور على نجله الرزاز بن الحسن بن سهل.

ومن مشاهير الأجواد: الطلحات الستة: طلحة بن عبيد الله التيمي، وهو طلحة الفياض، وطلحة بن عمر بن عبد الله بن معمر التيمي، وهو طلحة الجود، وطلحة بن عبد الله بن عوف الزهري أخي عبد الرحمن بن عوف، وهو طلحة الخير، وطلحة بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عوف الزهري، أخي عبد الرحمن بن عبد الله بن خلف الخزاعي، وهو طلحة الطلحات، وسمي بذلك لأنه كان أجودهم، وذلك أنه وهب في عام واحد ألف جارية فكانت كل جارية منهن إذا ولدت غلامًا تسميه طلحة على اسم سيدها.

وقال الحسن باع طلحة أرضًا بسبعمائة ألف درهم فبات عنده سواد الليل فلما أصبح فرق جميعه.

ومدحه المغيرة بقصيدة قال فيها:

فإن تدن مني تدن منك مودتي ... وإن تنأ عني تلقني عنك نائيًا

فأخرج له درجًا فيه حجارة ياقوت وقال له: اختر حجرين منهما أو أربعين

---

(١) في هذه القصة نظر كبير، حيث بطلان إعطاء الصدقة لآل بيت النبي ﷺ لورود نص في ذلك، وقد تحدث عن مصدر واحد في تلك القصة فلم أجده.

ألف درهم، فقال: ما كنت أختار حجارة على أربعين ألف درهم، فأمر له بها فلما قبضها سأله حجرًا فأعطاه إياه فباعه بأربعين ألف درهم أيضًا.

ومن الأجواد عبد الله بن جعفر الطيار ﷺ: وكان يسمى بحر الجود، ولم يكن في عصره أجود منه، وقف على بابه يومًا أرباب الحاجات ينتظرون خروجه فما سأل أحد حاجة إلا قضاها لهم وكان فيهم نصيب الشاعر فلما نظر إلى صنعة تقدم إليهم وأنشد:

ألفت نعم حتى كأنك لم تكن عرفت من الأشياء سوى نعم

فقال له عبد الله: ما حاجاتك؟ قال: هذه رواحلي تميزني عليها قال: بخ بخ وأوسقها له برًا وتمرًا وأمر له بعشرة آلاف درهم وثياب فلما انصرف قيل له: يا ابن الطيار أتعطي هذا كله لهذا العبد الأسود، فقال: إن كان أسود فشعره أبيض وإن كان عبدًا اقتناه لحر وهل أعطيناه إلا رواحل تمضي وطعامًا يفنى، وثيابًا تبلى.

وقفت عجوز سوداء فقال لها: ما شأنك؟ قالت: عجوز ألجأها فقر وأضرها حاجة أو قالت: هل من خبز، فقال لوكيله: ادفع لها ما عندك فكان ثمانين دينارًا فقال له وكيله: نحن بسبيل سفر لا بد منه ونريدها ، وهذه السوداء لا تعرفك، وكان يكفيها سد حاجتها، فقال: هي وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي وإن كانت سوداء فأجرها أبيض.

وابتاع حائط نخل من رجل أنصاري بمائتي ألف درهم فرأى ابنًا للرجل يبكي فقال له: ما يبكيك؟ قال: كنت أطلب أنا وأبي غوثًا قبل خروج هذا الحائط من الدنيا ولقد غرست بعض نخله بيدي فدعى أباه ورد عليه الصك وسوغه المال.

ومنهم عبد الله: لما قدم من الشام يريد المدينة فأتى على قوم من العرب تحاربوا وقتلت بينهم القتلى فأعطاهم ثلثمائة درهم وصنع طعامًا نحر فيه نحو مئة جذور وأنفق عليهم مالاً وأصلح بينهم فقال فيه شاعرهم:

ما لبحر أجود من كفيه حين طما ولا السحاب إذا ما راح محتفلاً

أغاثنا الله بالمحمود شيمته شبه النبي الذي قفى به الرسلا

أعطى مجاز المنى منا وأطعمنا ولم يكن قط منانًا بما فعلا

ومنهم عرابة الأوسي: اجتمع جماعة بفناء الكعبة فتذاكروا الأجواد وتلاحقوا ثلاثة منهم فقال أحدهم: أجود الناس عبد الله بن جعفر، وقال أحدهم: أجود الناس

قيس بن سعد، وقال الآخر: أجود الناس عرابة الأوسي، وكثر نزاعهم فقال رجل: ليمض كل واحد لصاحبه حتى ننظر ما يعطيه ونحكم على العيان، فقام صاحب عبد الله فصادفه قد وضع رجله في الركاب يريد سفرًا، فقال له: يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن سبيل ومنقطع به، فثنى رجله وقال له: خذ الناقة بما عليها ولا تخدع علي السيف فإنه من سيوف ابن أبي طالب قوم علي بألف دينار، فجاء بالناقة بما عليها من مطارف خذ وأربعة آلاف دينار وأعظمها السيف.

ومضى الآخر إلى قيس بن سعد فوجده نائمًا فقال غلامه: ما حاجتك؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به، قال حاجتك أيسر من أن أوقظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار والله ما في داره اليوم غيرها خذه وامض إلى معاطن الإبل بعلامة كذا إلى من فيها فخذ راحلة وعبدًا وامض، لشأنك فلما انتبه قيس وأعلمه غلامه بما صنع أعتقه، قال: هلا أيقظتني فكنت أزيده.

ومضى صاحب عرابة إليه فلقيه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو متوكي على عبدين وقد كف بصره فقال: ابن سبيل ومنقطع به فتخلى عن الغلامين وصفق بيده وقال: أواه ما تركت الحقوق لعرابة مالاً خذ العبدين فقال الرجل: ما كنت بالذي أقص جناحيك قال: إن لم تأخذهما فهما حران فإن شئت خذ وإن شئت فاعتق ورفع يديه عنهما وتركهما وأقبل يلتمس الحائط بيده، فأخذ الرجل الغلامين ومضى فأجمع الناس على أن عرابة أجود الثلاثة لأنه أعطى جهد من مقل وغيره أعطى من سعة وفضل.

وفي عرابة يقول الشماخ:[(١)]

رأيت عرابة الأوسي[(٢)] يسمو ... إلى العلياء منقطع القرين

إذا ما رأته رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

ومنهم عبيد الله بن أبي بكرة واسمه أبو نفيع قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ولا فراطه في الجود**».

---

(١) في المطبوعة الشماع، وهو خطأ. وانظر: الأغاني (٩/١٦٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٦)، والمستطرف (١/٢٩٨)، وجمهرة خطب العرب (٢/٣٩١).

(٢) هكذا في المصادر السابقة وفي المطبوعة (الأوس).

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج أن لا عملاً فإنه أرجى وسع له رجل في مجلس فلما قام قال للرجل الحقني فلحقه فأمر له بعشرة آلاف درهم وأثابني داراً بالبصرة أنفق عليها عشرة آلاف دينار، فدخل عليه فيها بعض أصحابه فاستحسنها فقال: هي لك بما فيها من الفرش والأثاث والرقيق فقال الرجل: عمرها الله بك ومتعك بها فقال: والله لا تقبلتها فقبلها.

وولاه عبد الله بن زياد سجستان وأمره بهدم ما فيها من بيوت الأشراف فهدمها وأخذ ما فيها من الأموال المعدة للنفقة على سدنته فكانت أربعة آلاف درهم فما أتى عليه الحول حتى استدان.

ودخلت امرأة من هوازن على ابن أبي بكرة فوقف بين السماطين وجعلت تلطخه بوجهها فترة وتستره أخرى فلما أبصرها قال لجلسائه: ما عليكم أن تقوموا حتى تنظروا حاجة هذه المرأة فتقدمت إليه وقالت: أصلح الله الأمير إني أتيتك من أرض شاسعة ترفعني رافعة وتخفضني خافضة لملمات قد أكلن لحمي وبرين عظمي وتركتني أعض العريض لما ضاق لي من البلد العريض، وقد جئت بلدًا لا أعرف فيها أحدًا. لا قرابة تكشفني ولا عشيرة تعرفني، فسألت أحياء العرب من المرجو نائله، فأرسلت إليك ودخلت عليك وأنا أصلح الله أمرك امرأة قد هلك عنها الوالد والولد وذهب الطارف والتالد ومثلك من يسد الخلة ويزيح العلة فإما أن تحسن صفدي فتقيم أودي وإما أن لا تردني إلى بلدي، فقال: بل أجمع لك كل ما ذكرت وأمر لها بعشرة آلاف درهم وزاد وكسوة وراحلة.

ومنهم أسماء بن خارجة: رجع يومًا إلى داره فرأى فتى جالسًا عليها فقال: ما أجلسك ها هنا قال خير، قال: والله لتخبرني قال: جئت سائلاً أهل هذه الدار ما آكل فخرج إلى منها جارية أخذت قلبي وسلبت عقلي فأنا جالس لعلها تخرج ثانياً فأنظر إليها، قال أتعرفها إذا رأيتها قال، نعم، فدعى بمن في الدار من الجوار وجعل يعرضهن عليه واحدة واحدة حتى مرت الجارية فقال: هذه، قال: قف مكانك ودخل داره وخرج بالجارية ودفعها إليه وقال: إنما أبطأت عليك لأنها لم تكن لي بل كانت لبعض بناتي فابتعتها منها وقد وهبتها لك وخذ هذه الآلاف أصلح بها شأنك.

وقصد الحكم بن عبدل الشاعر أسماء بن خارجة فأنشده:

أعفيت قبل الصبح لؤم مسهدة   في ساعة ما كنت قبل أنامها

فـــرأيت أنـــك دعـــتني بـــبغلة شـــهباء ناجـــية تصـــل لجامهـــا
وبـــيدرة حملـــت إليّ ولـــيدة مغـــناجة حســـن لـــدى قـــيامها
فســـألت ربي أن يثيـــبك جـــنة عوضًـــا يصـــيبك بـــردها وســـلامها

فقال: أصبت كل شيء رأيته عندنا إلا البغلة فإنها دهماء فقال: أذكرتني أيها الأمير ما رأيتها إلا دهماء، فضحك منه وأعطى له أسماء كل ما سأل.

وحكى أبو الفرج الأصبهاني: أن هذه الحكاية جرت لابن عبدل مع بشر بن مروان أخي عبد الملك[1].

ومنهم يزيد بن أبي صفرة: ودخل عليه الكوثر بن زفر الكيلابي حين ولاه سليمان بن عبد الملك العراق وقال له: أنت والله أكبر قدرًا من أن يستعان عليك إلا بك ولست تصنع من المعروف شيئًا إلا وهو أصغر منك وليس العجب منك أن تفعل بل العجب أن لا تفعل فقال: سل حاجتك قال: تحملت عشر ديات وقد هاضني ذلك فأمر له بها وشفعها بمثلها، فقال له الكوثر: أما ما سألك لوجهي فأقبله منك، وأما الذي رمته يبذل مسئلتي إياك وبذل وجهي لك أكبر من معروفك عندي فكرهت الفضل لك علي، فقال يزيد: فأنا أسألك مما سألتني أسألك بحقك علي لما أهلتني به من إنزال الحاجة بي ألا قبلتها؟ ففعل.

ومنهم معن بن زائدة الشيباني: ويكفيه أن يقال فيه حدث عن البحر ولا حرج، وعن معن ولا حرج، وهو أول من عمل البيمارستان وأخرج الصدقات على الزمنى والمجذومين والعميان والمساكين واستخدم لهم الخدام.

اليزيد بن عبد الملك: وهو أول من تكبر من الخلفاء وأنف أن يدعى باسمه كما كان يدعى من قبله، ويكفيه منقبة بناؤه جامع دمشق الذي هو أحد عجائب مباني الدنيا. ويقال: إنه أنفق فيه خراج الشام تسع سنين، تعرض له رجل فقال له: أيها الأمير احملني، قال له: أعطوه جملاً وفرسًا ونعلاً وحمارًا وجارية ثم قال له: لو علمت أن الله سبحانه وتعالى خلق لك مركوبًا سواهم لأمرت لك به.

ومدحه بعضهم بأربعة أبيات فأعطاه أربعة آلاف دينار فبلغ المنصور، فقال

---

(١) انظر: الأغاني (٢/٣٩٩)، (١٦/٢٣٢).

علي بالأعرابي الجلف، فاعتذر إليه وقال: إنما أعطيته على جودك.

ووفد أعرابي عليه فقال له ابن زائدة: من أنت؟ قال: رجل من العرب وهم أصلك وقومك فلا تشغلني بالسؤال عما هم فيه من سوء الحال فقال: فما حاجتك؟ قال: ضاق بي بلدي وكثر ولدي وضعف جلدي، وقلت ذات يدي فأتيتك يا مغيث اللهيف وجابر الضعيف أملاً لجودك راجيًا لزودك، قال: فهل من قرابة تمت بها أو يد يتوسل بمثلها قال: أنت أفضل أن يبتدي مثلي إلى مثلك أو يتوسل إليك بغير فضلك أو يتمحل الحيل عليّ بذلك وقد قلت في ذلك شعرًا فقال: هات فأنشده يقول:

أيـــا جــــود معـــن نـــاج معنا بحاجتي فمـــا لي إلى معـــن ســـواك رســـول

قال: إذًا لا أشفعنك فيك، فقال الأعرابي: ما أنت بالبخيل فأوجه الذم إليك ولا أوليت ما يحسن ثنائي عليك ثم انصرف وهو يقول:

بــــأي الخصـــلتين علـــيك أثـــني فـــإني عـــند مصـــرفي مســـئول

أبالحســـنى ولـــيس لـــه صـــياء علـــيّ فمـــن يصـــدق مـــا أقـــول

فرق له وأجزل صلته.

ووقف أعرابي في طريقه فأنشده:

يـــا واحـــد العـــرب الـــذي أضـــحى ولـــيس لـــه نظـــير

لـــو كـــان مـــثلك في الـــورى مـــا كـــان في الدنـــيا فقـــير

فأمر له بألفي دينار.

وقال الرجل: إني جعلت فضلك سببي إليك وكرمك وسيلة عندك قال: سل. قال ألف درهم، قال معن: قد أربحتني أربعة آلاف درهم وإني حدثت نفسي أن أعطيك خمسة آلاف، قال: أنت أكبر من أن تربح على مؤمليك فأعطاه خمسة آلاف.

وأنشده أعرابي:

كتـــبت نعـــم بـــبابك حـــين يدعـــوا إلـــيك الـــناس ســـفرة الـــنقاب

وقلـــت إلا علـــيك بـــباب غـــيري فإنـــك لـــن تـــرى أبـــدًا بـــابي

فأعطاه ألف دينار[1].

ومنهم عائشة رضي الله عنها: قالت أم درة، بعث ابن الزبير إليها المال في غرارتين فدعت بطبق فعجلت تقسمه بين الناس فلما أمست قالت للجارية: هلمي فطوري فأتت بخبز وزيت فقالت لها أم درة: أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري بدرهم لحمًا فقالت: لو ذكرتيني لفعلت.

ومنهم بنو برمك: الذين توارثوا الكرم خلفًا عن سلف وهم ستة، خالد وولده يحيى وأولاده: الفضل وجعفر وموسى ومحمد، فأما خالد فلم يرتضع ثدي الخلاف صبيًا إلى أن بلغ من الكبر عتيًا فمن جوده أنه لم يكن لأحد من أصحابه ولدًا إلا من جارية قد وهبها له ولا دارا من دور أنفق عليها ماله.

وكان القصاد يسمون قبل أيامه السؤّال فكره ذاك ورأى أنها نقص فيهم فسماهم بالزوار وكانوا يكتبون إليه في المواسم أسماءهم وتعرض عليه فيخص لكل واحد منهم على حدته ويسأله بما يمت إليه فيعطيه بقدر إماتته [تكون] منزلته.

وتقدم إليه رجل فقال له: بماذا تمت، فقال: والله مالي من ماتة ولا حرمة ولا وسيلة ولكن رغبت إليك لحسن الظن فيك وألبته بكرمك وما بلغني من جودك، فقال: ما ههنا أحد ولي ملك بالعطية فأجزل صلته.

وسأله آخر فقال: حرمتي بالأمير أنه جمعني وإياه في مسجد بجرجان في يوم كذا في شهر كذا فصلينا فيه، فقال: حرمة لا تدفع وأمر له بصلة وفيه يقول بشار بن برد:

لعمري لقد أجدى عليّ ابن برمك ... وما عنده الغنى يجدي

جلبت بشعري راحتيه فدرتا ... عليّ كما در السحاب على الرعد

أخالد إن الحمد يبقى لأهله ... جمالاً ولا تبقى الكنوز مع الكندي

فأطعم وكل من عارة مستردة ... ولا تبقها إن العوارى للرد

وكان ابنه يحيى سالكًا في سنته آخذًا في الجود بفرائضه وسننه وفيه يقول سلم الخاسر:

---

(١) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (١/٣٦٧، ٤٩٥)، والأغاني (٣/١٧٢، ٢٨٧)، (٢٠/٤٧).

يـــا أيهـــا الملـــك الـــذي ... أضـــحى وهمـــته المعـــالي
أنـــت المـــنوه باسمـــه ... عـــند الملمـــات الـــثقال
ثم الـــذي أمـــواله ... عـــند المحـــاق غـــير مـــال
لله در مـــن قـــف ... مـــا فـــيك مـــن كـــرم الخـــلال
يحـــيى بـــن خالـــد الـــذي ... يعطـــي الجـــزيل ولا يـــبالي
أعطـــاك قـــبل ســـؤاله ... وكفـــاك مـــن ذل الســـؤال
ملـــك خـــلا مـــن مالـــه ... ومـــن المـــردان غـــير خـــالي
وإذا رمـــاك بمـــوعد ... كـــان الـــنوال مـــع المقـــال

وأولاده: سادوا فشادوا ما أسس، وحادوا فزادوا المن بما عز، فلهم طارف السخاء وتليده، وكهل الثناء ووليده، فالفضل في جوده ونزاهته، وجعفر في بلاغته وفصاحته، وموسى في نجدته وشجاعته، ومحمد في مروءته وبعد همته.

وفيه قال الشاعر:

أولاد يحـــيى أربـــع ... كالأربـــع الطـــبائع
فهـــم إذا اختـــبرتهم ... طـــبائع الصـــنائع
لكـــن الفضـــل كـــان ... لتلقـــى العفـــاة أبســـطهم
وأمضـــاهم بالصـــلة ... عـــزيمة وأنشـــطهم

وفيه قال الخياط المدني:

لمســـت بكفـــي كفـــه أبتغـــي الغـــنا ... ولم أدر أن الجـــود مـــن كفـــه يعـــدي
فـــلا أنـــا ممـــن قـــد أفـــاد ذوو الغنا ... أفـــدت وأعدائـــي فأتلفـــت ما عندي

وفيهم قال سلم الخاسر:

سأرســـل بيـــتًا قـــد وســـم جبيـــنه ... بقطـــع أعـــناق البـــيوت الشـــوارد
أقـــام الـــندى والجـــود في كـــل بلدة ... أقـــام بهـــا الفضـــل بن يحيى بن خالد

وقال أبو الهول مروان بن أبي حفصة:

لــك الفضــل يا فضل بن يحيى بن خالد ... ومــا كــل مــا يدعي بفضل له الفضل
وأي الـــناس فضـــلاً منك في الناس شائعًا ... فســماك فضـــلاً ما تبغي الاسم والفعل
وزادك فضـــلاً أن أهلـــك في الـــورى ... إذا أزرى بـــذي الشـــرف الكهـــل
ولم يــبق فــيك الجــود للبخل موضعًا ... فأصــبح يســتعدي على جودك البخل
إن أكـــذبت أسمـــاء قـــوم علـــيهم ... فأسمـــاك صـــديق شـــاهد لـــه عـــدل

وقال بعضهم:

روى الفضـــل عـــن يحيى سماحة خالد ... فقـــام بـــه الـــتقوى وقـــام بـــه البذل
وقـــام بـــه المعـــروف شـــرقًا ومغربًا ... ولم يـــك للمعـــروف بعـــد ولا قـــبل

وقال الحسن بن مطير:

رأى الله الفضـــل بـــن يحـــيى فضـــيلة ... فضـــلته والله بالـــناس أعلـــم
لـــه يـــوم بـــؤس فـــيه الـــناس أبؤس ... ويـــوم نعـــيم فـــيه الـــناس أنعـــم
فيمطـــر يـــوم الجـــود مـــن كفه الندى ... ويمطـــر يـــوم الـــبؤس مـــن كفـــه الدم
ولـــو أن يـــوم الجـــود خلـــى يميـــنه ... علـــى الـــناس لم يصبح على الأرض معدم
ولـــو أن يـــوم الـــبؤس خلـــى شمالـــه ... علـــى الـــناس لم يصبح على الأرض مجرم

وخرج الرشيد: ذات يوم يتصيد ومعه إبراهيم النديم فمر بجدار للفضل بن يحيى البرمكي وعلى بابه لوح معلق، فقال الرشيد: يا إبراهيم انظر اللوح فنظر فيه فوجد فيه هذه الأبيات:

أيـــا مـــنزلاً عـــبس الـــزمان بأهلـــه ... فأبـــادهم بتفـــرق لا يجمـــع
أيـــن الـــذين عهـــدتم بكـــل مـــرة ... كـــان الـــزمان بهـــم يضـــر ويـــنفع
أيـــام لا تخشـــى لذكـــرك مـــربع ... إلا وفـــيهم للمكـــارم مـــربع
ذهـــب الـــذين يعـــاش في أكـــنافهم ... وبقـــي الـــذين حـــياتهم لا تـــنفع

فبكى الرشيد وقال: سألتك الله حدثني بكل مكرمة تعرفها للبرامكة فقال: خرجت مع الفضل بن يحيى صاحب هذه الدار للبرية فلقي أعرابيًا على ناقذ فسلم عليه وقال له: يا

أخا العرب إلى أين؟ فقال: إلى الفضل بن يحيى، قال: هل لك عنده من ذريعة أو شفيع؟ فقال: أستحدثه ببيتين من الشعر فقال له الفضل: أعرضهما عليّ فإن كان جيدًا دللتك عليه فانشده:

قــــد كــــان آدم حـــين وفاتـــه أوصـــاك حـــين تجـــود بالجـــواء

ببنـــيه أن تـــرعاهم فـــرعيتهم وكفـــيت آدم علـــية الإنشـــاء

فقال: أحسنت يا أخا العرب، ولكن اعلم أن فضل معجب بنفسه وأخشى أن يقول لك: أن هذين مسروقان، قال: إن قال ذلك أنشده خيرًا منهما، قال: اعرضها عليّ فقال:

ولـــو أن مـــال الأرض مـــن رمل عالج لأصـــبح مـــن جـــذواك قـــد تعالـــوا

ولـــو قـــيل للمعـــروف ناد أخا الوفاء لـــنادى بأعلـــى صوته يا فضل يا فضل

ولـــو أن أم طفـــل مضـــها جوع طفلها أعـــندته باســـم الطفل لابسطهم الطفل

فقال له كلامه الأول، فقال: إن قال كذلك أنشدته أربعة أبيات لم يسمع بمثلها بدوي ولا حضري، فإن قال: إنها مسروقة أدخلت قوائم راحلتي في حر أم الفضل ورجعت إلى قضاعة خائبًا. فقال: اعرضهم علي فقال:

ولائمـــة لامـــتك يـــا فضـــل في العطـــاء فمـــن ذا الـــذي ينهي السحاب عن القطر

إذا جـــاءت تنهـــى الفضل عن بذل العطاء فقلـــت لهـــا هـــل يقـــذف اللوم في البحر

مواقـــع جـــود الفضـــل في كـــل موقـــع مواقـــع كالمـــزن في الـــبلد القفـــر

كـــأن وفـــود الـــناس يـــوم تحملـــوا إلى الفضـــل وافـــوا عـــنده لـــيلة القـــدر

فقال: أحسنت يا أخا العرب، كم أملت في الفضل، قال: أربعة آلاف درهم أستر بها حالي وأوفي بها ديني وأسر صديقي وأكمد عدوي وأرجع بها إلى صبية خلفي كانتمًا زغب القطا، فقال له: أنا الفضل ثم قال لخازنه: أعطه أربعة آلاف يستر بها حاله وأربعة آلاف أخرى يوفي بها دينه وأربعة آلاف أخرى يسر بها صديقه وأربعة آلاف أخرى يكمد بها عدوه وأربعة آلاف يرجع بها إلى الصبية التي خلفه وأربعة أخرى لناقته وأربعة آلاف لسفره فأعطاه ما أمر به، فقال له وزيره ما هذا الإسراف؟ يأتيك رجل بدوي بأبيات من الشعر تعطيه اثنين وثلاثين ألف درهم، فأخذ الفضل قوسًا وألقمه سهمًا وقال للأعرابي:

أترد هذا السهم ببيت من الشعر لأطلعته من قلبه فأنشده:

وقوسك قوس الجود والوتر الندى وسهمك سهم العز فاقتل به فقري

فقال: أحسنت يا خازن أعطه من مال الوزير أربعة آلاف درهم الذي يعلمنا البخل ثم ركب الفضل على جواده وأنشد:

إذا ملكت كفي مالاً ولم أجد فلا بسطت كفي وأنقضت رجلي

أروني بخيلاً نال مجدًا ببخله وإلا أروني باذلاً مات من بذل

علي أن أضعاف الذي قد وهبته ولا خير في رجل يعلمني البخل[1]

وجاء رجل إلى أبي الدوانق المنصور وقال: أيها الحاكم أعلم أمير المؤمنين أن بالباب رجلاً من أهل العلم اسمه عاصم كان بينه وبين أمير المؤمنين صحبة منذ سنة ويريد السلام عليك، فلما عرفه الحاجب بذلك أذن له في الدخول فدخل وسلم فقال له أبو الدوانق: في أي حاجة قدمت قال لرؤية أمير المؤمنين بوسيلة تلك الصحبة فأمر له بألف درهم فأخذها وانصرف ثم عاد إليه بعد سنة فوجد ولده قد مات وهو جالس للعزى، فدخل عليه وسلم ودعا له فقال له أبو الدوانق: فيم قدمت؟ قال: أنا ذلك الرجل الذي كنت عندك عام أول وقد أتيتك معزيًا ومؤديًا لحق حرمتك فأمر له بخمسمائة درهم.

قال الشافعي ﷺ: رأيت على باب مالك كراعة من أفراس خراسان ونعال مصر فلما رأيت مثله فقلت لمالك: ما أحسنه فقال: هو هدية مني إليك، فقلت: دع لنفسك منها ما تركته، قال: إني أستحي أن أطأ تربة رسول الله ﷺ بحافر دابة.

واستدعى الفضل بن يحيى شعراء مصر: فصادفهم شاعر فقير معه جرة فارغة ذاهبًا يملؤها فتبعهم فدخلوا على الفضل فأجازهم ونظر الرجل والجرة معه فقال: ما حاجتك؟ فأنشد يقول:

ولما رأيت القوم شدوا رحالهم إلى بحرك العجاج جئت بجرتي

فملأها له ذهبًا، فأنكروا فقالوا له: فقير مدحك ببيت واحد فعلت له ذلك ثم بلغه أن الرجل حين خرج فرقها كلها فغضب وردوه وقال له: لم فعلت ذلك؟ فقال:

يجود علينا الخيرون بمالهم ونحن بمال الخيرين نجود

---

(١) انظر: الأغاني (١٣٣/١٤).

وكان بيد الفضل قوس وسهم فقال له: إن لم تقل في ذلك شيئًا لأحرقنك به، فقال وقد كان أخير غلام الخطية للفضل فقال:

ولائـيمة لامـتك يـا فضـل العطـا ... مـن الـذي ينهى السحاب عن القطر

فقوسـك قـوس الجـود والوتر الندى ... وسـهمك سـهم العز فاقتل به فقري

فأمر أن تملأ له الجرة عشر مرات، وقال: الحسنة بعشر أمثالها.

ومدح ابن الخياط المكي علي المهدي بقصيدة فأعطاه خمسين ألف درهم فقبل يده وخرج ففرقها حالاً فعوتب في ذلك فقال:

لمسـت بكفـي أبتغـي الغـنى ... ولم أدر أن الجـود مـن كفـه بعـدي

فـلا أنـا مـثل مـا أفـاد ذوو الغنى ... أفـدت وأعـداني فأتلفـت ما عندي

فغنى فليح بها للمهدي فأمر له بخمسين ألف دينار.

ومدح رجل فخر الدولة فلم يعطه شيئًا فتوجه للقاضي واستدعى ابن نباته فحضر فقال له: أنت ضمنت لي فخر الدولة حيث قلت في مدحه.

لكـل فـتى قـرين حـين يسـمو ... وفخـر الملـك لـيس لـه قـرين

آخـر بجانـبه مـا نـزل علـيه ... حكـم الـرجا وأنـا الضـمين

والضمين غارم فقال له: أمهلني ودخل فخر الدولة فأخبره فقال الرجل: كم أملت؟ قال مائة دينار، فأعطاه، ثم قال لابن نباته: إذا مدحتني فلا تعد تضمن عني شيئًا.

وفي تاريخ بغداد(١): عن مخارق قال: تطفلت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بألف ألف درهم وذلك أني شكوت معه ليلة فلما أصبحنا قلت: إن رأى أمير المؤمنين أن أخرج لأتمشى في الرصافة إلى وقت انتباهه قال: نعم، فأمر البوابين أن يتركوني، فتمشيت في الرصافة فإذا بجارية كأن الشمس تشرق من وجهها ومعها زنبيل اشترت فيه فاكهة فتبعتها فالتفتت فرأتني، فقالت لي: يا ابن الفاعلة إلى أين؟ قلت: خلفك، قالت: ارجع لئلا يراك أحد فتقتل، فتأخرت ومشيت من بعد فالتفتت فرأتني فشتمتني شتمًا قبيحًا وأنا لا أبالي ثم أتت إلى باب كبير فدخلت وجلست أنا نحو الباب، وذهب عقلي فلم ألف أن جاء فتيان كأنهما بدران فدخلا فدخلت معهما فظن أهل المنزل أني

---

(١) ليست في التاريخ، إنما في أخبار المتطفلين (ص ١٨).

رفيقهم وظنا أني رب المنزل دعاني، وجيء بطعام فأكلنا ثم حضرت تلك الجارية ومعها عود وغنت فشربوا وطربوا.

فقال لها رب المنزل: لمن هذا الصوت، قالت: لمخلوق، ثم غنت آخر فزادوا طربًا فقالوا لمن هذا؟ قالت: لمخلوق ثم هكذا ثالثًا ورابعاً، فلم أصبر فقلت: يا جارية شدي يدك فشدت أوتارها وخرجت عن الإيقاع فأخذت العود وأصلحته وغنت عليه فكادت عقولهم تذهل فقالوا: من أنت فوريت عليهم فألحوا وأقسموا فأخبرتهم بحقيقة حالي، فقال رب البيت لصديقيه: ألم تعلما أني أعطيت في هذه الجارية ثلاثين ألفًا؟ قالا: نعم قال: هي له قال صديقاه: علينا عشرون منها وعليك عشرة ففعلوا و سلموني إياها فمضيت بها إلى دار الخلافة فوجدت المعتصم انتبه فلم يجدني فضرب البوابين وغضب غضبًا شديدًا فدخلت عليه ويدي في يدها فأمر بالبطش بي فقلت: لا تعجل وحدثته فضحك وقال: نكافئهم عنك وأمر لكل منهم بثلاثين ألفًا(١).

ورمي عند المأمون: عشرة نفر بالزندقة فأمر بإحضارهم فرآهم رجل مجتمعين وظنهم متوجهين لوليمة فأقبل معهم فدخلوا على المأمون فأمر بضرب أعناقهم فاستدعوا بأسمائهم رجلاً رجلاً وهم يقتلون ففرغت العدة وبقي الرجل فقال له من أنت؟ فأخبره القصة فضحك وقال: يبلغ من شؤم التطفل أن يقضي بصاحبه إلى الموت لكي يؤدب ليتوب عن التطفيل، وكان عمه إبراهيم بن المهدي حاضراً فقال: هبه لي وأحدثك حديثًا اتفق لي في التطفيل عجيب، خرجت يومًا متفكرًا أنظر في شكل بغداد فانتهيت إلى محل شممت فيه رائحة طعام، وأبازيز فائحة فتاقت نفسي إليه فوقفت فرفعت بصري فإذا شباك فيه كف ومعصم ما رأيت مثله، ووقفت حائرًا وقلت: لمن هذه الدار؟ قيل: لرجل من التجار وعنده اليوم دعوة وإذا بجماعة قد أقبلوا فدخلت معهم، فأحضرت المائدة فأكلنا وهو يظن أني رفيق القوم وهم يظنون أن رب المنزل دعاني ثم خرجت جارية كأنها غصن بان فسلمت غير تجلة وجلست فغنت:

مـــتوهما طـــرفي فأصـــبح خـــدها وفـــيه مكـــان الـــوهم مـــن نظري أثر

وصـــافحها كفـــي فـــآلم كفهـــا ففـــي ضـــم كفـــي مـــن أناملها عقر

فهيجت بالبال ثم غنت:

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٦/٢٣٧)، (٩/١١٢).

أشــرت إلــيها هــل عــرفت مــودتي فــردت بطــرف العــين إني علــى العهــد
فحــدث عــن الإظهــار عمــداً بســرها وحــادت عــن الإظهــار أيضًــا علــى عمد

فطربت وطربوا ثم غنت:

ألــيس عجيــبًا أن بيــتًا يضــمني وإيــاك لا نخلــو ولا نــتكلم
ســوى أعــين تــبدي ســراير أنفس وتقطــيع أنفــاس علــى الــنار يُضرم
إشــارة أفــواه وغمــز حــواجب وتكســير أجفــان وكــف يســلم

فعجبت من حذقها وإصابتها فقلت لها: بقي عليك شيء فرمت العود، وقالت: متى كنتم تحضرون في مجالسكم الثقلاء البغضاء؟ فتلفت القوم وقلت: أثم عود آخر، قالوا نعم فأتوا، به فأصلحته ثم غنيت:

مــا للمــنازل لا تجــيب حــزينًا أصــممن أم قــدم الــبلا مبليــنا
راحــوا العشــية روحــه مذكــورة إن مــتن مــتن وإن حــيين حيينــا

فبكت الجارية على رجلي وهي تقول: هذا هو الإنشاد ما نحن فيه فطرب القوم فلما رأيت سرورهم أنشدت:

اتــق الله أن تنســيني لا تذكــريني وقــد ســحت عيــناي مــن ذكرك الدما
إلى الله أشــكو بخلــها وســماحتي لهــا عســل مــني وتــبذل علقمــا
فــردي مصــاب القلــب أنــت قتلته ولا تتــركيه ذاهــل العقــل مغــرمًا(١)

فطربوا حتى فارقوا عقولهم ثم غنيت:

هــذا محــبك مطــويا علــى كمــده وجــدًا مدامعــه تجــري علــى خده
لــه يــد تســأل الــرحمن حاجــته ممــا بــه ويــد أخــرى علــى كبده
يــا مــن رأى كلفًــا حلف الضنى دنفًا كانــت منيــته في عيــنه ويــده

فطربوا وسكروا ثم أمر رب المنزل الجماعة بالانصراف وخلى بي وأقسم عليّ من أنت؟ فوريت عليه فلم يغد فأخبرته بحقيقة حالي فوثب قائمًا على قدميه فأمرته بالجلوس

---

(١) في الأغاني روايته: وتبذُل علقما.

فأبى وقال: أنا أحقر من أن أجالس الخلافة فأقسمت حتى يجلس ثم أخذ يسألني حتى أخبرته بالكف والمعصم فاستدعى جواريه واحدة واحدة وهو يقول: أهي هذه؟ فأقول له: لا فقال: لم يبق إلا زوجتي وأختي وأمر بإحضارهما فعجبت من كرمه، وقلت: أبدأ بالأخت فأرني يدها ومعصمها فإذا هي فقلت: حسبك فأحضر الشهود وأخرج بدرة وقال: هذا قد دفعها صداق أختي، وأخرج بدرة أخرى ودفعها للشهود وحلف أن لا يقبل مني شيئًا فأولدتها هذا الغلام الذي قائم بين يديك فعجب المأمون من كرم الرجل وأمر له بمائة ألف.

وكان هرم بن سنان المري آلى على نفسه أن لا يسلم عليه زهير بن أبي سلمى إلا أعطاه غرة من ماله فرسًا أو ناقة أو عبدًا أو أمة فأخبر بذلك زُهير وقدح في حاله، فجعل زهير يمر بالجماعة وفيهم هرم فيقول: عموا صباحًا ما خلا هرم وخيركم تركت.

وقدم على يزيد بن المهلب رجل من قضاعة فأنشده:

مـــا لي أرى أبـــوابهم مهجـــورة   وكـــان بابـــك مجمـــع الأســـواق

أرجـــوك أم خافـــوك أم ســـاموا الغنى   بـــيديك فانـــتجعوا الآفـــاق

إني رأيـــتك للمكـــارم عاشـــقًا   والمكـــرمات قلـــيلة العشـــاق

ولـــيت أنعمـــك الـــبلاد فأصـــبحت   تجـــني إلـــيك مكـــارم الأخـــلاق

فأمر له بألف دينار، فلما كان العام القابل وفد عليه فأنشده:

والله مـــا نـــدري إذا مـــا فاتـــنا   طلـــب إلـــيك مـــن الـــذي نـــتطلب

ولقـــد ضـــربنا في الـــبلاد فلـــم نجد   أحـــداً ســـواك إلى المكـــارم ينســـب

فاصـــبر لعادتـــنا الـــتي عودتـــنا   أو فأرشـــدنا إلى مـــن نـــذهب

فأعطاه ألف دينار وقال: نحن صابرون على عادتك فعد متى شئت.

وهجر الرشيد جارية ثم لقيها في بعض الليالي في القصر سكرانة وعليها مطرف تسحب أذيالها من التيه فراودها، فقالت: ليس معي علم بموافاتك فأنظرني الليلة لأتهيأ لك فآتيك غدًا، فلما أصبح لم تأته فدخل عليها وعاتبها، فقالت: كلام الليل يمحوه النهار، فعاد واستدعى من ببابه من الشعراء فدخل أبو نواس والرقاشي ومصعب فقال: كملوا على كلام الليل يمحوه النهار، فقال الرقاشي:

أتسلوها وقلبك مستطار وقد منع الفرار فلا فرار

وقد تركتك صبا مستهاما فتأت لا تزور ولا تزار

إذ جئتها وعدت وقالت كلام الليل يمحوه النهار

وقال مصعب:

أما والله لو تجدين صبري لما وسعتك في بغداد دار

أما يكفيك أن العين عبري ومن ذكراك في الأحشاء نار

فتبسم ضاحكًا من غير ضحك كلام الليل يمحوه النهار

وقال أبو نواس:

وليلة أقبلت في القصر سكرى ولكن زين السكر الوقار

وقد سقط الرداء عن منكبيها من التحمش وانحل الإزار

وهز الريح أردافا ثقالاً وغصنًا فيه رمان صغار

فقلت الوعد سيدتي فقالت كلام الليل يمحوه النهار

فقال الرشيد: قاتلك الله، أكنت حاضرًا وأمر لكل واحد بخمسة آلاف درهم ولأبي نواس بعشرة آلاف وخلعة سنية، وأمر الرشيد بقتله: فقال: يا أمير المؤمنين أتقتلني شهوة لقتلي قال، بل استحقاقًا، قال: إن الله يحاسب ثم يعفو ثم يعاقب فلم أستحق القتل؟ قال بقولك:

ألا اسقني الخمر وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرًا إذا أمكن الجهر

أفعلمت أنه سقاني وشربت؟ قال: أظن ذلك، قال أتقتلني على الظن وإن بعض الظن إثم ؟ وقال: وقلت أيضًا ما تستحق به القتل غير هذا وهو قولك في التطفيل:

ما جاءنا أحد بخبر أنه في جنة من مات أو في نار

قال أفجاء أحد يا أمير المؤمنين؟ قال لا، فتقتلني على الصدق؟ قال الرشيد: خلوا سبيله وأمر له بعشرة آلاف.

وامتدح أبو تمام ابن المهدي فوجده عليلاً فقبل المدحة منه، وقال: أقوم من مرضي وأكافئك، فما قام شهرًا، ثم كتب إليه يقول:

إن حـــرام مدحتـــنا أو تـــرك ... مـــا يرجـــى مـــن الصـــفد
كمـــا الـــدنانير بالـــدراهم في البـــيع ... حـــرامًا إلا يـــدا بـــيد

فأمر له بأربعين ألفًا ثم كتب إليه:

أعجلتـــنا فأتـــاك عاجلـــه صـــرفا ... كـــلا لـــو أمهلـــت لم تقلـــل
فخـــذ القلـــيل وكأنـــك لم تقـــل ... ونكـــون نحـــن كـــأن لم نفعـــل

ودخل الأصمعي على جعفر بن يحيى فقال: ألك زوجة؟ قال: لا، فقال فأمة؟ قال: للخدمة قال: هل لك في جارية نظيفة أهبها لك؟ قال: نعم فأمر بجارية وهي في غاية الحسن فقال: وهبتك لهذا، فبكت وجزعت وقالت شيخاً نعماً أرى من سماحته وقبح منظره، قال: فلا تمض، هل لك أن أعوضك عنها بألفي دينار، قال: نعم فأمر له بها ثم قال: يا أصمعي أنكرت عليها شيئًا فأردت عقوبتها ثم رحمتها منك.

قال: وذُكر للمتوكل فضل الجاحظ فاستدعاه ليؤدب ولده فلما دخل استقبح منظره فأعطاه خمسة آلاف دينار وصرفه.

ومن جود الشافعي ﷺ: أن سوطه وقع من يده فأعطى من ناوله إياه خمسين دينارًا، وورد مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه خارجها فأتاه الناس فما برح من موضعه حتى فرقها.

وكانت غلة ضياع علي بن عيسي البغدادي سبعمائة ألف دينار كل سنة ينفق منها في وجوه البر والوافدين إليه ستمائة ألف دينار وستين ألفًا وينفق على نفسه وعياله ما بقي.

وكان القاضي: يجري على خمسة وأربعين ألف إنسان الجرايات الكافية لهم، وكان القاضي القاسم التنوخي مدخله في كل شهر عشرين دينارًا ينفقها كلها على أصحاب الحديث، وقال ابن هيفان يمدح ابن المدبر:

يـــا ابـــن المدبـــر أنت علمت الورى ... بـــذل الـــنوال وهـــم بـــه بخـــلاء
لـــو كـــان مـــثلك في الـــبرية واحـــدًا ... في الجـــود لم يكـــن فـــيهم فقـــراء

ولما عزل من الأهواز جاء الناس يودعونه فأمسك أبو سراقة يده وهو في الجرافة وأنشد:

لـــيت شـــعري أي قـــوم أجدبـــوا ... فأغيـــثوا بـــك مـــن بعـــد العجـــف

نــزل الـيمن مـن الله بهـم ذخـر هـناك لـذنب قـد سـلف

إنمـا أنـت ربـيع باكـر حيـثما صـرفه الله انصـرف

يـا أبـا إسـحاق سـر في دعة وامض مصـحبًا فمـا عـنك خلـف

وأتى غلام يهواه فسخط عليه وقيده بقيد من ذهب عشرة أرطال فعمل له بعض أصحابه بيتين وأرسلهما إليه وهما:

يـا أيهـا الملـك الميمون طائـره رفقًـا فـإن يـد المعشـوق فوق يدك

كـم ذابهـا الـتجلد والأحشاء راجفة أعـيذ قلـبك أن يسـقط على كبدك

فأطلقه وأعطى الكاتب القيد الذهب[1]. ووصف خواجا رشيد كتابًا باسم غازان ملك التتار فأعطاه ألف دينار فاشترى بهم ضياعًا، هكذا ذكره الصفدي. وكان ابن النجيب الجزري كثير الملازمة للوزير المهلبي، فاستدعاه يومًا وكان قد غسل ثيابه فاعتذر إليه فلم يقبل فأرسل إليه:

يغسـل أثـوابا كـان الـبلاء فـيها فـيها خلـية وهـي أوطـان

أرق مـن ديـني وإن كـان لي ديـن كمـا للـناس أديـان

كأنمـا حـالي مـن قـبل أن يصـبح عـبدي لـك إحسـان

يقـول مـن يبصـر في معرضًـا فـيها وللأقـوال بـرهان

هـو الـذي قـد نسـجت فـوقه عـناكب الحـيطان إنسـان

فبعث له جبة وقميصًا وعمامة وسروالاً وخمسة آلاف درهم وقال: أنفذت لك ما لا تدفعه للخياط فإن كنت غسلت التكة والنعل فأعرفني أرسلها إليك.

وقال أبو القاسم بن حبيب في وصف جمع من الكرماء:

قـوم كـرام إذا سـلوا سيوفهم في الروح لم تعهـدوها سـوى في المهـج

[تنبيه] أجمعوا على أن الجود محمود إلا في النساء لأن المرأة إذا كان طبعها الجود

---

(١) انظر: قرى الضيف (٤/٥٥، ١٤٨) وصبح الأعشى (٣٨٢/٨)، (٢٨٠/١١)، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٣٢١/٣).

بما يطلب منها قد تجود بنفسها ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ .

ولم يمدح أحد من العلماء كرم المرأة وما أحسن ما قال المعزي:

غريـزة تخطـف الأبصـار شاخصـة ... مـن حـولها يـروق البـيض والأسـل

تنمـى إلى القـوم جـادوا وهي باخلة ... والجـود في الجـود مثل الشح في الرجل

ما أحسن النصف الأخير مما فيه من جناس التصحيف.

وقال ابن نباته:

كسـلى تـزور مـع الكـلام لهـا ... طـيف فأعـدى طـيفها الكسـل

جلـت بمـا جـاء الـرقاد بـه ... مـن القـوافي يحسـن البـخل

ولما ألف ابن لهيعة تاريخ الأطباء كتب نسخة وأرسلها إلى أمين الدولة وزير الصالح إسماعيل فبعث له بألف دينار وخلعة فاخرة وشكره على ذلك فمدحه بقصيدة أولها:

فـؤادي في محبـتهم أسـير ... وإني سـار وكتـبهم تسـير

وكان الملك المعظم شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين بن أيوب كريمًا فلما مات رآه المهلب الحتمي في النوم فمدحه بقصيدة وهو في القبر فلف كفنه ورما به إليه وقال:

لا تسـتثقلن معـروفًا سمعـت بـه ... ميـتا فأصـبحت مـنه عـاري البدن

ولا تظـنن جـودي شـأنه بخـل ... فمـن بعـد بـذلي ملك الشام واليمن

إني خـرجت مـن الدنـيا وليس معي ... مـن كـل ما ملكت كفي سوى الكفن

وكان ثعلبة النخعي جوادًا فخافت امرأته أن يذهب المال فقالت: اقسم مالك بين بنيك فقال:

وعاذلـة تلـوم فلـم أطعهـا ... قـديما مـا عصـيت العاذليـنا

إلا مـالي ومـا أهلكـت مـنه ... لمـن أبقـي لأي الوارثيـنا

أللمحـتال حـين المـوت بعـدي ... يجمـع المـال أو للمفسـدينا

ودخل أحمد بن عبد الله بن طباطبا الحسني جامع مصر العتيق فلم يجد مكانًا في

الصف الأول فوقف في الثاني والتفت أبو حفص بن الحلاب فرآه فتأخر وتقدم الشريف مكانه فكافأه على ذلك بخمسمائة دينار واشترى له دارًا ونقل أهله إليها بعد أن كساهم وحلاهم.

وأهدى الشريف المذكور إلى الإمام الطحاوي كتبًا قيمتها ألف دينار واشترى فايق مولى أحمد بن طولون دارًا بجواره بعشرين ألف دينار وسلم الثمن وأجل البائعين شهرًا فلما انقضى سمع فايق صياحًا وضجة وبكاء فقال: ما هذا فقيل له: الذين باعوا الدار فدعاهم وسألهم فقالوا: نبكي على مفارقتنا لجوارك فوهب لهم الدار.

ومدح بعض الشعراء معن بن زائدة بأربعة أبيات فأعطاه أربعة آلاف دينار فبلغ ذلك المنصور فقال عليّ بالأعرابي فأحضره وهدده فاعتذر إليه وقال: إنما أعطيته من جودك.

ونزل يهودي ضيفًا ببعض الأعراب الكرماء فمات عنده فجهزه أحسن جهاز وصلى عليه وقال «اللهم ضيفي وحق الضيف أنت به عليم فأمهلنا إلى أن نقضي ذمامه ثم شأنك به».

وقدم بعض الحكماء باب كسرى بحاجة فلم يصل إليه فتلطف بالحاجب في إيصال رقعته إليه فيها أربعة أسطر:

الأول: الضرورة والأمل أقدماني.

الثاني: العدم لا يكون بعد الصبر.

الثالث: الانصراف بلا فائدة شماتة الأعداء.

والرابع: أما نعم مثمرة أو مربحة.

فدفع له في كل سطر بأربعة آلاف مثقال.

وعوتب إياس بن معاوية[1] على كثرة الإنفاق فقال: النفقة داعية للرزق وكان قاعدًا على باب فقال للرجل: أغلقه، ففعل، فقال الرجل: الريح فقال: لا، قال: فكذا إذا أمسكت لم يأتك رزق.

وحج يزيد بن المهلب فأتى بحلاق حلق رأسه فأمر له بألف درهم فتحير ودهش،

---

(١) في المطبوعة: إياس بن معربة وقد نسخت من المخطوطة خطأ حيث كتابة معوية هكذا في الكتابة المشرقية، وقد أثبتنا الصواب.

وقال: أمضي إلى فلانة أبشرها، فقال أعطوه ألفًا أخرى.

وقدم على مخلد بن يزيد بن المهلب رجل مستجدٍ ... فأجرتك: قال بلى، قال فما ردك؟ قال: قول الكميت فيك:

سألناه الجزل مما تلكأ ... وأعطى فوق منيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم أحسن ... ثم أحسن ثم عادا
مرارًا لا أعود إليه إلا ... متبسمًا ضاحكًا وثنى الوسادا

فأضعف له ما كان أعطاه.

وقام أعرابي بين يدي داود بن المهلب وقال: إني قد مدحتك فاسمع فقال: على رسلك ثم دخل منزله وتقلد سيفه وخرج، وقال: قل فإن أحسنت حملناك وإن أسأت قتلناك فأنشد يقول:

آمنت بداود وجود يمينه ... من الحديث المخشي والبؤس والقتر
وأصبحت لا أخشى بداود كبوة ... من الدهر لما شددت به أزري
له حكم داود وصورة يوسف ... وملك سليمان وعدل أبي بكر
فتى يفرق الأموال من جود كفه ... كما يفرق الشيطان من ليلة القدر

فقال له: قد حملناك إن شئت على قدرنا وإن شئت على قدرك، قال: بل على قدري فأعطاه خمسين ألفًا، فقال له جلساؤه: هلا احتكمت على قدر الأمير، قال: لم يكن في ماله ما يفي بقدره، فقال له داود: أنت في هذا أمهر منك في شعرك وأمر له بمثل ما أعطاه.

ومر بعض الأمراء بدير فقال: لمن هذا؟ قالوا: لحرفة بنت النعمان بن المنذر، فقال: ميلوا بنا إليها لنسمع كلامها، فوقفت خلف الباب فقالوا لها: كلمي الأمير فقالت: كنا أهل بيت طلعت الشمس وما على الأرض أعز منا فما غابت حتى رحمنا عدونا فأمر لها بأوساق من شعير ودنانير فقالت: أطعمتك يد شبعًا جاعت ولا أطعمتك يد جوعًا شبعت ثم أنشدت:

سل الخير أهل الخير قدمًا ولا تسل ... فتى ذاق طعم الخير منذ قريب

جاء أعرابي إلى ابن طاهر فأنشده وهو راكب:

سألت عن المكارم أين صارت ... فكل الناس أرشدني إليك

فجد لي يا ابن طاهر إن فعلي ... سبتني بالذي بر لي إليك

وقال كم ثمن هذين البيتين؟ قال: ألف درهم قال: قد أرخصت أعطوه ألفين، فقال:

أصدقت ظني وظن الناس كلهم ... فأنت أكرمهم نفسًا وأجدادًا

فقال: أعطوه أربعة آلاف، فقال: فني شعري ولم يضق صدرك.

لقى يحيى بن زكريا عليه السلام إبليس فقال له: أخبرني بأحب الناس إليك وأبغضهم إليك، فقال: أحبهم إليّ كل مؤمن بخيل، وأبغضهم إليّ كل منافق سخي، فقيل له: ولم؟ قال: لأن السخاء خلق الله الأعظم، فأخشى أن يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له.

وقال بعضهم في كريم:

جواد جئته يوما لتسأله ... أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا

يخفي صنائعه والله يظهرها ... إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

وقال أبو تمام الطائي يمدح بعضهم:

تعود بسط الكف حتى لو أنه ... تناهى بقبض لم تطعه أنامله

ولو أن ما في كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله[1]

وقال بعضهم في آخر:

إذا ما أتاك السائلون توقدت ... عليه مصابيح الطلاقة والبشر

كله في ذوي المعروف نعمًا كأنهما ... مواقع ماء المزن في البلد القفر

وقال أبو القاسم بن حبيب في قوم كرام:

كرام المساعي أكساب محامد ... وأهدى إلى طرق المعالي من العطا

وأبوابهم معمورة بعضاتهم ... وأيديهم ما تستريح من العطا

---

(١) انظر: المستطرف (١/٣٥٢)، وصبح الأعشى (٩/٣٣٤).

ومدح ابن هند بعضهم بقوله:

من قاس جودك بالغمام فما ... أنصف في الحكم بين شيئين
أنت إذا جدت ضاحكًا أبدًا ... وذاك جماد باكي الكفين

وقال آخر:

أياديك ما سخت وسخت تكرمًا ... فكم أنشأت ألفًا وكم أنشأت ألفًا
وكم عمرت أرضًا وكم عمرت أرضًا ... وكم وهبت ضعفًا وما وهيت ضعفًا

وقال ابن نباتة:

روت عنك أخبار المعالي محاسنا ... كفت بلسان الحال ألسن الحمد
فوجهك عن بشر وكفك عن عطا ... وخلقك عن سهل ورأيك عن سعد

وقال ابن مطروح:

انظر ترى وجه البسيطة أبيضا ... لم تبق فيه شامة سوداء
كرم السحاب تعمر بالثلج الندى ... إن الكريم له اليد البيضاء

وركب الرشيد في بعض أسفاره ناقة فطلع عليه أعرابي وأنشده:-

أغيثا تحمل الناقة ... أم تحمل الناقة هارونا
أم الشمس أم البدر ... أم الدنيا أم الدينا
ألا كل الذي قلت ... قد أصبح مأمونا

فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ونادم جعفر البرمكي الرشيد فقال له: بلغني أنك اشتريت الجارية الفلانية فبعنيها، قال: لا أبيعها لك، فقال: هبها لي، قال: ولا أهبها لك فقال الرشيد: زبيدة طالق ثلاثًا إن بعتها أو وهبتها فلما أفاق علما أنهما وقعا في أمر عظيم. فقال الرشيد، ليس لهذه الواقعة إلا أبو يوسف، فطلبوه، وكان نصف الليل، فقام فزعان وعلم أنه ربما طلب في هذا الوقت لأمر حدث في الإسلام فركب البغلة وقال لغلامه: أصحب معك المخلاة وبعض شعير وإذا وصلنا إلى دار الخلافة ضعه بين يدي البغلة تشتغل فيه، ودخل على الرشيد فعظمه وأجلسه معه على سريره، وقص عليه القصة فقال: هو سهل يا جعفر بع أمير المؤمنين

نصفها وهبه نصفها وبه تبرأ يمينكما، فسر بذلك أمير المؤمنين وفعلا.

فقال الرشيد: احضروا الجارية سريعًا فإني مشغول بها، وقال لأبي يوسف أريد وطئها في هذا الوقت ولا أقدر على الصبر إلى الاستبراء، فقال: ائتوني بمملوك فأحضر له، فقال لأمير المؤمنين: زوجه لها ثم ملكه لها قبل الدخول فينفسخ النكاح ويحل لك وطؤها ففعل وسر بذلك أمير المؤمنين واستدعى بأطباق الذهب فأفرغت بين يديه فقال: هل معك شيء توعيه فيه؟ فاستدعى غلامه بمخلاة البغلة فملئت له ذهبًا وأخذها، وانصرف، فلما أصبح قال لنظرائه: من تعلم منكم العلم فليتعلمه هكذا فإني أعطيت هذا المال في مسألتين.

واصطبح الأمين مع زبيدة يومًا ونفد لجميع ندمائه في البكور عليه فسبقهم سليمان بن أبي جعفر فوصله بألف ألف وتخلف المهدي فأمر أن يقام على رجليه فأقيم حتى تورمت رجلاه فشفع له ابن جعفر فعفى عنه وأذن له فلما دخل عليه شتمه فقال: يا أمير المؤمنين اعذرني مبتلي، قال: وما هي؟ قال: العشق، فقال سعيد بن جابر: كذب والله، قال: وكيف؟ قال:

إن الـــــذي يعشـــــق بمعـــــروف لا أصـــــــغر مــــــــتخوف

لـــــيس كمـــــا تلقـــــاه ذاحشـــــة كأنـــــه للـــــذبح معلـــــوف

فقال ابن المهدي:

وقائـــــل لســـــت بالمحـــــب ولـــــو كـــــنت محـــــبًا لـــــدين مـــــن ومـــــن

أحـــــب قبلـــــي ومـــــا درى يـــــبرني ولـــــو درى لم يقـــــم مـــــن السمـــــن

فقال الأمين: أحسنت والله أعطوه ألف ألف درهم.

وقال المدايني: أقبل ركب من بني أسد ومن قيس يريدون النعمان فلقوا حاتمًا فقالوا: تركنا قومنا يثنون عليك خيرًا، وقد أرسلوا إليك رسالة فقال: ما هي؟ وأنشده الأسديون شعرًا للنابغة فيه ثم قالوا: إنا نستحي أن نسألك شيئًا وإن لنا لحاجة؟ قال ما هي؟ قالوا: صاحب لنا قد أرمل يعني فقد راحلته؟، فقال حاتم: خذوا فرسي هذه فاحملوه، وكان خلفها فلو فربطته الجارية بثوبها فأفلت يتبع أمه وأتبعته الجارية فصاح حاتم: ما يتبعكم فهو لكم فذهبوا بالفلو والفرس والجارية.

وكانت أم عتب بنت عفيف موسرة لا تمسك شيئًا وإخوتها يمنعونها فتأبى فحجروا

عليها سنة لتكف عما تصنع ثم مكنوها من صرفه من إبلها فأتتها امرأة من هوازن وسألتها فقالت: دونك الصرفة فقالت: ذقت من الفقر ما آليت أن لا أمنع سائلاً قط.

وكان هرم بن سنان المري آلى على نفسه أن لا يسلم عليه زهير بن أبي سلمى إلا أعطاه غرة من ماله فرسًا أو ناقة أو قنا فأضر ذلك بهرم وقدح حاله فجعل زهير يمر بالجماعة وفيهم هرم فيقول: عموا صباحًا خلا هرمًا وخيركم تركت.

ومر الفضل بن يحيى ببعض أزقة بغداد فإذا هو برجل يغني ويقول:

لو كان بيني وبين الفضل معرفة   فضل من يحيى لأغناني عن الزمن

فقرع عليه الباب وقال: قد عرفك الفضل وسيفديك على الزمن ثم مضى وبعث إليه بعشرين ألف درهم.

وصاح رجل بيحيى بن خالد يا أبا علي أنا متوسل إلى إحسانك بالله تعالى فأجلسه في دهليزه وأجرى إليه في كل يوم ألف درهم فلما مضى له ثلاثون يومًا انصرف فسأل عنه يحيى، فقيل له: ذهب، فقال: وحق الذي توسل به لو أقام مدة حياته أو حياتي ما قطعتها عنه.

ودخل الفرزدق على يزيد بن المهلب وهو في حبس الحجاج فأنشده:

فلا قطرت بالري بعدك قطرة   ولا اخضر بالمروين بعدك عود(١)

وكان قد أعد مالاً للحجاج، فقال لخازنه: قم فادفع ما عندك للفرزدق ودع الحجاج ولحمى.

ودخل إبراهيم الموصلي على الرشيد فأنشده:

دائرة بالبخل قلت لها اقصدي   فذلك شيء ما إليه سبيل

فكيف أخاف الفقر وأحرم الغنى   بخيلاً له في العالمين بخيل

فقال الرشيد: هذا والله الشعر الذي صحت معانيه وقويت أركانه ولذ على أفواه القائلين وأسماع السامعين وأمر له بخمسين ألفًا فقال: يا أمير المؤمنين أخذ الجائزة مع هذا الكلام ظلم.

ومن كرم حاتم الطائي: أنه خرج في حاجة إلى بلاد فارس فإذا هو بأسير فيهم

(١) انظر: المستطرف (١/٣٥٣).

فنادى: يا أبا سفاية: أكلني الأسر والقمل، فقال: ما أنا في بلادي ولا معي شيء وقد أسأت إلي أن نوهت باسمي فشاورهم فيه واشتراه منهم وقالوا: خلوا عنه.

وقصد ابن الخياط الدمشقي فخر الدولة عماد وكان أعد لصلته ألف دينار فلما استحضره كان أول شيء أنشده:

لم يسبق شيء يباع بدرهم تغنيك عن رؤية مخبري عن منظري

إلا صيانة ماء وجه صنتها عن أن تباع وأين أين المشتري

فغضب فخر الدولة وأعرض عنه فقال: إنما قلت وأنت أنت المشتري فأعجبه ودفع إليه ما أعده له.

وعمل الرشيد نصف بيت وهو الملك لله وحده ثم ارتجع عليه فأمر بإحضار من بالباب من الشعراء فإذا هو الحمار فقال الرشيد: أجيز الملك لله وحده فقال: وللخليفة بعده، فقال: فقال الرشيد زد قال: وللمحب إذا ما حبيبه بات عنده، فقال الرشيد: أحسنت لم تتعد ما في نفسي وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وقال الأصمعي: كان الرشيد يحب جارية اسمها جنان فنظم فيها بيتًا من الشعر ولم يقدر أن يشفعه بآخر، فأمر بإحضار العباس بن الأحنف وكان في جنح الليل فهجم عليه غلمانه وقد راعه ذلك وظن أهل بيته أنه مقتول فلما رأى الرشيد فزع، قال: لا تخف إنما أحضرتك لتجيز شعرًا عملته، وضاق ذرعي عن الزيادة، فقال: وما هو؟ قال:

جنان قد رأيناها إذا ما زدته مطرًا

فقال العباس:

يزيد وجهها حسنًا فلم تر مثلها بشرًا

فقال هارون: أحسنت فزدني فقال:

إذا ما الليل جاء عليك معتكرًا وراح وما به قمر فما تراها ترى القمرا

فقال الرشيد: أحسنت، وقد دعوناك في مثل هذه الساعة، وأفزعنا عليك عيالك فلا أقل من أن نعطيك ديتك وأمر له باثني عشر ألف درهم.

فقال آخر: دخلت عنان جارية الناطفي وعليها قميص يكاد يقطر منه صبغه وسيدها يضربها وهي تبكي فقلت:

إن عنان أرسلت دمعها كالدر حين يسل من خيطه

وقلت وأشرت إلى سيدها:-

فليت من يضربها ظالما　　يخف يمناه على سوطه

فقال: هي حرة إن ضربتها ظالمًا أو غير ظالم.

وقال السلولي: دخلت على عنان وعندها أعرابي فقالت: قد جاء الله بك، قلت: وما ذاك؟ قالت: هذا الأعرابي جاءني وقال: بلغني أنك تقولين الشعر فقولي بيتًا فارتج عليّ فقل أنت فقلت:

لقد حل الفراق وعيل صبري　　نجيه غيرهم للبين رمت[1]

فقال الأعرابي:

نظرت إليّ وآخرها ضحى　　وقد بانت وأرض الشام أمت

فقالت عنان:

كتمت هواكم في الصدر عني　　على أن الدموع عليّ نمت

فقال الأعرابي: أنت أشعرنا ولولا أنك بحرمة لقبلتك.

ومن كرم حاتم الطائي: أنه خرج في حاجة إلى بلاد فارس فإذا هو بأسير فيهم فقال: يا أبا سفاية أكلني الأسر والقمل، فقال: ما أنا في بلادي ولا معي شيء وقد أسأت إلى أن نطقت باسمي فشاورهم فيه واشتراه منهم فخلوا عنه وأنا أقيم في مكانه حتى يأتيكم المال وأقام عندهم حتى وفى لهم ما اشتراه به.

وفي المثل أجود من كعب بن يامة[2] حُكي أن جوده قتله، وذلك أنه خرج في ركب فيهم رجل من اليمن هو ابن قاسط النميري فوقعوا في قفر بلا ماء وعطشوا فتقاسموا ما معهم من الماء، فجعل النميري يشرب نصيبه وإذا أراد كعب الشرب يقول له: آثر أخاك النميري فيؤثره على نفسه فأضر به العطش فركب ناقته وبادر حتى أشرف على ماء فمات قبل أن يصل إليه ونجا رفيقه، وكان كعب بن إياد وفيه قال الشاعر:

هو أهجر من أي النواحي أتيته　　فلجنة المعروف والبحر ساحله

كريم إذا ما جئت للعرف طالبًا　　حياك بما تحوي عليه أنامله

---

(١) انظر: الأغاني (٤/٣١٤، ٣١٨) نحوه.

(٢) انظر: مجمع الزوائد للميداني (١/١٨٣).

ولـو لم يكـن في كفـه غـير نفسـه لجـاد بهـا فليـتق الله سـائله

ودخل رجل على المهدي ومعه نعل في منديل فقال له: يا أمير المؤمنين هذه نعل المصطفى أهديتها إليك فأخذه فقبلها ووضعها على عينيه وأعطاه ألف دينار فلما انصرف قال لخدمائه: إني أعلم أن المصطفى لم يرها بعينه فضلاً عن كونه لبسها ولو كذبنا لنسبنا إلى البخل، وقال الناس: أتيت للمهدي بنعل رسول الله ﷺ فردها شحًا وشأن العامة الميل إلى أشكالها ونصرة الضعيف على القوي فاشتريت لسانه وألسنتهم بذلك.

وركب رجلاً من قريش دين وكان له نخل وزرع وخاف أن يباع عليه فأخذ هدية وقصد خالد بن عبد الله القسري بالعراق فلما وصل العبد وجد الحكم بن المطلب وهو على سقاية بالمدينة والحجاز وبعض نجد فاستقبله الحكم وأجلسه على فراشه وسأله عن سبب قدومه فأخبره بقصته فقال له: إني لم أتلقاك ولكن أشيعك لمنزلك فلما رأى منزل القرشي وما معه من الهدايا قال: لمن هذه فقال: هي لك وأمر الغلمان أن يحملوها معه إلى منزله فقال الحكم ههنا مال من مال الصدقات وأنت أحق به فأعطاه له وكان أربعة آلاف دينار. ودينه قريب من ثلاثة آلاف دينار فانكفأ القرشي راجعًا فشيعه الحكم ولما أراد أن يفارقه قال: إن أهلك يسألونك عن طرائف العراق وهذه خمسمائة دينار عوض عن هدية العراق.

ولما حبس الحكم أنشده بعض شعراء الأنصار:

خليلـي إن الجـود في السـجن فابكيا علـى الجـود إن سـدت عليه طرائقه
تـرى عـارض المعـروف لكل عيشة وكأضـحى يسـتن في السـجن بارقه

فأعطاه ثلاثة آلاف درهم.

وأرسل عبد الله بتجارة يبيعها له في أحياء العرب فباع ذلك على عزة وغيرها من نساء بني خمرة فلما أنقضاهن الثمن مطلته عزة بما عليها فقال وهو لا يعرفها أنت والله كما قال مولاي:

وقضـى كـل ذي ديـن فـوفى غريمه وعـزة ممطـول معـنى غـريمها

فقال له النساء هذه عزة التي قال فيها مولاك ذلك فقال: إذن والله لا آخذ منكن شيئًا إكرامًا لها ثم عاد لمولاه وأخبره بذلك فقال أنت حر لما فعلت، وجميع ما

في يدك لك.

وسألت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز عزة ما معنى قول كثير فيك ذلك، ما كان هذا الدين، قالت وعدته قبلة فلم أوفها له فقالت لها أنجزيها وعليّ إثمها ثم أعتقت أربعين رقبة لصدور هذه الكلمة منها.

وقال أبو عبيدة السلماني: كان في الجاهلية أخوان من كندة أحدهما عازب والآخر متزوج فنظر العازب زوجة أخيه مرسد وكانت من أجمل النساء فتشوق بها، وكابده الغرام حتى لم يبق منه إلا رأسه وعيناه فسأله أخوه عن سبب ذلك فاعتل فأحضر له طبيبًا فجسه فلم يجد به ألمًا إلا العشق فصب في فيه شراب فأفاق وأنشد:

ألا رفقًا قليلاً ما أكون ... ألما بي على الأبيات من خيف ولا سند

غزال ما رأيت اليوم في دوير بني كنه ... أسيل الخد برب وفي منطقه غنى

فقال الرجل هذه دور قومنا فليت شعري من، فقال الطبيب ما بقي فيه مستمتع ولكن غدًا أغدو إليكم فلما كان الغد فعل به ما فعل بالأمس فأنشد يقول:

أيها الحبرة أسلموا وقفوا كي ... تكلوا وتقضوا لبانة وتخيروا وتغنموا

خرجت مرسد من الهجر ريا تحمحم ... هي ماكنتي وتزعم أني لها حم

فقال أخوه: اشهدوا أنها طالق ليرجع إلى أخي فؤاده فإن المرأة توجد والأخ لا يوجد فقال أخوه: هي عليَّ كظهر أمي إن تزوجتها ومات كمدًا بها، قال أبو عبيدة: فما أدري أي الرجلين أكرم.

وقال الشهاب محمود على لسان الأخ:

أخ لي رأى في يديه علاقة ... فجاد لي بها راحمًا وتبرعًا

وكان بها صبًا ولكن رأى الذي ... أكابده من حبها فتوجعا

فقلت وفي قلبي لها حر لاعج ... إذا لابس الفجر الأصم تضرعًا

قولك مقبول سواها فردها ... إليك وهي لي في الشر مضجعًا

فموتي أبقى من حياة ترى الورى ... بها أن لي في جانب الخل مطمعًا

أبقى ولا يبقى ويحنو تكرمًا ... وأسلوا أفلسنا من أب واحد معًا

وقال مخارق: أصبحت السماء مغيمة ودخل الرشيد لحريمه وأمرنا بالانصراف

والإقامة في منزلنا ثلاثة أيام فمضى كل واحد إلى منزله وذهبت إلى منزل إبراهيم الموصلي أستاذي فوجدته جالسًا في رواق وبين يديه قرود تغرغر وأباريق تزهر وصينية فيها قنينة وكأس وكور ماء والستائر منصوبة والجوار خلفها، فقلت ما بال الستائر لم أسمع من ورائها صوتًا، فقال اجلس وحكى: إني أصبحت على ما ترى لقد أتاني خبر صنيعة تجاورني وكنت أطلبها زمانًا وتمنيت أن لو ملكتها وقد أعطى الآن فيها ألف درهم، فقلت، ما يمنعك منها وقد أعطاك الله أضعاف ثمنها فقال: صدقت ولكن نفسي غير راضية بإخراجه وأخذ قضيبًا وضرب به على دواة في يده وألقى عليّ:

نــام الخالــيون مــن هــم ومن سقم وبــت مــن كثــرة الأحــزان لم أنم

يــا طالــب الجــود والمعروف مجتهدًا اعمد ليحيى حليف الجود والكرم(١)

قال أحكمته ثم قال: اذهب إلى الوزير يحيى بن خالد وحدثه بما رأيت واذكر الصنيعة وعرفه أني صنعت هذا الصوت وقد أعجبتني أو لم أر من يستحقه إلا جاريته دنانير وإني عليك لتلقيه عليها، فإنه يأمر بضرب الستارة ويقول لك اطرحه عليها ثم ائتني بما يكون من الخبر قال: فذهبت إلى يحيى، وألقيت الصوت على الجارية حتى أحكمته فقال لي تقيم عندنا أو تنصرف فقلت: أنصرف، فقال يا غلام احمل معه عشرة آلاف درهم واحمل إلى إبراهيم مائة ألف درهم فأخذت مالي وأتيت منزلي ونثرت منه على من كان عندي من الجواري وأقمت بقية يومي فلما أصبحت ذهبت إلى إبراهيم فوجدته على مثل ذلك ما كان عليه بالأمس فقلت له: ألم يأتك المال من ابن خالد في الأمس فقال: نعم غير أنه لما دخل بخلت نفسي بالإخراج منه وألقى عليّ صوتًا آخر وقال لي: اذهب إلى الفضل بن يحيى وحدثه بما كان من أبيه أمس فذهبت إليه وحدثته فأمر لي بعشرين ألف درهم ولإبراهيم بمائتي ألف درهم وفعلت كما فعلت بالأمس ثم لما أصبحت غدوت إليه فوجدته مثل حاله واعتذر بمثل عذره وألقى عليّ صوتًا آخر وقال اذهب إلى جعفر بن يحيى وحدثه بالخبر فذهبت إليه وأخبرته بما كان من أبيه وأخيه فأمر لي بثلاثين ألف درهم وإلى إبراهيم بثلاثمائة ألف درهم وأنا جالس في مجلس فعلى مثل هؤلاء يبكي.

ولما قدم إسماعيل: فقال أخاه ابن صالح قال الرشيد للفضل بن يحيى أريد أن

---

(١) انظر: الأغاني (١٩٤/٥) وقال: الشعر لأبي الضير، والغناء لإبراهيم الموصلي.

أرى إسماعيل فقال أخوه عبد الملك قد تنسك وقد نهاه أن يمضي إلى أحد فقال إني أتعلل حتى يأتيني عائدًا فقال الفضل لإسماعيل ألا تعود أمير المؤمنين فأجاب فلما علم أخوه وجه إليه يقولون إنما يريدون أن تشرب معهم وتغني لهم فإن فعلت فما أنت أخي فلما دخل إسماعيل على الرشيد رفعه فأكرمه وقال: وجدت راحة بك واشتهيت الطعام فقدمت لهم المائدة فأكلوا ووصف الطبيب للرشيد أقداحًا فقال لا أشرب حتى يشرب إسماعيل، فقال له: أتق الله في فإني حالف أن لا أفعل من ذلك.

فقال: لابد فشرب الرشيد ثلاثة أقداح وسقى إسماعيل مثلها ثم مدت ستارة وخرج بعض الجواري منها وجلس بين يديه فطرب إسماعيل لذلك وكان في يد الرشيد سبحة فيها قطع اشتراها بثلاثين ألف دينار فوضعها في عنق العود ووضعه في حجر إسماعيل وقال غن وكفر عن يمينك بثمن هذه السبحة فاندفع يغني وأنشد يقول:

فأقسم ما مددت كفي لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلني عليها ولا عقلي

وأعلم إن لم تصبني مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

فطرب الرشيد وقال: يا غلام الرمح فعقد له الولاية على مصر وقال إسماعيل فوليتها سنين أوسعتهم فيها عدلاً وانصرفت بخمسمائة ألف دينار.

وقال إبراهيم المهدي لجعفر إني استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غدًا فهل أنت مساعدي، فقال جُعلت فداك أنا أسعد بمجالستك وأسر بمحادثتك، قال: فبكر إلى بكر الغراب وأتيته عند الفجر فوجدت الشمع بين يديه وهو ينتظرني فصلينا ثم أفضنا في الحديث وقدم لنا الطعام فأكلنا وجعلت علينا ثياب المنادمة وتطيبنا وتضمخنا بالخلوق ومدت الستارة ودعا الحاجب وقال: إذا أتى عبد الملك فأذن له يعني قهرمانه، فاتفق أن جاء عبد الملك بن صالح عم الرشيد وكان هو من جلالة القدر والورع والامتناع عن منادمة أمير المؤمنين على أمر عظيم، فلما رفع الستر ودخل علينا كاد أن يسقط القدح من أيدينا وعلمنا أنه غلط بينه وبين عبد الملك القهرمان.

فأعظم جعفر ذلك وارتاع له فلما نظر إلينا على تلك الحالة دعا غلامه ودفع عمامته وسيفه ثم قال: اصنعوا بي ماصنعتم بأنفسكم فطرح عليه الثياب الحرير والخلوق وأكل وشرب ثلاثًا ثم قال: ليخفف عني فإني ما شربته قط ففرح جعفر وقال: جعلت

فداك، قد تطولت وتفضلت وساعدت فهل من حاجة تصل إليها يدي فأقضيها مكافأة لك قال: نعم إن في قلب أمير المؤمنين عليّ غضبًا فتسأله الرضا عني: قال جعفر قد رضي عنك قال عبد الملك وعليّ عشرة آلاف دينار قال جعفر هي كل حاضرة من مالي وكل من مال أمير المؤمنين مثلها فقال عبد الملك وولدي إبراهيم أحب أن أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين، فقال جعفر قد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية.

قال عبد الملك وأحب أن تخفق الألوية على رأسه فقال جعفر قد ولاه أمير المؤمنين مصر ثم انصرف عبد الملك قال إبراهيم فتعجبت من إقدام جعفر على أمير المؤمنين من غير استئذان وقلت عسى أن يجيبه إذا سأل عن الرضا والمال إذا أطلق لجعفر أو غيره ثم تزوج بناته، فلما كان الغد بكرتُ إلى باب الرشيد لأرى ما يكون فدخل جعفر ثم لم يلبث بأن دعي بأبي يوسف القاضي وإبراهيم بن عبد الملك وفرح إبراهيم وعقد نكاحه بالعالية بنت الرشيد وعقد له الرايات على مصر وحملت البدر إلى منزل عبد الملك وخرج جعفر وأشار إلينا فلما صرنا إلى منزله قال: لما دخلت على أمير المؤمنين فتمثلت بين يديه قال: كيف كان يومك يا جعفر؟ فقصصت عليه حتى بلغت دخول عبد الملك علينا وكان متكئًا فاستوى جالسًا وقال: أي لله أبوك فقلت: سألني في رضاك قال: بم أجبته؟ قلت رضي عنك قال: أجزت؟

قال ثم ماذا قلت كذا فقال أجزت فانتهيت إلى جميع ما سأله وهو يقول أجزت قال ابن المهدي: فو الله ما أدري أي الثلاثة أكرم وأعجب فعل ما ابتداه عبد الملك من المساعدة وشرب الخمر ولم يكن شربها قط ولباسه الحرير مع أنه كان ورعًا أم إقدام جعفر على الرشيد أم إمضاء الرشيد بما تحدث به جعفر عنه.

ودخل المأمون الديوان فنظر إلى غلام جميل على أذنه قلم فقال: من أنت؟ قال أنا الناشئ في دولتك المتقلب في نعمتك المؤمل لخدمتك الحسن في رجائك، فقال المأمون: بالأحبان بالبديهة تتفاصل العقول يرفع عن مرتبة الديوان إلى مرتبة الخاصة ويعط مائة ألف تقوية له.

وقال القاضي شهاب الدين بن فضل الله: يتيمًا أتى على المنصور والحكم بأمر الله في موكبه قبلي بركة الجيش إذا تقدمهم فمر برجل على باب بستان له وحوله عبيد وموالي فاستسقاه ماء فسقاه ثم قال: يا أمير المؤمنين قد أطمعتني في السؤال: فإن أمير المؤمنين أن يكرمني بنزوله ضيفًا عليّ فقال: ويحك تنعي الموكب قال: وليكن، فنزل

وترجل الجيش معه فأخرج الرجل مائة بساط ومائة نطع ومائة وسادة ومائة طبق فاكهة ومائة جام حلو ومائة زبدية من الأشربة فبهت الأمير وقال أيها الرجل أمرك عجيب هل علمت ذلك فاعتددت قال، لا وإنما أنا تاجر من أحد رعاياك عندي مائة حظية فلما أكرمني أمير المؤمنين بنزوله أخذت من كل واحدة شيئًا من فرشها وما لها كل يوم من الطعام والشراب و الفاكهة، والحلوى فقال الأمير: الحمد لله الذي في رعايانا من يسع حاله هذا وأمر له بما في بيت المال من الدراهم المضروبة فكان ثلاثة آلاف ألف وسبعمائة ألف ثم لم يركب حتى حضر ذلك ودفعه إليه وقال: استعن بهذا على حالك ومروءتك وانصرف.

وحكي أن الرشيد كان يحب جارية اسمها مارية، وأنه أغضبها مدة وكانت هي أيضًا تحبه فلما دام الغضب بينهما وخاصتها يعرفون مكانها منه فأمر جعفر البرمكي العباس بن الأحنف أن يعمل في ذلك شيئًا فعمل العباس شعرًا ودفعه إلى إبراهيم الموصلي فلحنه وغنى به بين يدي أمير المؤمنين وهو هذه الأبيات: -

راجع أحبتك الذين هجرتهم   إن المتيم قل ما يتجنبُ

إن التجنب إن تطاول منكما   دب السلولة فعز المطلب[1]

فلما سمع أمير المؤمنين بادر إلى مارية وترضاها فسألت عن السبب في ذلك فقيل لها الصورة التي اتفقت فأمر لكل واحد منهما بأربعين ألف درهم فصرف لهما ذلك.

ولما قال سلم الخاسر قصيدته في الأمين بن الرشيد:

قل للمنازل يا للشيب الأعفرا   سقيتني غادية السحاب الممطرا

قد بايع به السقلان مهدي الهدى   لمحمد بن زبيدة ابن ثبت جعفرا

فحشو بيده فاه درًا فباعه بعشرين ألف دينار كلها من عطايا الرشيد.

ودخل معد بن نصر الله الجزري الحمام في اليمن فأرسل محمد صاحب اليمن ألف دينار فأعطاها كلها لضامن الحمام فبلغ السلطان فنفاه.

وقدم المغيرة بن خلنا على طلحة الطلحات ومدحه بقصيدته التي منها:

---

(١) انظر: جمهرة الأمثال (٢/٢٧٠)، ونسبها لابن الأحنف برواية أخرى.

فـإن تــدن مــني تــدن مــنك مودتي وإن تــنأ عــني تلقــني عــنك نائيًا[1]

فأخرج له درجًا فيه حجارة من ياقوت فقال له: اختر حجرين منها أو أربعين ألف درهم، فقال: ما كنت لأختار حجارة على أربعين ألف درهم، فأمر له بها فلما قبضها سأله حجرًا فوهب له فباعه بأربعين ألف درهم.

ودخل القباني على المأمون وعنده إسحاق الموصلي فأقبل عليه المأمون بالمداعبة فظن أنه استخف به فقال: يا أمير المؤمنين: الإيناس قبل الإياس فاشتبه على المأمون فنظر إلى إسحاق فتفهما فأومأ إليه بمعناه حتى فهمه فأعطاه ألف دينار.

ودخل القباني على ابن طاهر فأنشده:

أي شـــيء يكـــون أحســـن مـــن حســـن يقـــين حـــد إلـــيك ركـــابي

فأعطاه ألفًا فدخل عليه في اليوم الثالث فأنشده:

ودك يكفـــيك في حاجـــة الدهـــر وثـــوب الثـــنا غـــض جديـــد

فأعطاه ألفًا: لما فرح الكميت زين العابدين علي بن الحسين فبسط له عليه وعلى أهل بيته أربعمائة ألف درهم وهجا الكميت بني أمية فبلغ هشام بن عبد الملك فحبسه ليقطع يده ولسانه فاحتالت امرأته ودخلت السجن وألبسته ثيابها وإزارها وخرج فشفع فيه هشام فأطلقه وأعطاه خمسين ألف درهم.

وكان لبيد ﷺ نذر أن لا تهب الصبا إلا يخبز ويطعم وكان الناس يقولون إذا هبت الصبا أعينوه على مروءته.

وأهدى الليث اللغوي كتابًا من تأليفه فوضعه عنه مائة ألف درهم فضة. وأعطت لمن بشرها بسلامة ابن الزبير من الأمير يوم الجمل عشرة آلاف.

ووكل [المأمون محمد بن علي بن طاهر][2] فقبل يده وقال له ممازحًا: خدشت كفي سأريك فقال مسرعًا: شعرك القنفذ لا يوكم[3] لي الأسد فأعجبه ذلك وأمر له بعشرة آلاف.

وكان الفضل بن يحيى البرمكي شديد القسمة كريم النفس فعوتب في ذلك

---

(١) انظر: الأغاني (١٣/٩٤).

(٢) ما بين [...] سقط من الأصل ولم يثبت في المطبوعة لعدم وضوحه على المحقق.

(٣) يُوكم: يقصد أنه لا يُحزن.

فقال: تعلمته من عمارة بن حمزة العباسي كان أبي يضمن فارسًا من المهدي فجعل عليه ألف ألف درهم فأمر المهدي بأنه إن لم يف قبل غروب الشمس تضرب عنقه ولم يكن جميع ما عنده يبلغ عشرها فقال لي: امض إلى عمارة واذكر له كيف الحيلة فأرسل المال تمامًا فلما مضى شهرًا حملنا المال وقال لي أبي: امض إليه فأده فجئت به فغضب وقال: أكنت مسطارًا لأبيك فقلت لكنك أحسنت ومننت وقد استغنى أبي عنه فقال: هو لك ولم يقبله.

وبعث أبو أيوب المكي ولده إلى عمارة فأدخله الحاجب فوجده مضطجعاً محولاً وجهه إلى الحائط فسلمت فلم يرد فقال لي حاجبه اذكر حاجتك فقلت أبي يقرئك السلام ويذكر دينًا أثقله فتكلم أمير المؤمنين في شأنه فقال: كم الدين قلت: ثلاثمائة ألف قال: منكر تكلم أمير المؤمنين في ذلك يا غلام: احمله إليه ولم يزدني على هذه الكلمة.

واعتل عمارة وكان المهدي سيئ الوافية فقال الفضل بن الربيع للمهدي عمارة عليل أفضى به الحال إلى بيع فرسه وثيابه فقال: غفلنا عنه احمل إليه خمسمائة ألف فوجهها مع ابنه إلى عمارة فوجد وجهه إلى الحائط فسلم فقال: من أنت؟ قال: ابن أخيك الفضل وذكر له القصة فقال: كنا نحب أن نكافئك على ملازمتك لنا ولم يمكنا إلا في هذا الوقت اذهب بالمال هو لك فترك البغال بالباب وانصرف إلى أبيه فأخبره فقال: خذه فليس عمارة ممن يراجع.

ولما ألف الجاحظ كتاب البغال والإبل بعث به إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاه عشرة آلاف دينار كذا ذكره الصفدي في الوافي. قال وأهدي كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي داود فأعطاه خمسة آلاف دينار.

وكتب السراج الوراق إلى فخر الدولة بن الخليلي: -

عسى خبره من الإنجاز شاق ... ابتدأ من الوعد الجميل

تعلم البحور [من][1] سيبويه ... وكان الأصل فيه من الخليل

فأعطاه مائة ألف دينار.

---

(١) ما بين [....] سقط من الأصل ولم يثبت في المطبوعة. وانظر: الأغاني (٥/٩٦)، (١١/٢٩٥)، والمستطرف (٢/٢٣).

ودخل عمر بن عبد الملك الزرار الشاعر على الفضل بن يحيى البرمكي فوجد الناس يهنئونه بمولود علم له بذلك فقال ارتجالاً: –

ويفرح بالمولود من آل برمك بغاة[١] الندي والسيف والرمح ذو الفضل

وتنبسط الآمال فيه لفضله ولا سيما إن كان من ولد الفضل

ثم ارتج عليه فلم يدر ما يقول فقال الفضل: بلغه ولا سيما إن كان من ولد الفضل. ثم أمر له بأربعة آلاف دينار.

ودخل أبو النفير على الفضل بن يحيى فقال الفضل ألست القائل فينا:

إذا كنت من بغداد في رأسي فرسخ وجدت نسيم الجود من آل برمك

قال: نعم قال: ضيقت علينا جدًا، فلأجل ذلك أيها الأمير ضاقت عليّ صلتك وأنا الذي أقول:

تشاغل الناس ببنياهم والفضل في بني العلا جاهد

كل ذوي الرأي ولد على النهي للفضل فتدبيره حامد

وعلى ذلك فما قلت البيت الأول الذي بلغ الأمير وإنما قلت:

إذا كنت في بغداد في مقطع الثرى وجدت نسيم الجود من آل برمك

فقال له الفضل إنما أخرت هذه لأمازحك وأمر له بثلاثين ألف درهم. وكتب الزاهد الحريري إلى بعض الرؤساء: –

عد للحمى ودع الرسائل وعن الأحبة قف وسائل

واجعل خضوعك والتذلل في طلابهم وسائل

واسأل مراحم فهن لكل محروم وسائل

وأمر له بألف دينار.

ومدح ابن الشحنة[٢] الموصلي السلطان صلاح الدين بقصيدة منها:

---

(١) تنبيه: صحفت بغاة، إلى دعاه في المطبوعة والصواب ما أُثبت.

(٢) في المطبوعة (السحنة) أي بالسين المهملة وهو خطأ، والصواب ما أُثبت، وهو أحمد بن الشحنة الموصلي.

وقالـــت لي الآمـــال إن كـــنت لاحقًا بأبـــناء أيـــوب فأنـــت الموفـــق

فطرب بذلك وأمر له بثلاثة آلاف دينار وصار يحضر مجلسه فصار يقع في محذور نور الدين فقال صلاح الدين بينما يعود المرء نفسه من وقوعه في أعدائه فكيف يكون في صاحبه فكيف في مخدومه فكيف في ملكه ونفاه.

وقال الريحاني أقمت بباب الحسن بن سهل ثلاثة أشهر لأحظى منه بطائل فكتبت إليه:

مـــد مـــن ابـــن ســـهل ذي الأيـــادي ومـــا لـــه بذلك يد عندي ولا قدم بعد

ســـأحمده للـــناس حـــتى إذا بـــدا لـــه في رأي عـــاد لي ذلـــك الحمـــد

فبعث إليَّ: إن باب السلطان يحتاج ثلاث خصال: مالاً وعقلاً وصبرًا فكتبت إليه: لو كان لي مالي لأغناني عن الطلب منك أو صبر لصبرت عن الذل أو عقل لاستدللت به عن النزهة عن سؤالك فأمر لي بخمسين ألف درهم.

ولما ألف ابن أصيبعة تاريخ الأطباء كتب نسخة وأرسلها إلى أمين الدولة وزير الصالح إسماعيل فبعث له بألف دينار وحلة فاخرة وشكره على ذلك فمدحه بقصيدته التي أولها:

فـــؤداي في محبـــتهم أســـير وإن ســـار وكتـــبهم أســـير

وكان الملك المعظم شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين بن أيوب كريمًا فلما مات رآه المهدي الخيمي فمدحه بقصيدة وهو في القبر فلف كفنه ورمى به إليه وقال:

ولا تســـتقلن معـــروفًا سمحـــت بـــه ميـــتًا فأصـــبحت مـــنه عـــاري البدن

ولا تظـــن جـــودي شـــأنه بخـــل فمـــن بعـــد بـــذلي ملـــك الشام اليمن

وإني خـــرجت مـــن الدنـــيا ليس معي مـــن كـــل ما ملكت كفي سوى كفني

وكان ثعلبة الحنفي جواد فخافت امرأته أن يذهب ماله فقالت له: اقسم مالك بين بنيك فقال:

وعاذلـــة تلـــوم فلـــم أطعهـــا قـــديمًا مـــا أطعـــت العاذليـــنا

إلا مـــالي ومـــا أهلكـــت مـــنه لمـــن أبقـــي لأي الوارثيـــنا

أللمحتال حين الموت بعدي ... يجمع المال أو للمفسدينا

ودخل أحمد بن عبد الله بن طباطبة الحسين جامع مصر العتيق فلم يجد مكانًا في الصف الأول فوقف في الصف الثاني فالتفت أبو حفص بن الجلاب فرآه فتأخر وتقدم الشريف فكافأه على ذلك بخمسمائة دينار واشترى له دارًا ونقل أهله إليها بعد أن كساهم وجلاهم.

وامتدح أبو تمام إبراهيم بن المهدي فوجده عليلاً فقبل المدحة منه وقال أقوم من مرضي فأكافئه فأقام شهرًا ثم كتب:

إن حرامًا قبول مدحتنا ... وقبول ما يرتجى من الصفد

كما الدنانير بالدراهم في ... البيع حرامًا إلا يدًا بيد

فأمر له بأربعين ألفًا ثم كتب إليه:

أعجلتنا فأتاك عاجله صرفا ... بلا فلو أمهلت لم تقلل

فخذ القليل وكأنك لم تقل ... ويكون نحن كأن لم نفعل

ودخل الأصمعي على جعفر: فأخرجت له جارية وهي في غاية الحسن فقال وهبتك لهذا فبكت وجزعت وقالت شيخًا نعما أرى من سماحته وقبح منظره قال يا أصمعي هل لك أن أعوضك عنها بألفي دينار قال نعم فأمر له بها ثم قال يا أصمعي أنكرت عليها شيئًا فأردت عقوبتها بك ثم رحمتها منك.

وذكر المتوكل فضل الجاحظ فاستدعاه ليؤدب ولده فلما دخل استقبح منظره فأعطاه خمسة آلاف دينار وصرفه.

ومن جود الشافعي ﷺ: أن سوطه وقع من يده فأعطى من ناوله إياه خمسين دينارًا.

وورد مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه خارجها فأتاه الناس فما برح من موضعه حتى فرقها.

وكانت غلة ضياع ابن علي بن عيسى البغدادي سبعمائة ألف دينار كل سنة ينفق منها في وجوه البر والوافدين ستمائة ألف دينار وستين ألفًا وينفق على نفسه وعياله ما بقي وكان يجري على خمسة وأربعين ألف إنسان الجرايات الكافية لهم، وكان القاضي القاسم التنوخي مدخله في كل شهر خمسون دينارًا ينفقها كلها على أصحاب الحديث.

وقال ابن هيفان يمدح ابن المدبر:

يا ابن المدبر أنت علمت الورى بذل النوال وهم به بخلاء

لو كان مثلك في البرية واحدًا في الجود لم يكن فيهم فقراء

فأمر له بثلاثين ألفاً.

ولما عزل من الأهواز جاء الناس يودعونه فأمسك أبو شراعة يده وهو في الحرافة وأنشد:

ليت شعري أي قوم أجدبوا فأغيثوا بك من البعد العجف

نزل اليمن من الله بهم وحرمناك لذنب قد سلف

إنما أنت ربيع باكر حيثما[1] صرفه الله انصرف

يا أبا إسحاق سر في دعة وامض مصحوبًا فما عنك خلف[2]

وكان لزيادة صاحب العيرواني غلام يهواه فسخط عليه وقيده بقيد من ذهب عشرة أرطال فقال له بعض أصحابه بيتين وأرسلهما إليه: -

يا أيها الملك الميمون طائره رفقًا فإن يد المعشوق فوق يدك

فأطلقه وأعطى الكاتب القيد الذهب. ووصف خواجا رشيد: كتابًا باسم غازان ملك التتار فأعطاه ألف ألف دينار فاشترى بها ضياع هكذا ذكره الصفدي. وكان ابن النجيب الجزري كثير الملازمة للوزير المهلبي فاستدعاه يومًا وقد غسل ثيابه فاعتذر إليه ولم يقبل فكتب.

عبدك عبدك تحت الحبل عريان كأنه لا كان شيطان

ارق من ديني وإن كان لي دين كما للناس أديان

يقول من يبصرني معرضًا فيها وللأموال برهان

هذا الذي قد نسجت فوقه عناكب الحيطان إنسان

فبعث له حلة وقميصًا وعمامة وسروالاً وخمسة آلاف درهم وقال أنفذت لك ما

(١) في المطبوعة (جيث) وهو خطأ ظاهر.

(٢) انظر: الأغاني (٢٢/١٨٣)، (٢٣/٢٩).

لا تدفعه للخياط فإن كنت غسلت التكة والنعل عرفني أرسلهما إليك.

وقال أبو القاسم بن حبيب: في وصف جمع من الكرماء:

قوم إذا سلوا سيوفهم في الروع لم يغمزوها في سوى المهجور

[تنبيه] أجمعوا على أن الجود محمود إلا في النساء لأن المرأة إذا كان طبعها الجود بما يطلب منها قد تجود بنفسها ولهذا قال الله تعالى:﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

ولم يمدح أحد من العقلاء كرم المرأة وما أحسن ما قال المعزي:

عزيزة تخطف الأبصار شاخصة من حولها ببروق البيض والأسل

تنمي إلى القوم جادوا وهي باخلة والجود في الخود مثل الشح في الرجل

ما أحسن النصف الأخير مما فيه من جناس التصحيف، وقال ابن نباتة:

كسلى تزور مع الظلام لها طيف فأعدى طيفها الكسل

جادت بما جاد الرفاد به ومن الغواني يحسن البخل

الباب الثاني
في ذم البخل

وفيه فصول:

الفصل الأول
فيما ورد في ذمه من الأحاديث وقد جعلتها ثلاثين حديثًا

الحديث الأول: عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»[١]. رواه أحمد ومسلم وكذا البخاري في الأدب.

الحديث الثاني: عن الهرماس بن زياد أنه ﷺ قال: «**إياكم والخيانة فإنها بئست البطانة وإياكم والظلم فإنه ظلمات يوم القيامة وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح فسفكوا دماءهم وقطعوا أرحامهم**»[٢]. رواه الطبراني ورواه الديلمي عن ابن عمر.

الحديث الثالث: عن ابن مسعود عنه ﷺ: «**إياكم والكبر فإن إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم وإياكم والحرص فإن آدم حمله الحرص على أن أكل من الشجرة وإياكم والحسد فابني آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسدًا فهن أصل كل خطيئة**»[٣].

الحديث الرابع: عن أبي هريرة عن المصطفى ﷺ: «**إياكم والفحش فإن الله لا يحب الفاحش،ولا المتفحش، وإياكم والظلم فإنه الظلمات يوم القيامة، وإياكم والشح**

---

(١) رواه مسلم (١٩٩٦/٤)، (٢٥٧٨)، وأحمد في المسند (٩٢/٢، ١٣٦)، والبخاري في الأدب المفرد (ص١٧٠)، والحاكم في المستدرك (٥٦/١)، والنسائي في الكبرى (٤٨٦/٦) والبيهقي في الكبرى (٩٣/٦)، (١٣٤/١٠).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٥٣٨)، (٢٠٤/٢٢)، والأوسط (٦٢٩)، (١٩٨/١) ورواه الديلمي (٤١٥)، (١٢١/١) عن جابر بنحوه، ورواه أبو داود (٤٣٣/٥) وأحمد (٤٨٥/٣) مختصرًا عن الهرماس.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٩/٤٠).

فإنه دعا من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وبالظلم فظلموا، وبالقطيعة فقطعوا»(١).

الحديث الخامس: وفي رواية له: «**أمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا**»(٢).

الحديث السادس: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إياكم والبخل فإنه دعا من كان قبلكم إلى أن يقطعوا أرحامهم فقطعوها ودعاهم إلى أن يستحلوا محارمهم فاستحلوها ودعاهم إلى أن يسفكوا دماءهم فسفكوها**»(٣).

الحديث السابع: عن أبي الأعور السلمي عن النبي ﷺ: «**إنما أخاف على أمتي ثلاثًا شحًا مطاعاً وهوى متبعًا وإمامًا ضالاً**»(٤). رواه الطبراني وغيره.

الحديث الثامن: عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**قسم الله تعالى لا يدخل الجنة بخيل**»(٥). رواه ابن عساكر.

الحديث التاسع: عن عمران بن حصين ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يحب الإنفاق ويبغض الإقتار فأنفق وأطعم ولا تصر صرًا فيعسر عليك الطلب**»(٦). رواه القضاعي.

الحديث العاشر: عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «**شر حال ما في الرجل شح هالع وجبن خالع**»(٧). رواه أبو داود وغيره.

الحديث الحادي عشر: عن ابن عمر ورفعه إلى رسول الله ﷺ: «**ينجو أول هذه**

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٣/١٨٨) وفي البخلاء، بتحقيقنا، والحاكم (١/١٢)، والحميدي في مسنده (١١٥٩).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١/٥٥)، وابن حبان (١١/٥٧٩)، وانظر: الذي قبله.

(٣) تقدم في سابقه.

(٤) رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٦/٢٣٤)، (١٢٩٦)، والديلمي في الفردوس (٦١٧٩)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٢٣٩)، وعزاه للطبراني والبزار.

(٥) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٤/٢٦٥).

(٦) رواه القضاعي في الشهاب (٢/١٥٢)، (١٠٨٠)، (١٨٠١)، وأبو نعيم في الحلية (٦/٩٩)، وابن جميع في معجم الشيوخ (١/٨٩).

(٧) رواه أبو داود (٣/١٢)، (٢٥١١)، وأحمد في المسند (٢/٣٠٢)، ٣٢٢)، والبيهقي (٩/١٧٠).

الأمة باليقين والزهد ويُهلك آخرها بالبخل والأمل»[(١)]. رواه ابن أبي الدنيا وغيره.

الحديث الثاني عشر: عن أبي هريرة عنه ﷺ: **«لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا»**[(٢)]. رواه النسائي وغيره.

الحديث الثالث عشر: عن أبي هريرة قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ شهيدًا فبكته باكية فقالت واشهيداه فقال عليه الصلاة والسلام: **«وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه»**[(٣)].

الحديث الرابع عشر: عن ابن عمر عن سيد البشر قال: **«الشحيح لا يدخل الجنة»**[(٤)]. رواه الطبراني.

الحديث الخامس عشر: عن صهيب عنه ﷺ: **«لا يدخل الجنة إلا من قال بالمال هكذا أو هكذا يمنة ويسرة»**[(٥)]. رواه أبو نعيم والديلمي.

الحديث السادس عشر: عن جابر وأبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سيدكم يا بني سلمة؟»** قلنا الجد بن قيس على أنا نبخله قال: **«وأي داء أدوأ من البخل»**[(٦)]. رواه الشيخان عن جابر والحاكم عن أبي هريرة.

الحديث السابع عشر: عن أنس رفعه إلى رسول الله ﷺ قال: **«ما محق الإسلام محق الشح شيء»**[(٧)]. رواه أبو يعلى والطبراني.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في اليقين (٣)، والديلمي في الفردوس (٤/٢٨٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/٤٢٧).

(٢) رواه النسائي (٦/١٣، ١٤)، وأحمد في المسند (٢/٢٥٦، ٣٤٠، ٣٤٢، ٤٤١).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٤/٢٦١)، وابن عدي في الكامل (٥/٣٧٠)، والترمذي (٢٣١٦)، والخطيب في البخلاء. تنبيه: علق محقق المطبوعة أنه وقع في المنسوخة: أبو هريرة وقال: لعله خطأ والصواب عن أنس، قلت: فالحديث روي أيضًا عن أبي هريرة، وانظر: البيان والتعريف (٢/٢٦٢).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٤/٢٣٤).

(٥) رواه الخطيب في التاريخ (٩/٣١٧) والديلمي (٤/٢١٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٥٣).

(٦) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص ٩٤)، والخطيب في البخلاء — بتحقيقنا.

(٧) رواه الطبراني في الأوسط (٣/١٧٥). وأبو يعلى في مسنده (٦/٢٠٠٩)،وابن عدي في الكامل (٥/٥٠٢).

الحديث الثامن عشر: عن نافع قال سمع ابن عمر رجلاً يقول: الشحيح أعذر من الظالم، قال: كذبت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الشحيح لا يدخل الجنة**»[١]. رواه الخطيب وغيره.

الحديث التاسع عشر: عن أبي شجرة أنه ﷺ قال: «**يقولون: أو يقول قائلكم: الشحيح أعذر من الظالم، وأي ظلم أعظم عند الله من الشح؟ حلف الله بعزته، وعظمته، وجلاله، لا يدخل الجنة شحيح**»[٢]. رواه الخطيب.

الحديث العشرون: عن ابن عباس رفعه إلى المصطفى ﷺ قال: «**لما خلق الله جنة عدن، قال لها: تزيني فتزينت. ثم قال لها: أظهري أنهارك فأظهرت عين السلسبيل، وعين الكافور، وعين التسنيم، ففجر منها في الجنات أنهار الخمر والعسل واللبن ثم قال: أظهري سورك، وحجالك فنظر إليها فقال: تكلمي. قالت: طوبى لمن دخلني، فقال: وعزتي وجلالي لا يسكنك بخيل**»[٣].

الحديث الحادي والعشرون: أيضًا عن ابن عباس رفعه إلى سيد الناس ﷺ قال: «**خلق الله جنة عدن بيده وولى فيها ثمارها، وشق فيه أنهارها، ثم نظر إليها فقال لها تكلمي فقالت ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] فقال: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل**»[٤]. رواه الطبراني في الكبير والصغير بإسنادين أحدهما جيد.

الحديث الثاني والعشرون: عن أبي بكر عنه ﷺ: «**لا يدخل الجنة خب، ولا منان، ولا بخيل**»[٥]. رواه الترمذي وقال غريب.

---

(١) تقدم تخريجه، وانظر: البخلاء للخطيب، بتحقيقنا، طبع العلمية بيروت.

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٤٣)، وعزاه للطبراني في الأوسط عن ابن عمر، وضعفه.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٤٧)، (١٢٧٢٣)، وفي الأوسط (٥٥١٨)، (٥/٣٤٩) والفردوس في الديلمي (١/١٨١)، وأبو نعيم في صفة الجنة (ص ٩).

(٤) تقدم في سابقه.

(٥) تقدم تخريجه.

الحديث الثالث والعشرون: عن علي كرم الله وجهه عنه: «**إن الله يبغض البخيل في حياته، السخي عند موته**»(١). رواه الديلمي.

الحديث الرابع والعشرون: عن أبي ذر ﷺ عنه ﷺ: «**ثلاثة يبغضهم الله، الشيخ الزاني، والبخيل، والمتكبر**»(٢). رواه ابن حبان.

الحديث الخامس والعشرون: عن أبي سعيد عنه عليه الصلاة والسلام قال: «**خصلتان لا تجتمعان في قلب مؤمن البخل وسوء الخلق**»(٣). رواه الترمذي.

الحديث السادس والعشرون: عن عائشة رضي الله عنها عنه ﷺ: «**لا يدخل الجنة بخيل ولا عاق ولا منان بما أعطى**»(٤). رواه الدارقطني والخطيب.

الحديث السابع والعشرون: عن أنس رفعه قال: كان المصطفى ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل**»(٥). رواه الحاكم والبيهقي.

الحديث الثامن والعشرون: عن أنس أيضًا عنه عليه الصلاة والسلام: «**ثلاث مهلكات هوى متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه**»(٦). رواه الطبراني وغيره.

الحديث التاسع والعشرون: عن عوف بن عتبة بن عبد الله عنه ﷺ بلاغاً: «**ثلاث من النفاق البذاء، والفحش والشح وهن مما يزدن في الدنيا وينقصن في**

---

(١) رواه الخطيب في البخلاء، بتحقيقنا والديلمي في الفردوس (١/١٦٨)، وذكره المناوي في فيض القدير.

(٢) رواه ابن حبان (٥/١٤٥)، وبنحوه وفيه زيادة عند النسائي (٥/٨٤)، وأحمد في المسند (٥/ ١٥١، ١٥٣).

(٣) رواه الترمذي (١٩٦٢)، والطيالسي في مسنده (١/٢٩٣)، والقضاعي في الشهاب (١/ ٢١١)، والبخاري في الأدب المفرد (١/١٠٦).

(٤) رواه الخطيب في البخلاء، بتحقيقنا، وأبو الشيخ والديلمي كما في كشف الخفا (١/٤٠٣).

(٥) رواه البخاري (٦٠٠٨)، ومسلم (٢٧٢٢)، وأبو داود (١٥٤٠)، والترمذي (٣٤٨٥)، والنسائي (٨/٢٥٧، ٢٦٠)، وأحمد في المسند (٣/٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٤، ٢٣١، ٢٣٥)، والبخاري في الأدب المفرد (١/٢٣٤، ٢٧٩).

(٦) رواه البزار في مسنده (٨١)، وأبو نعيم في الحلية (٢/٣٤٣)، (٢/٣٤٣)، والطبراني في الأوسط (٥/٣٢٨)، (٥٤٥٢)، والقضاعي في مسنده (١/٢١٤)، والبيهقي في الشعب (٥/٤٥٢).

الآخرة»[(١)]، رواه رسته[(٢)].

الحديث الثلاثون: عن أبي سعيد الخدري قال: دخل رجلان على رسول الله ﷺ فسألاه عن بعير فأعطاهما دينارين فخرجا من عنده فلقيا عمر فأثنيا وقالا معروفًا وشكرًا لما صنع عمر فدخل عمر ﷺ على رسول الله ﷺ: «**لكن فلان أعطيته ما بين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك، إن أحدكم ليسألني فينطلق في مسألته يتأبطها وهي نار**» فقال عمر ﷺ: فلم تعطهم ما هو نار؟ قال: «**يأبون إلا يسألوني ويأبى الله لي البخل**». رواه أبو يعلى والبزار[(٣)].

---

(١) رواه معمر بن راشد في الجامع (١١/١٤٢)، والبخاري في الكنى (ص ٥٩)، (٥١٣)، وأورده الحسيني في البيان والتعريف (ص ١٩٦)، والمناوي في فيض القدير (٣/٣٠٨).

(٢) هو رسته بن عون بن عبد الله، حديثه هذا في الدارمي (١/١٢٩، ١٣٠)، والصمت لابن أبي الدنيا (٣٢٩).

(٣) رواه أحمد في المسند (٣/٤، ١٦)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٣٩٧)، وأبو يعلى في مسنده (٢/٤٩٠)، والحاكم (١/٤٦).

الفصل الثاني

فيما جاء في ذمه من الآثار وكلام الحكماء

قالت أخت عمر بن عبد العزيز أف للبخيل لو كان البخل قميصًا ما لبسته ولو كان طريقًا ما سلكته.

وقال محمد بن المنكدر: كان يقال إذا أراد الله بقوم شرًا أمر عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم.

قال عبد الله بن عمر: الشح أشد من البخل لأن الشحيح من شح على ما في يد غيره حتى يأخذه والبخيل من يبخل بما في يده[١].

وقال الشعبي: لا أدري أيهما أبعد غورًا في جهنم البخل أو الكذب[٢].

وقال بعض الحكماء: من كان بخيلاً ورث عدوه ماله.

وقال الضحاك: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا ﴾ [يس: ٨]، قال البخل أمسك الله تعالى في أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا ينصرون الهدى.

وقال الأصمعي: سعمت أعرابيًا قد وصف رجلاً وقال لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه وكأنما يرى بالسائل إذا رآه ملك الموت إذا آتاه.

وقال أبو حنيفة: لا أرى أن أعدل بخيلاً يحمل البخل عن الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يعين فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة.

وقال علي كرم الله وجهه: والله ما استقصى كريم قط.

وقال الجاحظ: ما بقي من اللذات إلا ثلاث ذم البخل وأكل القديد وحك الجرب.

وقال بشر بن الحارث: البخيل لا غيبة له فإن المصطفى ﷺ قال: «وإنه لبخيل»[٣].

ومدحت امرأة عند المصطفى ﷺ فقالوا: صوامة علامة قوامة إلا أن فيها بخلاً

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/٢٩)، وشرح مسلم للنووي (١٦/١٣٤)، وعون المعبود (٥/ ٧٩)، (٧/١٣٤).

(٢) انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/٢٤٣)، وتهذيب الكمال للمزي (٢٥/١٤١).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧/٤٤٢).

فقال: «وما خيرها إذن»[1].

وقال ابن المعتز: أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه.

ولقي يحيى بن زكريا عليهما السلام إبليس لعنه الله في صورته فقال له: أخبرني بأحب الناس إليك وأبغضهم لديك قال: أحبهم إليَّ المؤمن البخيل وأبغضهم إليَّ الفاسق السخي، قال: لم؟ قال لأن البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله تعالى عليه في سخائه فيقبله ثم ولى وهو يقول: لولا أنك يحيى ما أخبرتك.

قال بعض الحكماء: البخل جلباب المسكنة[2]. وقالوا: البخيل ليس له خليل.

ويقال: البخيل حارس همته وخازن رثته وعليه قيل:

إذا كنت جماعًا لمالك ممسكا ... فأنت عليه خازن أمين

تؤديه مذمومًا إلى غير حامد ... فيأكله عفوًا وأنت دفين

وتظاهر بعض ذوي النباهة بحب الثناء مع المساك فيه فقال بعضهم:-

أراك تؤمل حسن الثناء ... ولم يرزق الله ذاك البخيلا

وكيف يسود أخو بطنه ... يمن كثيرًا ويعطي قليلاً

قال الماوردي: ويحدث عن البخل من الأخلاق المذمومة إن كان ذريعة إلى كل مذمة أربعة أخلاق أنها يكن بها ذم وهي الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق، فأما الحرص فهو شدة الكدح والإسراف وأما الطلب الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار بلا حاجة وهذا فرق ما بين الحرص والشره.

وقال بعض الحكماء: الشره غزير اللوم، وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل.

وأما منع الحقوق فلأن نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها والانتقاد إلى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولا تجنب إلى إنصاف فإذا آل البخيل إلى ما وصف من هذه الأخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير موجود وصلاح مأمول.

وقال سفيان الثوري: لا يتم السخاء ببذل ما في يده حتى تسخو نفسه عما في

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٧/٤٤٢).

(٢) انظر: فيض القدير (٣/١٣١).

يد غيره ولا يميل إلى طلب ولا يكف عن بذل.

وقال كسرى أنوشروان: لا عفة مع البخل ولا مروءة مع الكذب فلا تعد الشحيح أمينا ولا الكذاب حرًا.

وقال الحسن البصري: ما أنصفك من منعك ماله إلا كلفك إجلاله.

وقال بعضهم: من عظمت مرافقته عظمت مواقعه. وقالوا من قل حياؤه قل أحباؤه.

وقال الماوردي: الحرص والشح أصلا كل ذم وسببا كل لوم لأن الشح يمنع من أداء الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوق فأما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من المواظبة على العبادة لشغله عنها ويبعث على التورط في الشبهات لقلة تحرزه منها فهذه ثلاث خلال هن جامعات للرذائل ومانعات للفضائل مع أن الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى إذلال نفسه وإسخاط خالقه.

وفي الخبر: الحريص الجاهل والقانع الزاهد يستوفيان ملكهما غير مستنقص منه شيئًا فعلام التهافت في النار.

وقال بعض الحكماء: الحرص مفسدة في الدين والمروءة والله ما عرفت في وجه رجل حرصًا فرأيت أن فيه مصطنعًا(١).

وقال آخر: الحريص أسير مهانة لا ينفك أسره.

وقال بعض البلغاء: المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة والأرزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمكالبة فدلل للمقادير نفسك واعلم أنك غير نائل بالحرص إلا حظك وليس للحرص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها لأنه إن وصل بالحرص إلى ما آمل لومًا والصبر عليه حزمًا وصار لما سلف من غبائه أقوى رجاء وأبسط أملاً.

فائدة:

قال الراغب: البخل ثلاث أضراب بخل الإنسان بماله وبخله بمال غيره على غيره وبخله على نفسه بمال غيره وهو أصح الثلاثة والباخل بما في يده باخل بمال الله على نفسه والمال عارية في يد الإنسان مستردة ولا أحد أجهل ممن لا ينقذ نفسه من العذاب الدائم بمال غيره سيما إذا لم يخف من صاحبه تبعته ولا ملامة والكفالة إلا

---

(١) انظر: فيض القدير (٣/١٣١).

لحصن متكفل بتعويض المنفق إن من الله المعونة بقدر المؤنة ومن وسع وسع عليه ومن ضيق ضيق عليه.

تنبيه:

أخرج الخطيب البغدادي عن أبي حمزة الثمالي قال: ثلاث هن أحسن شيء في من كن فيه: نصيب لغير دينار، وجود لغير ثواب وتواضع في غير ذل، وخمس هن أقبح شيء في من كن فيه: الحرص في العالم والفسق في الشيخ والبخل في الغني والكذب في ذي الحسب والحدة في ذي السلطان(١).

وعلم بعضهم [أن] الحسد ماحق الحسنات والزهو جالب لمقت الله ومقت الأولياء والعجب صارف عن الازدياد من العلم والبخل أسوأ الأخلاق وأجلبها لسوء الأحدوثة.

الفصل الثالث

في حكايات البخلاء وما ورد في ذلك من الأشعار ودقائق الأخبار

كان يعقوب الكندي بخيلاً فقال لولده: يا ولدي من شرف البخل أنك تقول للسائل لا ورأسك إلى فوقك ومن ذل العطاء أنك تقول نعم ورأسك إلى أسفل.

وقال أيضا سمعك الغناء لحسام حاد لأن الإنسان ليسمع فيطرب فيسمح فينفق فيسرف فيفتقر فيغتم فيموت.

وأوصى ولده فقال: يا بني كن مع الناس كلاعب شطرنج تحفظ شاهك وتأخذ شاههم فإن مالك إذا خرج عن يدك لم يعد إليك واعلم أن الدنيا مححودة فإذا صرفته مات.

وقال المتلمس:

قليل المال تصلحه فيبقى ... ولا يبقى الكثير مع الفساد

لحفظ المال خيرهن نفاد ... وسر في البلاد بغير زاد(٢)

واعرف بيتا بيت أكثر من مائة ألف إنسان في المساجد وهو:

فسر في بلاد الله والتمس الغنى ... تعش ذا يسار وتموت فتعذرا

---

(١) انظر: البخلاء للخطيب بتحقيقنا (طبعة دار الكتب العلمية- بيروت).

(٢) انظر: الأغاني (٢٤/٢٥٥).

فبادر يا بني أن تلحق بهم: وقال دعبل الخزاعي: أقمنا يومًا عند سهل بن هارون وأطلنا حتى أضر بنا الجوع فدعا بغلام له فأتاه بغدائه فأتي له بصحفة فيها مرق تحت ديك هرم فأخذ كسرة وتفقد ما فيها فلم يجد رأس الديك فبقي مطرقًا ثم قال للغلام أين رأس الديك؟ قال رميت به قال ولم؟ قال أظنك لا تأكله قال: ولم ظننت ذلك والله إني لأمقت على من يرمي برجله فكيف برأسه والرأس رئيسي يتفاءل به وفيه الحواس الخمس ومنه يصح الديك ولولا صوته لما أريد وفيه عرفه الذي يبهرك وعيناه اللتان يضرب بهما المثل ودماغه لوجع الكليتين ولم ير عظم قط أهش من عظم رأسه فإن كان بلغ من مثلك أن لا يأكله فعندنا من يأكله أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح والساق وانظر أين رميته قال والله لا أدري قال أنا أدري رميته في بطنك.

وقال عمرو بن ميمون تغديت يوما عند الكندي فدخل جار له فدعوته إلى الطعام فقال الرجل والله تغديت فقال ما بعد الله شيء فكتفه بكتاف لو نشط معه ليأكل لكان كافرا.

قيل إن كسرى أول من وضع لندمائه إشارة ينصرفون بها من مجلسه إذا أراد هو ذلك إذا مد رجله فينصرفون فتبعه الملوك على وضع ذلك وكان أبرويز يدلك عينيه وكان بهرام يرفع يديه إلى السماء وكان في الإسلام معاوية يقول العزة لله وعبد الملك بن مروان يلقي المحضر من يده وعمر بن عبد العزيز يدعو فتحدث بعضهم بهذا عند البخلاء وسئل ما إشارتك قال: إذا قلت يا غلام هات الطعام.

ونظر عبد الله بن الزبير إلى رجل من أصحابه قد دق في صدور أصحاب الحجاج في قتاله له على مكة ثلاثة أرماح فقال له يا هذا اعتزل من نصرتنا فإن بيت المال لا يقوم بهذا.

وقال لرجل يتجر ما صنعتك قال التجارة في الرقيق فقال: ما أشد إقدامك على الغرور وإضاعة المال: قال بماذا؟ قال ببضاعتك الملعونة التي هي ضمان نفس ومؤنة ضرس.

وأتاه عبد الله بن فضالة مستجديا فأخذ يشكو إليه فاقته وجنا ناقته ووعورة طريقه وبعد مسافته فقال له: اخصفها بهلب وارفعها بسبت وانجرها ببرد جفنها فقال ابن فضالة: إنما جئتك مستجديًا لا مستوصفًا فلا بقيت ناقة حملتني قال: وإن وصاحبها أي نعم.

وقال صعصعة بن صومان: أكلت عند معاوية لقمة فقام بها خطيبًا قيل له كيف ذاك، قال لما أكلت معه هيأ لقمة ليأكلها فأغفلها وأخذتها وأكلتها فلما صعد المنبر قال: أيها الناس أجملوا في الطلب فرب رافع لقمة إلى فيه ليسبقها إليه غيره.

ولما بلغ معاوية أن الناس يبخلون به قام على المنبر وقال: إن الله يقول: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر ٢١] فلأي شيء نلام فقام إليه الأحنف، وقال: نحن لا نلومك على ما في خزائن الله بل على ما في خزائنك وأغلقت دونه بابك.

ولما بنى جعفر المنصور بغداد: كان ينظر في العمارة بنفسه ويحاسب الصناع والأجراء ويقول لهذا أنت نمت القايلة ولهذا أنت لم تبكر ويعطي كلاً منهم بحسب ما عمل في يومه فلا يكاد ليعطي أجرة يومًا تمامًا، فقيل له في ذلك قال: لما رأيت الناس عبيد المال حرمته عليهم ليكونوا عبيدًا إلي.

وكان يقول لطباخيه: لكم ثلاث وعليكم اثنان لكم الروس والأكارع والجلود وعليكم الحبوب والتوابل.

وقال له ابن يونس قد طال إقامة الشعراء ببابك ونفدت نفقتهم فقال: قل لهم من مدحنا منكم فلا يصفنا بالأسد فإنما هو كلب من الكلاب ولا بالحية فإنما هي دويبة تأكل التراب ولا بالجبل فإنما هو حجر أصم ولا بالهجر فإنما هو عطافط فمن ليس في شعره شيء من ذلك فليدخل وإلا فلينصرف فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة فإنه قال أدخلني فلما مثل بين يديه قال له هات فأنشده القصيدة التي أولها قال:

سري يومه عني الصبا المتحامل ... وأذن بالبين الحبيب المزائل

إلى أن انتهى إلى قوله:

له لحظات من خفا في سريره ... اذاكرها فيها عقاب ونائل (١)

فأما الذي أمنت أمنه الردي ... وأما الذي خوفت بالشكل قائل

فرفع الستر وأقبل عليه ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وقال له لا تتلفها مطعما في سل مثلها فما في كل وقت يصل إلينا وتنال مثلها منا فقال له إبراهيم: يا أمير المؤمنين

---

(١) انظر: الأغاني (١١٨/٦، ١١٩)، (٧٠/١١).

احبسها حتى ألقاك بها يوم العرض وعليها خاتم الجهبذ. وأشرف المنصور يومًا على الفرات فرأى رجلاً اصطاد سمكة عظيمة فقال لبعض مواليه اخرج إلي المحتسب فمره أن يوكل بهذا الصياد من يدور معه بحيث لا يشعر فكل من باع له السمك يقبض عليه ويأتي به إلينا ففعل فابتاع الصياد السمكة إلى نصراني بثلثي درهم فقبض عليه وأدخل على المنصور فقال له: من أنت؟ قال: رجل من أهل الذمة قال: فبكم ابتعت السمكة؟ قال: بثلثي درهم قال: كم عيالك؟ قال ليس لي عيال قال: فمثلك يشتري هذه السمكة بهذا الثمن كم عندك من المال؟ قال: ليس عندي شيء قال للمحتسب خذه إليك فإن أقر بما عنده وإلا فمثل به فأقر بعشرة آلاف قال كلا إنها أكثر فأقر بثلاثين ألف وأحل دمه وإن وقف على أكثر منها فقال من أين جمعتها؟ قال وأنا آمن فقال وأنت آمن على نفسك إن صدقت قال كنت جارا لأبي أيوب فولاني جهبذه فأصبت هذا المال فقال الله أكبر هذا مالنا اختلسه وأمر بحمل المال إليه وإطلاقه.

وذكر ابن حمدون أن المنصور لما حج حدا به سلم يوما يقول(١):

يلوح بين حاجبيه نوره إذا تغذى رفعت ستوره
يزينه حياؤه وخيره ومسكه يشوبه كافوره

فطرب حتى ضرب برجليه المحمل ثم قال: يا ربيع أعطه عشرة دراهم فقال سلم لغيري يا أمير المؤمنين والله لقد حدوت هشام بن عبد الملك فأمر لي بثلاثين ألف درهم، فقال المنصور: ما كان له أن يعطيك من بيت المال ما ذكرت، يا ربيع وكل به من يستخلصه منه قال الربيع فمازلت سفيرًا بينهما حتى شرط عليه أن يحدوا به في خروجه وقفوله بغير مئونة وكتب إليه عبد الله بن زياد رقعة يستخف به فوقع عليها إن الغناء والبلاغة إذا اجتمعا في رجل أبطراه وأمير المؤمنين شفيق عليك فاكتف بالبلاغة.

وكان السوار قاضي البصرة من قبل المنصور كاتبان رزق أحدهما عشرون درهمًا ورزق الآخر أربعون درهمًا فكتب إليه سوار يسأله التسوية بينهما فأنقص صاحب الأربعين عشرة وزادهما لصاحب العشرين.

وشرب أعرابي عند بخيل غبوقًا فلما سكر البخيل وانتشى خلع على الأعرابي

---

(١) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (١/٣٧٤).

قميصًا ثم انتزعه منه لما صحى ثم شرب معه صبوحًا فلما سكر وانتشى خلع عليه قميصًا فلما صحى انتزعه عنه فقال:[(١)].

كساني قميصًا مرتين إذا انتشى ... وينزعه مني إذا كان صاحيا

فلي فرحة في سكره وانتشائه ... وفي الصحو فرحات تشيب النواصيا

وأتى بعضهم بغلام ليشتريه فسيم فيه بأربعين دينارًا فأعطى فيه عشرين فقيل له هو فراش ونداق فقال لو فرش السماء وندق الغيم ما اشتريته بأربعين.

وسام أشعب بقوس بندق فقال له صاحبه بدينارين فقال: والله لو رميت به طائرًا فوقع مشويًا بين رغيفين ما اشتريته بهذا الثمن.

ووقف أعرابي بأبي الأسود الدؤلي وهو واقف على باب داره فسلم فقال أبو الأسود كلمة مقولة، قال أتأذن لي في دخول منزلك قال وراك أوسع لك، قال هل عندك ما يؤكل قال: نعم، قال فأطعمني قال: عيالي أحق به منك قال ما رأيت الأم منك قال لأنك جيد المضغ سريع البلع إذا أكلت لقمه هيأت لأخرى قال: أتدري أني إذا أكلت عندك أن أصلي ركعتين بين كل لقمتين.

قال آخر لبخيل: لم لا تدعوني لطعامك قال: لأنك تعلق وتشدق وتحدق أي يحمل واحدة في يده وأخرى في شدقه وينظر إلى أخرى بعينه.

وعزم بعض إخوان أشعب عليه فقال إني أخاف من ثقيل يأكل معنا فينغص علينا فقال: ليس معنا ثالث فمضى معه فبينما يأكلان إذ طرق الباب طارق قال أشعب ما أرانا إلا صرنا إلى ما نكره قال إنه صديق وفيه عشر خصال إن كرهت واحدة منهن لم آذن له فقال أشعب: ما هن قال: إنه لا يأكل عند أحد ولا يشرب فقال التسع لك ودعه يدخل فقد أمنا ما كنا نخافه.

وكان بالبصرة رجل موسر بخيل فدعاه بعض جيرانه وقدم إليه طاجن بيض فأكل فأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه فنزل به الكرب والموت وجعل يتلوى فاستدعى طبيبًا فقال له: لا بأس عليك تقيأ ما أكلت تخلص، قال هاه أتقيأ ببيض أموت ولا أتقيا بطاجن بيض.

وقيل أقبل أعرابي يطلب رجلاً وبين يديه تين فغطى التين بكسائه فقعد الأعرابي

---

(١) انظر: الأغاني (١٣/٢٠).

فقال له الرجل هل تحسن شيئًا من القرآن قال: نعم وقرأ.... والزيتون.. قال الرجل: وأين التين قال: تحت الكساء.

ودعا بعضهم أخا له ولم يطعمه شيئًا إلى العصر واشتد جوعه فأخذ له صاحب البيت العود وقال بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك قال صوت المقلى.

ويقال كان محمد بن يحيى بن خالد بن برمك بخيلاً فسأل لبيًا وكان يألفه عنه فقال: ما يدند فترقى فترو صحافة منقورة من حب الخشخاش قيل فمن يحضرها قال: الكرام الكاتبون قيل: فما يأكل معه أحد قال: الذباب.

وكان مروان ابن أبي حفصة لا يأكل إلا الرأس شتاء وصيفًا فسئل عن ذلك فقال: الرأس أعرف سعره فآمن من خيانة الغلام وليس بلحم يطبخه الغلام أو الجارية فيقدرا أن يأكلا منه إن عينا أو أذنا وقفت على ذلك.

وكان للأعمش جار لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول له لو دخلت أكلت كسرة وملحًا فيأبى فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش فدخل فقرب إليه كسرة وملحًا إذا يسأل سائل فقال له رب المنزل بورك فيك فأعاد المسألة فقال له بورك فيك فلما سأل الثالثة قال: اذهب فلا والله ما رأيت أصدق مواعيد منه وهو منذ سنين يدعوني على كسرة وملح فما زادني عليها.

وقال بعض الشعر فيه:-

وما ضاع مال ورث أهله ... ولكن أموال البخيل تضيع

وقال بعضهم:

أترجو أن تسود ولم تعني ... وكيف يسود قط الدعة البخيل

وقال بعض الشعراء:

مالك من مالك إلا الذي ... قدمت فابذل طائعًا مالكا

تقول أعمالي ولو فتشوا ... رأيت أعمالك أعمى لكا

وأنشد بعضهم:

ما أحسن الجود مع العسر ... وأقبح البخل مع اليسر

ليس يرأس من حاله ... من حشته نفسه بالفقر

وأخرج الخطيب(١)، بسنده عن الموصلي دخلت على الرشيد فقال: يا أبا إسحاق أنشدني من نظمك فقلت:

وأمرت بالبخل فقلت لها اقصري ... فذلك شيء ما إليه سبيل

أرى الناس خلان الجواد ولا أرى ... بخيلاً له في العالمين خليل

وإني رأيت البخل يزري بأهله ... ما كرمت نفس أن يقال بخيل

ومن خير حالات الغنى لو تعلمته ... إذا نال شيئًا أن يكون نبيل

عطائي عطاء المكثرين تكرمًا ... ومالي كما تعلمين قليل

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ... وأي أمير المؤمنين جميل

فقال: كيف إن شاء الله يا فضل أعطه مائة ألف درهم لله درهم أبياتًا تأتينا بها يا أبا إسحاق ما أجود أصولها وأحسن فصولها قلت: يا أمير المؤمنين: جودك أحسن من شعري قال: يا فضل أعطه مائة ألف أخرى قال إسحاق أول مال اعتقلته.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن القرشي قال رجل من العباد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه كان يرد السائل ويبخل بالنائل:

وأنشد أبو العتاهية(٢):

من عف خف على الصديق لقاؤه ... وأخ الحوائج وجهه مملول

وأخوك من وفرت ما في كيسه ... فإذا عييت به فأنت ثقيل

يلقاك بالتعظيم ما لم تزره ... فإذا أرزأت أخا فأنت ذليل

والموت أروح من تواكل باخلاً ... فتوق لا يمنن عليك بخيل

هبة البخيل شبيهة بطباعه ... فهو القليل وما تنيل قليل

والعز في جسم المطامع كلها ... فإن استطعت فمت ولو بنبيل

---

(١) في البخلاء بتحقيقنا، طبع العلمية، بيروت.

(٢) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (٢/١١٧).

وأنشد أحمد بن يحيى بن ثعلب:

مـــن لم يكـــن لـــك مصـــنفًا ... في الـــورى فابـــغ بـــه بـــديلاً
وعلـــيك نفســـك فارعهـــا ... واكســـب لهـــا حمـــدًا ثقـــيلاً
ومـــن اســـتحف بنفســـه ... كســـبت لـــه قـــالاً وقـــيلاً
اصـــرف بـــوجهك حـــيث شـــئت ... فلـــن تـــرى إلا بخـــيلاً

وقال ذو اللسانين:

مـــال البخـــيل أســـير تحـــت خاتمه ... ولـــيس يطلـــق إلا عـــند مأتمـــه

وقال السهرباني في بخيل:

قـــبح الله بـــاخلاً لـــيس فـــيه طمـــع ... واقـــع لمـــن يـــرتجيه
ســـفلة إن قصـــدته يـــتلقاك ... علـــى فرســـخ بكـــير وتـــيه

ودخل ابن الفضل: الشاعر على الوزير ابن هبيرة وعنده نقيب الأشراف وكان بخيلاً وكان في رمضان والحر الشديد فقال له: أين كنت قال في بطيخ مولانا النقيب فقال الوزير في رمضان يطفى الحر في البطيخ قال وحياتك يا مولانا كسرت الحر فتبسم الوزير وضحك الحاضرون وخجل النقيب.

وأخرج الخطيب من حديث ابن عيينة عن صدقة بن بشار عن أبي جعفر محمد بن علي أنه ذكر لرسول الله ﷺ امرأة صوامة قوامة مصلية امرأة صدق غير أنها بخيلة قال: "فما خيرها إذن".

وأخرج عنه من طريق آخر قال ذكر للنبي امرأة متعبدة فقيل إنها بخيلة قال: "فما خيرها إذن"(١).

وأنشد الخليل:

مـــا أقـــبح النســـك لســـائل ... وأقـــبح الـــبخل لـــذي المـــال
والحـــرص مـــن ســـوءة الفـــتى ... لا خـــير في الحـــرص علـــى حـــال

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (ص٢٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/٤٤٢)، والخطيب في البخلاء بتحقيقنا.

مــن بــات محــتاجا إلى أهلــه هــان علــى ابــن العــم والخــال
مــا يوقــع الواقــع في ورطــة أزرى بــه مــن رقــة الحــال

وقال العارف: من احتجت إليه هنت عليه. وقال ابن المعتز: أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه.

وأنشد ابن الأعرابي:

تكاهــل فــيه الجــود والبخل واعتلا بفضــليهما والــبخل بالمرء قد يزري
أراد الجــود بمالــه والــبخل يعوضه والــبخل الــثاني ضــد الســخاي

وأنشد ابن عباس المشوق:

وقــال البخــيل أنــا أســود عشيرتي بدراهمــي وبكســوتي ومــراكبي
فأجابــه أدنى العشــيرة كلــها نسـبًا إلــيه في حــرام الكــاذب

وأنشد الصيرفي لنفسه:

الــبخل شــوم ولــه قســوة وكلمــا ضــر فمذمــوم
قــد فــاز مــن كانــت لــه نعمــة تظهــر والمعــروف مكــتوم
أمــواله يــنفقها راضــيًا وهــو بشــكر الله موســوم
وآخــر يحــرس أمــواله مــوكل بالجمــع مهمــوم

وأنشد أبو العيناء:

لحجلــي هكــذا مــيلاه علــى رجلــين أو رجــل
ووطــيء الجســد الملقــى بــلا خــف ولا نعــل
ومشــي في اللــيالي القــر في المــاء وفي الــوحل
وشــرب الســكر المــر الــذي يــذهب بالعقــل
لــنا أصــلح مــن أن تســتول الحاجــة بالــبذل

أتيته فوجدته ألفًا قال: وما ألف قال: ألف نصف وهو ثلث لا شيء. وسأل أبو وهب رجلاً حاجة فبخل بها فأنشد أبو وهب:

إذا لهـــا لم أثـــنى بخـــير علمـــته ... ولم أزمـــم الـــرحمن البخـــيل المذمما
ففـــيم عـــرفت الخـــير والشـــر باسمه ... وشـــق لي الله المســـامع والغمـــا

وأنشد أبو عكرمة:

زرت امـــــــرأ في بيـــــــته ... مـــرة لـــه حـــياء و لـــه خـــيور
يكـــــــره أن تـــــــتخم زواره ... إن أذى الـــــتخمة محـــــذور
ويشـــتهي أن يؤجـــروا عـــنده ... بالصـــوم والصـــائم مأجـــور

وأنشد العكي:

أضـــياف عـــثمان في خفـــض وفي دعـــة ... وفي عطـــاء لعمـــري غـــير ممـــنوع
وضـــيف عمـــرو وعمـــرو يســـهران ... مـــع عمـــرو لتخمـــته والضيف للجوع

وكان البهلوان بخيلاً فمر به بعضهم وهو يأكل خبيصًا فقال: أطعمني منه قال ليس هو لي، قال: لمن هو وأنت تأكله؟، قال: لعاتكة بنت الخليفة بعثت إلي لآكله لها.

ومر بعض الطفيلية على رجل وبين يديه طعام يأكل منه فجاء وسلم عليه ثم جلس ليأكل وقال: ما الرزق إلا عجيب فحول الرجل طعامه وراء ظهره وقال: يا أخي هو كما قلت لكن الحرمان أعجب فتركه وانصرف.

وحضر طفيلي إلى عرس فأنكره رب المنزل وأراد أن يخرجه فقال له: من أنت؟ قال: أنا قرابة النجار الذي نجر قالب خف أم العروس فغاب وأتاه بقدر مكسور فوضعها بين يديه فقال: ما هذا فقال: هذه قدر سلقنا فيها البيض عام أول فالحسها، فقال: ما هذا اللون في الأوان قال: مثل قرابتك في القرابات.

ومر رجل بجماعة من البخلاء يأكلون فقال: ما تأكلون قالوا سم الموت، قال لا حياة لي بعدكم ثم جلس فأكل معهم.

وقال ابن الوردي في قاضٍ بخيل:

لا تقصـــد القاضـــي إذا أدبرت دنياك ... واقصـــد مـــن جـــواد كـــريم

وقال بعضهم في بخيل:

بخلـــي بأسمـــاء الشـــهور فكفـــه ... ومـــا همـــت علـــيه المحـــرم

وأنشد معن الموصلي:

مــا يــبالي أعــين فارقــته أم كســرنا رغــيفه فأكلــنا
قــد نــزلنا بــه نــريد قــراه فابــتدأ يمــدح الصــيام فصــمنا

وقال الجاحظ:

مقــام الحــرص لــيس لــه شــفاء وداء البخــيل لــيس لــه طبــيب

وقال ابن شمس الخلافة:

دع جــاهلاً غــره تمكــنه وطــن بالجــود وهــو مقــتدر
فكــم غــني للــناس عــنه تمــنى وكــم فقــير إلــيه يفتقــر

وقال في ابن حسان:

جــود ابــن حســان وإنعامــه لا يمكــن للعاقــل أن ينكــره
إنعامــه هطــل ولكــن علــى قــوادًا أو بغــاء أو مســخرة

وقال يهجو بخيلين مسلم ونصراني وهما جاران:

هــذا علــى المســلمين عــار وذاك عــار علــى النصــارى

وأنشد أبو عكرمة:

أتــيت عمــرًا ســحرًا فقــال إني صــائم
فقلــت إني قاعــد فقــال إني قــائم
فقلــت آتــيك غــدًا فقــال صــومي دائــم

وأنشد الصوري(١):

وأخ مســه نــزولي تفــرح مــثل مــا مســني مــن الجوع قرح
بــت ضــيفًا لــه كمــا حكم الدهر وفي حكمــه علــى الحــر قــبح
فابــتدأني بقــول وهــو مــن السكرة بــاهم طــافح لــيس يصــحو
لم تغــربت قلــت قــال رســول الله والقــول مــنه نصــح ونجــح

---

(١) انظر: قرى الضيف (١/٣٦٨)، (٥/٨٤)، وخزانة الأدب (١/٤٥٤).

سافروا تغنموا وقد قال **تمام الحديث صوموا تصحوا**

ولبعضهم في بخيل:

إذا عزمتم على زيارته **فودعوا الخبز حيثما كنتم**

فليس يحتاج أن يقول لكم **صوموا أضيافي وقد صمتم**

وكان جعفر بن عبد الواحد الهاشمي بخيلا وكان بسر من رأى يستهدي الرطب وكان له صديق يوجه كل يوم بسلة رطب مع غلامه فقال له الغلام يشعث السلة فاختمها ففعل، فوجدها تشعثت وقال له إن أردت أن تبرني بها فاختمها بعد أن تودعها زنبورين يكونان فيها فكانت تجيء بهيئتها فإذا فتحها طار الزنبوران وعلم أن اليد لم تدخل فيها، وأنشد ابن منادر:

رأيت أبا القعقاع إن ذكر القرى **ترعد خوفًا واقشعرت دوايبه**

رأى الصيف مكتوبًا فظن أنه **لتصحيفه ضيف فقام يعاتبه**

وأنشد العكبري لبعضهم:

رأى الصيف مكتوبًا على باب داره **فصحفه ضيفًا فقام إلى السيف**

فقلت له خيرًا رأيت فظنني **أقول له خبزًا فمات من الخوف**

قال الأصمعي: أول ما تكلم به النابغة أنه حضر مع عمه عند رجل فكان عمه يخاف أن يكون عبئًا فوضع الرجل كأسًا بيده وقال:-

تطيب نفوسنا لولا قذاها **ونحتمل الجليس على أذاها**

فقال النابغة:

قذاها إن صاحبها بخيل **يحاسب نفسه بكم اشتراها**

وأنشد هلال بن العلاء:

لو أن دارك أنبتت لك فاحتشت **إبرًا يضيق بها فناء المنزل**

وأتاك يوسف يستعيرك إبرة **ليخط قد قميصه لم تفعل**

وحكى الجاحظ: إن أبا الهزيل العلاف المتكلم سأل سهل بن هارون رقعة يكتب فيها إلى الحسن بن سهل يستعينه على ضائقة لحقته فكتب رقعة وختمها ودفعها

إليه وصلها إلى الحسن فلما رآها ضحك وأوقف عليها أبا الهزيل وإذا فيها.

إن الضمير إذا سألتك حاجة ... لأبي الهزيل خلاف ما أبدي
فاربحه روح اليأس ثم امدد ... له حبل الرجاء تخلف الوعد
حتى إذا طاولت سقاوة جده ... وعنابه فأجبه بالرد
وإن استطعت له المضرة فاجتهد ... فيما يضر بأبلغ الجهد

فقال الحسن هذه صفته لا صفتنا وأمر لأبي الهزيل بمال فعاد إليه فعاتبه فقال سهل: ترى أعزب عنك الفهم أما سمعت قولي إن الضمير خلاف ما أبدى، فلو لم يكن في ضميري الخير ما قلته.

ومثل ذلك أن رجلاً سأل الجاحظ كتابًا إلى بعض أصحابه بالوصية فكتب له رقعة وختمها فلما خرج الرجل من عنده فضها فإذا فيها كتابي إليك مع من لا أعرف ولا أوجب حقه وإن قضيت حاجته لم أحمدك وإن رددته لم أذمك، فعاد إليه الرجل فقال الجاحظ فضضت الورقة قال: نعم قال: لا يضرك ما فيها فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص فقال الرجل قطع الله يديك ورجليك ولعنك قال ما هذا قال علامة لي إذا أردت أن أشكر شخصًا.

وحكى بعضهم أنه كان رجلاً من أبخل الناس وكان عنده لبن كثير فسمع به رجل طريق فقال لابد لي أن أحتال وأشرب من لبنه فأقبل ومعه صاحب له حتى إذا صارا بباب صاحب اللبن غشي عليه وتماوت وقعد صاحبه عند رأسه يقول إنا لله وإنا إليه راجعون فخرج صاحب اللبن فقال صاحب اللبن ما باله قال: هذا سيد بني تميم أتاه أمر الله وكان قد قال لي اسقني لبنًا فقال صاحب اللبن هين يا غلام ائتني بقعب من لبن فأتاه به وسقاه حتى أتى على آخره كله ثم تجشأ فقال صاحبه لصاحب اللبن أترى هذه حشرجة الموت فكاد يموت.

وكان الأصمعي بخيلا ويجمع أحاديث البخلاء فيتحثنها ويرضي بها ولده وفيه قيل:

هو عظم العظام بحبيبه ... هو نفسه للآكلين طعام

وقال ابن سلام: كنا مع أبي عبيدة في جنازة ننتظر الميت بقرب دار الأصمعي فارتفعت ضجة من داره فبادر الناس ليعرفوا ذلك فقال أبو عبيدة إنما يفعلون هذا عند

رؤية الخبز، كذا يفعلون إذا فقدوا رغيفًا.

ولأبي الفرج[1]:

لو مات لم يأكل الطعام إذا ... ما كان ذاك الطعام من كيسه

إن لم نشاهد دخان مطبخه ... فقد شهدنا دخان تعبيسه

وكان النحاس العجل يبخل فسأله الحطيئة شيئًا فرده فقال فغرمة عرضتنا ونفسك للشعر هذا الحطيئة وهو بلا ذنب أخبث هجاء فقال ردوه فردوه فقال، كتمتنا نفسك ولك ما يسرك ثم قال له من أسعد الناس قال: الذي يقول:

من يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتقي الشتم يشتم

فقال هذه من مقدمات أفاعيلك ثم قال لوكيله اذهب به على السوق فابتع له ما حب فعرض له الخبز والثياب الرفيعة فتعرض إلى الأكيسة الغليظة فاشترى منها ثم رجع فقال له اسمع[2].

سئلت فلم تبخل ولم تعط طائلاً ... خشيان عندك ذم ولا حمد

وأنت امرؤ لا الجود منك سجية ... فتعطي وقد تعدى على النائم الوجد

وكان هشام بن عبد الملك بخيلاً ومن بخله أنه رأى وهو خليفة بعض أولاده وبثوبه خرق فقال: عزمت عليك إلا ما رفأته فتمثل بقول القائل:

قليل المال تصلحه فيبقى ... ولا يبقى الكثير مع الفساد

وجمع من المال ما لا يجمعه خليفه فلما مات أحاط الوليد بتركته فما غسله ولا كفنه إلا بالاقتراض.

وسأل الرجل من أبخل الناس قال قم معي أعرفك فأخذ بيده إلى عطية وقد أخذ عنزًا له فاعتقلتها وجعل يمص ضرعها فصاح به اخرج يا أبت فخرج ولبن العنز سائل على لحيته فقال: هذا أبي أتدري لم كان يشرب لبن العنز هكذا قال: لا قال: مخافة أن يسمع تصويت الحلب فيطلب منه.

وكان مروان ابن أبي حفصة بخيلاً أرسل غلامه بفلس وسكرجة ليشتري زيتًا

---

(١) انظر: قرى الضيف (١٦٢/٥).

(٢) انظر: الأغاني (١٦٠/٢)، ومجمع الأمثال (٢٣٣/١).

فأتاه به فقال ختنتي قال كيف أخونك من فلس قال: أخذت الفلس لنفسك واستوهبت زيتًا.

وخرج يريد المهدي فقالت له امرأة من أهله ما لي عليك إن رجعت بالجائزة قال: إن أعطيت مائة ألف درهم أعطيتك درهمًا فأعطى ستين ألفًا فأعطاها أربعة دوانيق.

واشترى لحمًا بدرهم فدعاه صديقه فرد اللحم للقصاب بنقصان دوانق وقال: أكره الإسراف وهجاه بعضهم فقال:

وليس لمروان على العرش غيره ... ولكن مروانًا يغار على القدر

وقال مخلد الموصلي:

فتى لا يغار على عرشه ... ولكن يغار على خبزه

يد البخل قد شبكت كفه ... ويد السماحة في عجزه

وقال دعبل الخزاعي:

رأيت أبا عمران يبذل عرضه ... وخبز أبي عمران في أحرز الحرز

يحن إلى جارته بعد شبعه ... وجارات أبي عمران تحن إلى الخبز

وقال ابن حبيب:

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم ... واستوثقوا من رتاج الباب والدار

لا يرتجي الجار فيهم فضل نائلهم ... ولا تكف يدهم عن حرمة الجار

وقال الجاحظ(١): قال بعض البخلاء لغلامه هات الطعام وأغلق الباب فقال: هذا خطأ، بل أغلق الباب وآت بالطعام قال: أنت حر لعلمك بالحزم.

وكان سعيد بن سالم والي بلخ بخيل فقيل فيه:

رغيف سعيد عنده عدل نفسه ... يقلبه طورًا وطورًا يلاعبه

ويحملنه في كمه ويشمه ويلثمه ... حينًا وحينًا يخاطبه

وإن قام مسكين على باب داره ... ثكلته أمه وأقاربه

---

(١) في المطبوعة- الحافظ- والصواب ما أثبت.

يصب عليه البول من كل جانب ... ويخضب ساقاه وينتف شاربه

وقال أبو نواس في إسماعيل بن بريحب:

على خبز إسماعيل راقية البخل ... فقد دخل في دار الأمان من الأكل

وما خبزه إلا كآوى يرى ابنه ... ولم ير آوى في الحزون ولا السهل

وما خبزه إلا كعنقاء مغرب تصور ... في بسط الملوك وفي المثل

يحدث عنها الناس من غير رؤية ... سوى صورة ما إن تمر ولا تحل

وقال بعضهم في بخيل اسمه نصر:

إن نصرًا له دار مشيدة ... ومثله لجياد الدور بناء

الحسن ظاهرها والجوع داخل ... وفي جوانبها بؤس وضراء

ما ينفع المرء من تزويق منزله ... وليس في جوفه خبز ولا ماء

أستغفر الله ربي كلما خبز أراني ... الدهر كعكا عليه القسم والداء

قال أبو نواس:

أتانا بخبز له يابس ... شبيه الدراهم في خلقته

إذا ما تنفست عند الخوان ... تطاير في البيت من خفته

فنحن جلوس جميعًا معا ... نداري التنفس من خشيته

وقال سلم الخاسر:

إذا أذن الله في حاجة ... أتاك النجاح على رسله

يفوز الجواد بحسن الثناء ... ويبقى البخيل على بخله

وقال ابن الحراوة النحوي يصف فقهاء مالقة بالطمع والبخل.

إذا رأوا جملاً يأتي على بعد ... مدوا إليه جميعًا كف مقتنص

إن جئتهم قال عازلوك في قرن ... وإن رأوا رشوة أتوك بالرخص

وقال محمود الوراق:

إذا أعطى مقتر حين يعطي ... وإن لم يعط قال أبي القضاء

يبخل به سفها وظلما ... ويعذر نفسه فيما يشاء

وما أحسن قول ابن الهبارية يهجو أبا واسط.

أتانا بخبز له حامض ... شبيه الدراهم في خلقته

يضرس آكله طعمه ... وينشب في الحلق من خشيته

وقال اليزيدي للحمدوي:

يجوع ضيف أبي نوح ... بكرة وعشية

أجاع بطني حتى ... وجدت طعم المنية

وجاءني برغيف ... قد أدرك الجاهلية

فقمت بالفأس كيما ... أدق منه شظية

فثلم الفأس وانصاع ... مثل سهم رمية

فشج رأسي ثلاثًا ... ودق مني ثنية

ولبضعهم:

أكرموا الخبز بالصباند حتى يجعلوا ... الكعك للنبات شنوفًا

ولبعضهم:

لك نفس إذا أضر بها الجوع ... تكفيتها بشم الرغيف

من يكن عيشه كعيشك هذا ... فلتكن داره بغير كنيف

ولدعبل:

نفرح بالقولنج في بطنه ... بخلاً على ما جاز في الجوف

لا يذكر الله بشيء سوى ... أعوذ بالله من الضيف

ولأبي عكرمة:

فتى لرغيفه قرط وشنف ... وخلخالاً من در وشذر

ويبكي إن شققت له رغيفًا ... بكاء الخنساء إذا فجعت بصخر

وتلقى دون نائله نطاحا وضربا ... مثل وقعة يوم بدر

ولعباس الخياط:

لأبي عيسى رغيف فيه خمسون علامة
فعلى جانبه الواحد لقيت الكرامة
ثم لا ذاقني ضيف إلى يوم القيامة
وعلى الآخر سطر نسأل الله السلامة

ولابن الرومي:

فتى على خبزه ونايله أشفق من والد على ولده
رغيفه من حيث نسله فكأن روح الحياة من جسده

ولبعضهم:

أرى ضيفك في البيت وكرب الموت يغشاه
على خبزك مكتوب فسيكفيكهم الله

ولبعضهم:

رغيفك الحجال عليه قفل وأجراس وأبواب منيعة
تراءى في بيته يومًا رغيفًا فقال لضيفه هذا وديعة

وقال الأنباري:

إذا مررت بداره فاستر رغيفك من غلامه
شيئان كسر رغيفه أو كسر عظم من عظامه

وقال ابن كساجم[1]:

صديق لنا من أبرع الناس في البخل وأفضلهم فيه وليس بذي فضل
دعاني كما يدعو الصديق صديقه فجئت كما يأتي إلى مثله مثلي

(١) وقع في المطبوعة (كساحم) بالسين والحاء المهملتين، والصواب ما أثبت، وله ديوان مطبوع- بدار الكتب العلمية- بيروت.

فلما دنونا للطعام رأيته يرى ... أنه من بعض أعضائه أكلي
ويغتاظ أحيانًا ويشتم عبده ... وأعلم أن الشتم والغيظ من أجلي
أمد يدي سرًا لآخذ لقمة ... فيلحظني شزرًا فأعبث بالبقل
إلى أن جنت كفي لحين كفا به ... وذلك أن الجوع أعدمني عقلي
وأهوت عيني نحو رجل دجاجة ... فجرت كما جرت يدي رجلها رجلي

ولبعضهم رحمه الله تعالى:

رأيتك عند حضور الخوان ... قليل النشاط كثير الصياح
تلاحظ عينيك كف الأكيل ... وترمقه من جميع النواحي
وتشغله باستماع الحديث ... طورًا وآونة بالمزاح
فعال امرئ بخلت نفسه ... بشيء يئول إلى المستراح

وأخرج الخطيب عن الجاحظ: ليس في الدنيا أبخل من ثلاثة خادم ومخنث وذمي.

وجاء رجل يسأل يحيى بن أكثم فقال له: أي شيء توسمت فيَّ أنا قاضي والقاضي يأخذ ولا يعطي وأنا مروي وأنت تعرف ضعيف مرو وأنا من تميم والأمثال في بخل تميم معروفة. وقال بشار:

على واسط من ربها ألف لعنة ... وواسط مأوى كل علج وساقط

وفي المثل: أبخل من صاحب نجيح وذلك أن يحيى اليربوعي خرج يتصيد فأثار حماراً وحشياً فذهب أمامه فاتبعه حتى دفعه إلى أكمة عليها رجل أعمى أسود في أطمار وبين يديه ذهب وفضة وجواهر وياقوت، فدنا نجيح ليتناول فلم يستطع تحريك يديه فقال له: يا هذا ألك أو لغيرك فإني لم أجد إليه سبيلا فإن كنت جوادًا فإني ذو حاجة أو بخيلاً فأخبرني أعذرك فقال الأعمى: أطلب رجلاً غاب منذ سنين وهو سعيد بن خشرم وائتني به يعطيك مما ترى فانطلق نجيح إلى قومه ودخل خباءه فنام من الغم لا يدري من سعيد فرأى في نومه أن سعيد بن خشرم من شيبان فأتاهم فإذا شيخ على

بابه فقال له: من سعيد؟ فقال: من أنت؟ قال: نجيح فأخذه نجيح وقال: "الدال على الخير كفاعله"(١)، وهو أذل من قال ذلك فأتيا المكان فتوارى الأعمى فأخذ سعيد المال والجواهر كلها فقال نجيح قاسمني فأبى فقتله نجيح فتحول الأعمى سبعًا فأسرع في أكل سعيد ثم عاد إلى محله كما كان.

وفي المثل أبخل من بني نهيش وذلك أنه إذا وقع في يده درهم نقره بأصبعه ثم قال: كم من مدينة دخلتها ويد وقعت فيها فالآن استقر بك المكان وأطمأنت بك الدار ثم يرمي به في صندوقه فيكون آخر العهد به(٢).

وقال العارف بن عربي(٣): ويشبه هذا رجل جليل بمدينة فاس دخل علي فرآني أفرق شيئًا من الدراهم وأري السرور في وجهي بذلك فقال: أنا أعشق الناس في الدنيا والدراهم فقلت: جماعة يحبون الحدة فقال: ما أنا ممن يحبون هذه الأحجار من أجل العطاء بل أحبها لعينها وأموت جوعًا ولا أقدر أنفقها ولا يخرج من يدي شيء إلا وتخرج روحي معه.

ومرض الخليفة المقتضي مرضًا شديدًا فنذر إن أقاله الله أن يفعل خيرًا ويجود على الفقراء فعوفي ولم يفعل ثم مرض مرض الموت فذكر ما فرط منه من عدم الوفاء فبكى وأنشد:

إذا مرضنا نذرنا كل صالحة ... وإن شفينا فمنا الزائغ والزلل

نرضي الإله إذا خفنا ونسخطه ... إذا أمنا فما يزكوا لنا عمل

وقال قتيبة بن مسلم: لا تطلبوا الحوائج إلى بخيل فإنه يطلب حاجته قبلها ويجعل حاجتك وقاية لها، ولا إلى أحمق فإنه يريد لينفعك فيضرك ولا إلى كذوب فإنه يقرب البعيد

---

(١) حديث صحيح، انظر تخريجه في جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر طبع دار ابن الجوزي تحقيق حسن أبي الأشبال الزهيري.

(٢) انظر: أمثلة أخرى وأخبارًا في مجمع الأمثال (١/١١١، ١١٤، ١٢٠)، وجمهرة الأمثال (١/ ٢٠٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٧)، والمستقصى في أمثال العرب (١/١١)، ونفح الطيب (٣/ ٣٢٢)، والمستطرف (٢/٣٨٧).

(٣) هو الإمام الأكبر محيي الدين بن عربي صاحب الفتوحات والإنزالات، والمصنفات العاليات في الحقائق.

ويبعد القريب.

روى صاحب النوادر في البخل قال في الأغاني: أخبار بصيص جارية ابن النفيس، اجتمع عند بصيص، عبد الله بن مصعب الزبيري ومحمد الجعفري في أشراف المدينة فتذاكروا مزيدًا صاحب النوادر، وبخله فقالت بصيص: أنا آخذ لكما منه درهما فقال سيدها أنت حرة لئن فعلت ولأشترين لك مخنقة بألف دينار وأفعلن فقالت: جئ به وارفع الغيرة فقال: أنت حرة ولو رفع برجليك لأعنته، قال ابن مصعب فصلينا الغداة بالمسجد وإذا به فقلت يا أبا إسحاق أتحب أن ترى بصيص فقال امرأته طالق إن سألت أن يرينها الله سبحانه وتعالى منذ سنة فقلت إذا صليت العصر فوافني هنا قال: امرأته طالق إن يروح من هنا حتى يجيء العصر قال: فجئت العصر فأخذت بيده وأتيتهم فأكلوا وشربوا وتساكر القوم وتناوموا وأقبلت عليه بصيص فقالت يا أبا إسحاق تشتهي أن أغنيك قال: نعم فغنته ثم مكث ساعة وقالت يا أبا إسحاق تشتهي أن تجلس بجانبي وتقرصني قرصة وأغنيك قال نعم فغنته ثم قالت برح الخفا أنا أعلم أنك تشتهي أن تقبلني وأغنيك هجرًا فقبلها وغنته ثم قالت يا أبا إسحاق أرأيت أسقط من هؤلاء يدعونك ويخرجوني إليك ولا يشترون ريحان بدرهم هلم درهمًا نشتري به ريحانًا فوثب قائمًا وصاح واخرباه أي زانية أخطت إستك الحفرة انقطع عنك الوحي الذي كان يوحى إليك ثم خرج ولم يعد إليها ولم تنقذ حيلتها لأجل الدرهم.

وعن أيوب الأنطاكي: قال دعاني رجل بالكوفة إلى منزلة فجئته فإذا شاة مربوطة فبينما أنا كذلك إذا سمعت الناطف[1]، فصاحت الشاة واضطربت اضطرابًا شديدًا ففزعت، فقال الكوفي لاتفزع لنا صبي إذا سمع صوت الناطف جاء الشاة فينتف صوفها فاشترى به ناطفًا فالشاة لوجع نتف الصوف تصيح إذا سمعت الناطف.

وكان أبو العميس بخيلاً: فإذا أخذ الدرهم نقره وقال كم في يد وقعت فيها ومن بلد دخلته اسكن وقر عينًا فقد استقر بك الدار واستقر بك المنزلة ثم رفع فلا يرى بعد ذلك.

وكان بعض البخلاء إذا وقع الدرهم بيده يخاطبه ويقول أنت عقلي وديني وصلاتي وصيامي وجامع شملي وقرة عيني وأنسي وقربي وعمدتي وعدتي أهلاً وسهلاً بك من زائر

---

(١) الناطف: نوع من الحلوى كالرغوى البيضاء، وعرف بذلك لأنه ينطف- أي يقطر قبل استضرابه أي ابيضاضه.

كنت إلى وجهك مشتاق يا نور عيني، وحبيب قلبي قد صرت إلى من يصونك ويعرف قدرك ويشفق عليك وكيف لا يكون كذلك وأنت تعظم الأقدار وتعمر الديار وتفتض الأبكار وترفع الذكر ثم يطرحه في كيسه ويقول:

بنفسي محجوب عن العين شخصه ومن ليس يخلو من لساني ومن قلبي

ومن ذكره حظي الناس كلهم وأول حظ منه في البعد والقرب

وكان خالد بن صفوان إذا أخذ جائزة قال للدراهم طال ما اغتربت في البلاد فلأطيلن ضجعتك ولأديمن صرعتك ويقبله ويخزنه وأتاه سائل فأعطاه درهمًا فقال: أسالك فتعطيني درهمًا قال: يا أحمق أما تعلم أنه عشر العشرة والعشرة عشر المائة والمائة عشر الألف والألف عشر العشرة آلاف، ألا ترى كيف ارتفع الدرهم إلى ربه المسلم.

وقال يزيد بن عمير لبنيه اعلموا أنه إن يكن عند أحدكم مائة ألف أعظم له في صدور بني تميم وأعظم شرفًا من أن يقسمها فيهم ولئن يقال لأحد شحيح وهو غني خير من أن يقال سخي وقد أفقر.

وقال الفضل بن سهل: رأيت جملة البخل سوء الظن بالله تعالى وجملة السخاء حسن الظن بالله، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ : ٣٩] ولابن غالب الخوارزمي:

أنفق ولا تخش إقلالا فقد قسمت بين العباد مع الآجال أرزاق

ولا ينفع البخل مع دنيا مولية ولا يضر مع الإقبال إنفاق

وقيل لبعض الحكماء اكتسب فلان مالاً قال: فهل اكتسب أيامًا يأكله فيها؟ قيل فمن يقدر على ذلك قال: فما أراه اكتسب شيئًا.

وأخرج الخطيب عن عبد الله بن الشخير انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: (ألهاكم التكاثر) فقال: «يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت»(١).

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٣/٤)، والترمذي (٥٧٢/٤)، (٤٤٧/٥)، والنسائي (٢٣٨/٦)، وأحمد في المسند وفي الورع (ص١٨٨)، (٢٤/٤، ٢٦)، وفي الزهد (ص١١)، والطبراني في الأوسط (١٥٦/١)، والحميدي في مسنده (٢٩٥/٢)، والطيالسي (١٥٦/١)، والبيهقي في الكبرى (٤٠٩/٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٥٢/٣)، وفي الزهد (ص٣١).

وأخرج عن أبي هريرة ﷺ: «يقول العبد مالي مالي إنما له من ماله ما أكل فأفنى ولبس فأبلى أو أعطى فأمضى وما سوى ذلك فهو ذاهب»[(١)].

وأنشد ابن أبي الدنيا للحسين بن عبد الرحمن:

يا جامعًا مانعًا والدهر يرمقه ... مقدرًا أي مالي فيه يفلقه

مفكرًا كيف تأتيه منيته ... أعاديا أم بها نشري فتطرقه

جمعت مالاً ففكر هل جمعت له ... يا جامع المال أيامًا تفرقه

المال عندك مخزون لوارثه ... ما المال مالك إلا يوم تنفقه

وأخرج الطبراني والخطيب عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه قالوا:** ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، **قال: اعلموا ما تقولون** قالوا: ما نعلم إلا ذلك، قال: ما منكم رجل إلا مال وارثه **أحب إليه من ماله،** قالوا: كيف قال: **إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر**»[(٢)].

وقال بعض الحكماء: أبين الغبن كدك فيما نفعه لغيرك.

ووفد على آنو شروان: حكيم للهند وفليسوف للروم فقال للهندي تكلم فقال: خير الناس من ألفي سخيًا وعند الغضب وقورًا وفي القول متأنيًا وفي الرفعة متواضعًا على كل ذي رحم مشفقًا.

وقال الرومي: من كان بخيلاً ورث عدوه ماله وأهل الكذب مذمومون وأهل النميمة يموتون فقراء ومن لا يرحم سلط عليه من لا يرحمه.

وقال بعض الحكماء عافص الفرس عند إمكانها، وكل الأمور إلى وليها ولا تحمل على نفسك هم ما لم يأتك ولا تعدن عدة ليس في يدك وفاؤها ولا تبخل بالمال على

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٣/٤)، والترمذي، والنسائي (٢٣٨/٦)، وأحمد في المسند (٢٤/٤، ٢٦)، وابن حبان (١٢١/٨)، والبيهقي في الكبرى (٣٦٨/٣)، وفي الشعب (٢٧٢/٧).

(٢) رواه البخاري (٢٣٦٦/٥)، النسائي (٢٣٧/٦)، وفي الكبرى (٢٩٩/٤)، وأحمد في المسند (٣٨٢/١)، والشاشي (٢٦١/٢)، وأبو يعلى (٩٧/٩)، والبيهقي (٣٦٨/٣)، وفي الشعب (٢٠٥/٣)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٢٩/٤).

نفسك فكم من جامع لبعل حليلته. ولابن بشار قال:

كم مانع نفسه لذاتها حذرًا ... للفقر ليس من ماله ذخر

إن كان إمساكه للفقر يحذره ... فقد تعجل فقرا أقبل يفتقر

ولمحمود الوراق:

تمتع بمالك قبل الممات ... وإلا فلا مال إن أنت متا

شغفت به ثم خفته لغيرك ... بعدًا وسحقًا ومقتًا

فجاء عليك بزور البكاء ... وجمعت له بالذي قد جمعتا

وأعطيته كل ما في يدك ... وخلاك رهنًا بما سلبتا

ولأبي محمد بن يحيى:

إذا كنت جماعا لمال ممسكًا ... فأنت عليه خازن وأمين

تؤديه مذمومًا إلى غير جامعه ... فيأكله عفوًا وأنت دفين

وقال بعضهم عجبًا للبخيل المتعجل للفقر، الذي منه هرب المؤخر للسعة التي إياها طلب، ولعله يموت بين هربه وطلبه فيكون عيشه في الدنيا عيش الفقراء وحسابه في الآخرة حساب الأغنياء مع أنك لم تر بخيلاً إلا وغيره أسعد بماله منه لأنه في الدنيا مهتم بجمعه وفي الآخرة آثم بوزره وغيره آمن في الدنيا من جمعه وناج في الآخرة من إثمه.

وكان الفضل بن سليمان بخيلا، وكان بهلول المجنون يأتيه فيضحك منه ساعة ثم ينصرف فجاءه يومًا فضحك منه ساعة ثم قال له عندك شيء تأكله فقال لغلامه هات له خبزًا وزيتًا وزيتونًا فأكل ثم قام لينصرف فقال: يا صاحبنا إن جئنا يوم العيد هل عندك لحم فخجل.

وقال البهاء زهير يهجو بخيلاً عن الحال:-

وديوس ذو خسة ... كل من شئت لائمه

ما رأى الناس أنه ... قط وردت مكارمه

جنبنه عن قريب يرون ... ذا حاسده وذا راحمه

وكتب زياد الحارثي إلى المنصور يسأله الزيادة في إعطائه وأبلغ في رقعته فوقع

المنصور في القصبة أن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا في رجل جعلاه متكبرًا وأمير المؤمنين يشفق عليك من ذلك فاكتف بالبلاغة.

وكان رجل كثير المال ينظر في دقيق الأشياء فاشترى متاعًا فدعا بجمال وقال بكم تحمله قال: بحبة قال: لا بأقل قال: كيف أقول قال: تشتري بالحبة طعامًا فنجلس جميعًا نأكله.

وأنشد الطيبي:

لأضـــربن رجائـــي ألـــف مقـــرعة حـــدًا وأصـــلب آمـــالي علـــى خشبة
إذا أمنـــياتي مـــواتًا لا حـــراك بهـــم وإن سمعـــت لهـــم في دورهـــم جلـــبة
ســـتر رقـــيق وأبـــواب مفـــتحة وفي القصـــور الأعـــالي أنفـــس خربة

وقال الدارقطني: وكان ابن الحبار المقري بخيلاً فقال فيه بعضهم:

لـــو أن قـــروًا بكت من طول محبسها علـــى القفـــور بكـــت قدر ابن حبار
مـــا مســـها دســـم مـــنذ خض معربها ولا رأت بعـــد نـــار العـــين مـــن نار

وقيل لأبي الحارث تغديت عند فلان قال لا لكنني مررت ببابه وهو يتغدى قيل: كيف علمت ذلك؟ قال: رأيت غلمانه بأيديهم قضي البنادق يرمون الطير في الهواء.

ولابن الثمار الواسطي:

جئـــته زائـــرًا فقـــال لي الـــبواب مهـــــلاً فإنـــــه يـــــتغدى
فقلـــت قـــد سمعـــت قـــديمًا خبـــــزه لازم يـــــتعدى

وبعضهم قال في بخيل:

يفـــزع إذا جئـــته للســـلام ومـــات مـــن الخـــوف لمـــا دخلـــت
فقلـــت لـــه يـــريعك الدخـــول فـــوالله مـــا جـــئت حـــتى أكلـــت

وكتب بعض الأدباء إلى بعض إخوانه يشاوره في قصد بعض الرؤساء تأميلاً واستدعى لنائلة وكان معروفًا بالبخل فكتب إليه: كتبت إلي تسألني عن فلان وذكرت أنك هممت بزيارته وحدثتك نفسك بالقدوم عليه فلا تفعل فإن حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان من الله وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلوب إلا من سوء التوكل على الله تعالى والرجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من روح الله تعالى لأنه رجل يرى التقطير

الذي نهى الله عنه هو الإسراف الذي يعذب عليه وأن بني إسرائيل لم يستبدلوا العدس بالمن والبصل بالسلوى إلا لفضل أحلامهم وقديم علم توارثهم عن آبائهم ،والضيافة مدفوعة والهيبة مكروهة والصدقة منسوخة والتوسع ضلالة والجود فسق والسخاء من همزات الشياطين كأنه لم يسمع بالمعروف إلا في الجاهلية الأولى التي قطع الله عز وجل أخبارها ونهى عن اتباع آثارها وكأن الرجفة لم تأخذ أهل مدين إلا لسخاء كان فيهم ولا أهلكت الريح العقيم عادا إلا لجود أفضال كان معهم وهل يخشى العقاب إلا على الإنفاق ويرجو العفو إلا على الإمساك ويعد نفسه بالفقر ويأمرها بالبخل خيفة أن تنزل به قوارع الظالمين ويصيبه ما أصاب الأولين فأقم بمكانك واصبر على غص زمانك وامض على عشرتك عسى الله أن يبدلك خيرا منه زكاة وأقرب رحما.

قال أبو يحيى :كان البحتري معي جالسا فسلم علينا ابن العيسي ابن المنصور فقيل لي من هذا ؟قلت فلان الذي يقول ابن الرومي في أبيه:

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد

ولو يستطيع لتقطيره ... تنفس من منخر واحد

فقال لي أف وتف ووثب ومضى.

وقال الأصمعي: ثلاثة لا يسألون حاجة رجل استغنى بعد فقره فإنه يرى إن قضاها عاد إلى فقره، عبد فإنه يقول ليس الأمر لي وصرفي فإن مروءته أن يستريح على إخوانه في مائة دينار حب ذهب.

قال جحظة فيهم:-

قوم إذا استجدتهم فكأنني ... حاولت نتف شعر من أنافهم

قم فاسقنيها بالكبير وعنتي ... ذهب الذي يعاشي في أكنافهم

وأخرج الخطيب[1] عن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: قاتل الله لبيدأ حيث يقول:

ذهب الذي يعاش في أكنافهم ... وبقيت في نسل كجلد الأجرب

يتحدثون بلادة ومهانة ... ويعاب قاتلهم وألم يشعب،

---

(١) في البخلاء، بتحقيقنا ورواه ابن المبارك في الزهد (ص٦٠)، والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١٢٢).

فكيف لو أدركت هذا الزمان قال الفضل: ما أكثر تعجبي من تمثل عائشة رضي الله عنها ببيت لبيد ولكن:

ذهـب الـناس فاسـتقلوا وصـرنا خلفــاء في أراذل الـنـاس

في أنـاس نعـدهم في عديـد فـإن فتشـوا فليسـوا بـناس

وبكـوا إلي حـتى تمنـيت أني مقلـت مـنهم فراسًـا يراسـي

وقال الأصمعي: ست يضنين انتظار الماء وذمذمة الخادم والسراج المظلم والركن من أول الليل إلى آخره وخلاف من تحبه والنظر إلى بخيل.

وأنشد منصور الفقيه:

مـا بالبخـيل انـتفاع والكلـب يـنفع أهلـه

فـنزه الكلـب عـن أن يـرى أخـا الـبخل مـثله

قال الجاحظ لا أعرف شيئًا في الهجو بالبخل كقول ابن السمقمتي:

مـا كـنت أحسـب أن الخبز فاكهة حـتى نـزلت علـى أوفى بـن خنزير

الحـابس الـروث في أعفـاج بغلـته خـوفًا علـى الحب من لقط العصافير

وله أيضًا:

مـا مـن يـؤمل معـبدًا بـين أهـل زمانـه

لـو كـان في اسـتك لقمـة لاسـتلها بلسـانه

قال الجاحظ دعا أبو العتاهية عياش بن القاسم إلى متنزه واتخذ ذمة أطعمة وكان في أبي العتاهية شح شديد فدخلت فإذا أبوامًا تأكل قال نعم غلط الغلام بين دبة الزيت والبزر فصب بزرًا فكرهت أن يرفع من بين يده فيبطل ولا يأكله أحد فرأيت أكله ولا يضيع بعدي:

ولابن غزوان:

إذا سـألت تقـول لا وإذا طلـبت تقـول هـات

فـلا سـبيل إلى نعـم وأتـرك قـولها حـتى الممـات

وللمبرد:

أصبحت لا تعرف الجميل ... ولا تفصل بين القبيح والحسن

إن الذي ظل يرتجيك كمن ... يحلب تيسًا من شهوة اللبن

ولليزيدي:

ودعوتني فأكلت عندك لقمة ... وشربت شرب من استتم خروفًا

وسألتني في إثر ذلك حاجة ... ذهبت بمالي تالدًا وطريفًا

فجعلت أفكر فيك باقي ليلتي ... ما كنت تفعل لو أكلت رغيفًا

وكان رجل بخيل الحباحب لا يوقد نارًا بليل كراهة أن يراها راء فينتفع بضوئها فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقدها ثم بصر بمستضيء بها أطفأها فضرب العرب بناره المثل وذكروها عند كل نار لا ينتفع بها.

ولبعضهم:

رأيتك في الغنى تزداد بخلاً ... وتزهو مثلما يزهو الغراب

ولا تعطي على حمدًا ولا أجرًا ... وتعطي من تصافح أو تهاب

كأنك تحسب الأموال تبقى ... عليك إذا تضمنك التراب

وللشيباني يهجو ابن حصين الكاتب:

أبا الفرج اسمع قول من ليس ظالماً ... ولا عن سبيل العدل من كان يعدل

جزاك إله الحق ما تستحقه ... ولا زلت في الحاجات مثلك تسأل

بخلت بما لو يسأل الكلب ضعفه ... لجاد به عفوًا وما كان يبخل

ولأبي تمام:

أخذ مال البخيل يا أيها الناس ... عليه أشد من جدع أنفه

فخذوه وارغموا الأنف منه ... وأضعفوه تبعًا ومحنفه

وقال أبو نواس في عثمان يهيك:

اغسل يدك بأشنان فأنقهما ... غسل الجنابة مما عند عثمان

واسلح على كل عثمان مررت به ... سوى الخليفة عثمان بن عفان

عـثمان يكلـم أن الحمـد ذو ثمـن لكـنه يشـتري حمـدًا بمجـان

والـناس أبعـد من أن يحمدوا رجلاً حـتى يـروا عـنده آثـار إحسـان

يـا أخـت كـندة ليس الرزق في يده الـرزق في كـف مـن لو شاء أغناني

وقال بشار[1]:

خليلـي مـن كعـب أعيـنا حاكمًـا علـى دهـره إن الكـريم معـين

ولا تـبخل بـبخل ابـن قـرعة إنـه مخافـة أن يـرجو نـداه حـزين

وقال الأصمعي: قالت امرأة مدنية لزوجها اشتر لي رطبًا فقال وكيف يباع الرطب؟ قالت: بدرهم قال: لو خرج الرجال وأنت تمخضين بعيسى ما تنظر إلا أن تلديه فيقتل الرجال ثم لم تلديه حتى تأكلي رطباً ما اشتريته لك لبخله بدرهم.

وأنشد جحظة:

دخلـت علـى باخـل مـرة وجـنات بسـتانه زاهـرة

وقـد قابـل الـنور نقـش السـتور فـأعين زواره حائـرة

جـنات تعجـل للـباخلين ونحـن نؤخـر للآخـرة

قال الأصمعي عن بعضهم:

عـدة الكـريم نقـد وتعجـيل وعـدة اللئـيم تسـويف وتعلـيل

ولأبي نعيم:

مـا جـار الـزمان ومـا تعـدى ولكـن أهلـه مسـخوا كلابـا

مـواعدهم مـواعد كاذبـات إذا حصـلتها كانـت سـرابا

ولابن نصر:

أوعـدتني عـدة حسـبتك صـادقًا فجعلـت مـن طمعـي أجيء وأذهب

فـإذا حضـرت أنـا وأنـت مجلسـا قالـوا مسـيلمة وهـذا أشـعب

ولابن دريد:

---

(١) انظر: الأغاني (٦/١٣٤).

إن الـــذي يرتجـــي نـــداك معـــنا خالـــف الحـــزم محســـن بـــك ظـــنا

وعـــدتني منـــيتي عـــنك خـــيرًا فأبـــا الخطـــف دون مـــا أتمـــنى

وكان محمود الوراق يغشى صديقا له فيرى عنده دجاجًا سمانًا فيعده بذبحها ويحلف له فلما طال عليه كتب إليه:

دجـــاج أبي عـــثمان يحســـن منظـــرًا وأطـــول أعمـــارًا من الشمس والقمر

فـــإن لم تمـــت حـــتى تفـــوز بأكلـــها حيـــيت بـــإذن الله مـــا أورق الشجر

ولابن شكاب العجمي:

وإذا جـــدت للصـــديق بـــوعد فصـــل الـــوعد بالفعـــال الجمـــيل

لـــيس في وعـــد ذي الســـماحة مطل إنمـــا المطـــل في عـــداة البخـــيل

ولأبي عثمان الناجم:

جـــود أبي الصـــقر كلـــه عـــدة وكـــل مـــا أدلـــة فممســـوخ

لـــيس يـــرى أن يفـــي بـــوعده كلامـــه ناســـخ ومنســـوخ

وقال الخطيب: العرب تضرب المثل في إخلاف المواعيد برجل من العمالقة وكان من خبره أنه سأله رجل عزقًا فقال: نعم فلما صارت بلحا قال: دعها حتى تكون زهوًا فلما بلغت قال: دعها تشقح فلما شقحت قال: دعها تحلقم فلما حلقمت قال: دعها ترطب فلما رطبت قال: دعها تكون تمرًا فلما أتمرت أخذها ليلاً وذهب فصار مثلاً وهو الذي ذكره كعب بن زهير(١).

كانـــت مواعـــيد عـــرقوب لهـــا مثلاً ومـــا مواعـــيده إلا أباطـــيل

وعـــدت وكـــان الخلـــف منك سجية مواعـــيد عـــرقوب أخـــاه بيثـــرب

ومرض البحتري: فوصف الطبيب له مزورة فقال له بعض إخوانه عندي أحذق خلق الله بها فمضى ليوجد بها فلم يفعل فكتب إليه البحتري:

وجـــدت وعـــدك زورًا في مـــزورة ذكـــرت مبـــتدعا بأحكـــام طاهـــيها

(١) انظر: ثمار القلوب للثعالبي (ص١٣١).

فـــلا شـــفى الله مـــن يرجو الشفا بها ... ولا علـــت كـــف ملـــق كفـــه فـــيها
فاحـــبس رســـولك عـــني أن يجيء بها ... وقـــد حبســـت رســـولي عن تقاضيها

ولقي أبو العتاهية العباس بن محمد فقال جعلت فداك تسمع مني فقال هات فأنشد يقول[1]:

إن المكـــارم لم تـــزل معقـــولة ... حـــتى حللـــت بـــراحتيك عقالهـــا
لـــو قـــيل للعـــباس يـــابن محمـــد قل ... لا زلـــت مخلـــد مـــا قالهـــا

فوجه إليه بدينارين فقال أبو العتاهية للخادم انتظر حتى أكتب فكتب إليه يقول:

مدحـــتك مدحـــة السـيف المحلـــى ... لتجـــزي في الكـــرام فمـــا جـــزيت
فهـــبها مدحـــة ذهـــبت ضـــياعا ... كـــذبت علـــيك فـــيها واعـــتديت

ورد الدينارين فغضب وطلبه ليقتله فلم يقدر عليه. وقال الزازاري الكوفي :رأيت رجلا يكتب على حائط:

يـــا ذا الـــذي أحســـنت ظـــني بـــه ... ولم يـــنلني مـــنه إحســـان
أقـــل حقـــي ضـــرب خلقـــي علـــى ... توهمـــي أنـــك إنســـان

ولابن الرومي:

إذا مـــا مـــدحت البـــاخلين فإنمـــا ... تذكـــرهم مـــا في ســـواهم من العقل
فـــتهدي لهـــم غمًـــا طـــويلاً وحسرة ... فـــإن مـــنعوا مـــنك الـــتولل فبالعدل

وكان رجل يوصف باللؤم فامتدحه بعضهم فوعده عدة فلم يف بها قال:

قـــد صـــرت في مـــدحكم شـــهرة ... يقـــال لي أطعـــم مـــن أشـــعب
هـــذا الـــذي جـــاء إلى صـــخرة ... يـــنزع مـــا فـــيها بـــلا مخلـــب

وأنشد التنوخي:

يـــا ذاهـــبًا في داره جابـــيًا ... في غـــير معـــنى وبـــلا فائـــدة

---

(١) انظر: الأغاني (٢٧٤/١٦).

قــد جــن أضــيافك مــن جــوعهم فمـا قــرأ علـيهم سـورة المائـدة

وقال دعبل:

يــا تــارك البـيت علـى ضـيفه وهاربًـا مـنه مـن الخـوف

ضـيفك قــد جـاء بخـير لــه فارجـع فكـن ضـيفًا علـى الضيف

ولأبي العباس القرشي:

قــوم يغـارون أن تغشـى مـوائدهم ولا يغـارون العصـيان في اللحـم

إن جـاء ضـيف تـواروا في بـيوتهم كأنــه جــاءهم يــبغهم بــدم

لهـم وقـار وحلـم عـن عـدوهم وفي البـيوت لهـم جهـل على الخدم

الباب الثالث
في علاج البخل ليزول

قال حجة الإسلام[(١)]: اعلم أن سبب البخل حب المال ولحبه سببان: أحدهما حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الآمال فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما لم يبخل بماله إذ القدر الذي يحتاجه في يوم أو شهر أو سنة قريب وإن كان قصير الأمل لكن له أولاد قام الولد مقام الأصل كبقاء نفسك فيمسك لأجلهم ولذلك قال المصطفى ﷺ «الولد مبخلة مجبنة»[(٢)].

فإذا أضيف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمحو الرزق قوي البخل.

الثاني: أن من الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته ويفضل الورق وهو شيخ لا ولد له ومعه مال كثير ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار عاشقًا للدنانير يلتذ بوجودها في يده فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ومع ذلك لا تسمح نفسه أن يأكل أو يتصدق منها بحبة وهذا مرض للقلب عظيم عصي العلاج سيما في كبر السن وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه وصاحبه كرجل عشق إنسانًا فأحب رسوله لنفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله فإن الدنانير تبلغ الحاجات وصارت محبوبة لذلك لأن الموصل إلى اللذائذ لذيذ ثم قد يلغي الحاجات ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه وهو غاية الضلال بل موازي بينه وبين الحجز فرقًا فهو لجهله الأمر حيث قضى حاجته به فالفاضل عن حاجته والحجز بمنزلة واحدة فهذه أسباب حب المال.

وعلاج كل علة بمضادة سلبها فيعالج حب الشهوات بالقناعة بالقليل وبالصبر وطول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر يموت الأحزان وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم ويعالج التفات القلب إلى الولد بأن الذي خلقه خلق معه رزقه وكم من ولد لم يرث من أبيه مالاً وحاله أحسن ممن ورث وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر وإن كان ولده تقيًا صالحاً فالله تعالى كافيه وإن كان فاسقًا

---

(١) هو الإمام شيخ الإسلام أبي حامد الغزالي صاحب الإحياء، وكثير من التصانيف النافعة.

(٢) رواه أحمد في المسند (١٧٢/٤)، وابن ماجه (٣٦٦٦)، والحاكم (١٦٤/٣)، وصححه، وكذلك البوصيري.

فليستعن بماله على المعصية وتعود مظلمته إليه ويعالج قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل، ومدح السخاء، وتوعد الله به على البخيل من العقاب العظيم.

من الأدوية النافعة كثرة تدبير أحوال البخل وتقرن الطبع عنهم واستقباحه لهم فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ويستثقل كل بخيل من أصحابه فيعلم أنه مستقل ومستقذر في عيون الناس وبأن يتفكر في مقاصد المال وأنها لماذا خلقت فهذه أدوية من جهة المعرفة والعلم فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدارين هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً، فإذا تحركت الدعية فعسى أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف لأن الشيطان يعده الفقر ويصده عنه.

وحكي أن أبا البوشنجي كان ذات يوم بالخلاء فدعا تلميذه وقال انزع قميصي وادفعه لفلان فقال هلا صبرت حتى تخرج فقال خطر لي بذله ولم آمن على نفسي أن تتغير ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفًا كما لا يزول العشق إلا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقره حتى إذا سافر وفارق تكلفا وصبر عليه مدة سلى قلبه هكذا أمر مدح علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله بل لو رماه في الماء كان أولى به من إمساكه مع حبه .

ومن لطائف البخل: فيه أن يخدع نفسه تحسبا للإسم، والاشتهار بالسخاء فيبذل بقصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعًا في حشمة الجود فيكون أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب لها خبث الرياء لكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطمها عن المال كما يسلى الصبي عند الفطام باللعب بل لينتقل عن الندى إليه ثم عنه إلى غيره فكذلك هذه الصفات الخبيثة يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب ويكسر سورته بها ويسلط الغضب على الشهوة ويكسر رعونتها به.

لكن هذا مفيد في حق من غلب البخل عليه من حب الجاه والرياء فيبدل الأقوى بالأضعف فإن كان الجاه محبوبا عنده كالمال فلا فائدة فيه فإنه يقطع عليه ويزيد في أخرى مثلها إلا أن علامة ذلك أن لا يقلل عليه البذل لأجل الرياء فيه، يتبين أن الرياء عليه أغلب فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء دل على أن مرض البخل غلب على قلبه ومثل دفع بعض هذه الصفات ببعض ما يقال: إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودًا ثم يأكل الدود بعضها بعضا حتى يقل عددها وتكبر ثم يأكل بعضها بعضا حتى ترجع إلى ثنتين عظيمتين

فيتقاتلان فتغلب أحدهما الأخرى فتأكلها ثم تبقى وحدها جائعة حتى تموت.

فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن تسليطهن بعضها على بعض حتى يقمعها فيجعل الأضعف قوتًا للأقوى حتى لا يتبقى إلا واحدة ثم تقع العناية بمحوها وإزالتها بالمجاهدة وهو منع القوت عنها فإذا خولفت خمدت وماتت كالبخل فإنه يقتضي إمساك المال فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت بعلم وعمل يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود والعمل يرجع إلى الجود والبذل بالتكلف لكن قد قوي البخل بحيث يعمي ويصم فيمنع تحقق المعرفة باقية وإذا لم تتحقق المعرفة ولم تتحرك الرغبة لم يسهل العمل فتبقى العلة مزمنة.

وكان من عادة بعض شيوخ السادة الصوفية: في معالجة علة البخل في المريد أنه يمنعه الاختصاص بزواياهم فإذا توسم في مريده فرحه بزاويته نقله إلى غيرها ونقل زاوية غيره إليه، وأخرجه عن كل ما ملكه وإذا رآه يلتفت إلى سجادة أو ثوب جديد أمره بإعطائه لغيره فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا ومن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها فإن كان له متاع كان له ألف محبوب وإذا سرق كل واحد من ذلك ألمت به مصيبة بقدر حبه له فإذا ما نزلت به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنه يحب الكل وقد سلب عنه بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك.

وأهدي إلى بعض الملوك قدح من فيروز مرصع بجوهر لا نظير له ففرح به وقال لبعض الحكماء عنده كيف ترى هذا قال أراه مصيبة أو فقرًا قال: كيف؟ قال: إن تلف كانت مصيبة لا خير لها وإن سرق صرت فقيرًا إليه ولم تجد مثله وقد كنت قبل حمله إليك في أمن من المصيبة والفقر، ثم اتفق أن انكسر يومًا فعظم على الملك وقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا. وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فإنها عدوة لأعداء الله إذ تسوقهم إلى النار وعدوة لأوليائه تغمهم بالصبر عنها وعدوة الله إذ تقطع طريقه على عباده وعدوة نفسها فإنها تأكل نفسها فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس وهما لا يمكن تحصيلهما إلا بالمال وهو بذل الدرهم والدينار، فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته حتى تفنى.

ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يأخذ منه إلا قدر حاجته ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأن ما أمسكه بحاجته فليس ببخل وما لا يحتاجه فلا يتعب نفسه لحفظه فيبذله بل هو كالماء على شط نهر إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بقدر الحاجة، والله تعالى أعلم.

الخاتمة

في حكم وأمثلة ملتقطة من كتاب الصلاة والباغم وقد نظمها بعضهم أرجوزة

فقال:

الحمد لله الذي هذبنا واختارنا للعلم إذ أدبنا

فإن للآداب فضلاً يذكره فلا تخاطب كل من لا يشعره

يا مدعي الحكمة في كلامه ومن يروم السحر في نظامه

خذ حكما جميعها أمثالاً

ألفها ابن حجة للنجباء فإن فيها رأس مال الأدباء

واختارها من مفردات الصلاح

فكان ذا من أكبر المصالح

من كل بيت إن تمثلت به سكنت من سماعه في قلبه

وقد تهجمت على الشريف ولكنني خاطبت بالمعروف

وجئت من كلامه بنبذة تجلب للسامع كل لذة

وترفع الأديب إن تمثلا بها إن خاطب أرباب العلا

من حكم أتبعها وصايا مقبولة من أحسن الهجايا

من أول وأوسط وآخر جمعتها جمع أديب شاعر

وأنسجت في جمعها أرجوزة

وكل من أنكر ما حكمت في ترتيبها يكون غير منصف

فلينظر الأصل ليعرف السبب ويعترف إن كان من أهل الأدب

لي ما برعت في استهلاله من نظمه الحكم في مقاله

العيش بالرزق وبالتقتير وليس للرأي وبالتدبير

في الناس من تسعده الأقدار / وفعله جميعه إدبار
من عرف الله أزال التهمة / وقال كل فعله للحكمة
من أنكر القضاء فهو مشرك / إن القضاء بالبعاد أملك
ونحن لا نشرك بالله ولا / نقنط من رحمته إذ نبتلي
عار علينا وقبيح ذكر / أن نجعل الكفر مكان الشكر
وليس في العالم ظلم جاري / إذ كان ما يجري بأمر الباري
وأسعد العالم عند الله / من ساعد الناس بفضل الجاه
ومن أغاث البائس الملهوفا / أغاثه الله إذا خيفا
إن العظيم يدفع العظيما / كما الجسيم يحمل الجسيما
وإن من خلائق الكرام / رحمة ذي السلام والأسقام
وإن من شرائط العلو / العطف في البؤس على العدو
قد قضت العقول أن الشفقة / على الصديق والعدو صدقة
وقد علمت واللبيب يعلم / بالطبع لا يُرحم من لا يرحم
والمرء لا يدري متى يمتحن / فإنه في دهره مرتهن
فإن نجا اليوم ما ينجو غدا / لا يمنن الآفات إلا بالردى
لا تغتر بالخفض والسلامة / فإنما الحياة كالمدامة
والعمل مثل الكأس والدهر والقدر / والصفو لابد له من كدر
وكل إنسان ولابد له / من صاحب يحمل ما أثقله
جهد البلاء صحبة الأضداد / فإنها كي على الفؤاد
أعظم ما يلقى الفتى من جهد / أن يبتلى في جسمه بالضد
فإنما الرجال بالإخوان / واليد بالساعد والبنان
لا يحقر الصحبة إلا جاهل / أو مائل عن الرشاد غافل
صحبة يوم نسب قريب / وذمة يحفظها اللبيب

ومـــوجب الصـــداقة المســـاعدة ومقتضـــى المـــودة المعاضـــدة
لا ســـيما في الـــنواب الشـــدائد والمحـــن العظـــيمة الأوابـــد
والمـــرء يجـــيء أبـــدًا أخـــاه وهـــو إذا مـــا عـــد مـــن أعـــداه
وإن مـــن عاشـــر قـــومًا يـــومًا ينصـــرهم ولا يخـــاف لـــوما
وإن مـــن حـــارب مـــن لا يقـــوى بحـــربه جـــر إلـــيه الـــبلوى
واقـــنع إن حاربـــت بالســـلامة واحـــذر فعـــالاً تـــوجب الـــندامة
فـــإن التاجـــر الكـــيس في الـــتجارة مـــن خـــاف في متجـــره الخســـارة
يجهـــر في تحصـــيل رأس مالـــه ثم يـــروم الـــربح باحتـــياله
وإن رأيـــت النصـــر قـــد لاح لـــك فـــلا تقصـــر واحتـــرز أن تهلكـــا
انتهـــز الفرصـــة إن الفرصـــة تصـــير إن لم تنتهـــزها عصـــة
كـــم تبطـــر الغالـــب يـــوما فتـــرك عـــنه الجـــند واســـتهان فهلـــك
ومـــن أضـــاع جـــنده في الســـلم لم يحفظـــه في لقـــاء الخصـــم
وإن مـــن لا يحفـــظ القلـــوب خـــذل حـــين يشـــهد الحـــروب
والجـــند لا يـــرعون مـــن أضـــاعهم كـــلا ولا يحمـــون مـــن أجـــاعهم
وأضـــعف الملـــوك طـــرا عقـــدا مـــن غـــره الســـلم فأقصـــر الجـــندا
والجـــزم والـــتدبير روح العـــزم لا خـــير في عـــزم بغـــير حـــزم
والحـــزم كـــل الحـــزم في المطاولـــة والصـــبر لا في ســـرعة المـــزاولة
وفي الخطـــوب تظهـــر الجواهـــر مـــا غلـــب الأيـــام إلا الصـــابر
لا تـــيأس مـــن فـــرح ولطـــف وقـــوة تظهـــر مـــن بعـــد ضـــعف
فـــربما جـــاءت بعـــد الـــياس روح بـــلا كـــر بـــلا التـــياس
في لمحـــة الطـــرف بكـــاء وضـــحك وناجـــز بـــاد ودفـــع منســـفك
تـــنال بالـــرفق وبالـــتأني مـــا لم تـــنل بالحـــرص والـــتمني
مـــا أحســـن الثـــبات والـــتجلدا وأقـــبح الحـــيرة والتـــبلدا

ليس الفتى إلا الذي إن طرقه ... خطب تلقاه بصبر وثقه
إذا الرزايا أقبلت ولم تقف ... فثم أحوال الرجال تختلف
فكم لقيت لذة في زمن ... فاصبر الآن لهذه المحن
فالموت لا يكون إلا مرة ... والموت أحلى من حياة مرة
إني من الموت على يقين ... فأجهد الآن لما يقين
صبر على أهوالها ولا ضجر ... وربما فاز الفتى إذا صبر
لا يجزع الحر من المصائب ... كلا ولا يخضع للنوائب
فالحر لكعب الثقيل يحمل ... والصبر عند النائبات أجمل
لكل شيء مدة وتنقضي ... ما غلب الأيام إلا من رضي
فقد صدق القائل في الكلام ... ليس النهي بعظم الطعام
لا خير في جسامة الحسام ... بل هو في العقول والأفهام
فالخيل للحرب وللجمال ... والإبل للحمل وللترحال
لا تحتقر قط صغيرًا محتقر ... فربما أسالت النفس الأبر
لا تحرج الخصم ففي إحراجه ... جميع ما تكون من لجاجه
لا تطلب الغائب باللجاج ... وكن إذا كويت ذا إنضاج
فعاجز من ترك الموجود ... أطماعه وطلب المفقود
وفتش الأمور عن أسرارها ... كم نكبة جاءت من أظهارها
لزمت للجهل قبيح الظاهر ... وما نظرت إلى السرائر
ليس يغير البدر في سناه ... أن الضرير قط لا يراه
كم حكمة ضجت بها المحافل ... مليحة وأنت عنها غافل
ويغفلون عن خفي الحكمة ... ولو رأوها لزالوا التهمة
كم حسن ظاهره ثقيل ... يأباه إلا نفر قليل
والعاقل الكاني من الرجال ... لا ينثني بزخرف المقال

إن العـــدو وقـــوله مـــردود	وقـــل مـــا يصـــدق الحســـود
لا تصـــح الدعـــوى بغـــير شـــاهد	لا ســـيما مـــا كـــان مـــن معانـــد
أيأخـــذ الـــبريء بالســـقيم	والـــرجل المحســـن باللئـــيم
فـــذلك مـــن يستنصـــح الأعـــادي	يلدونـــه بـــالغش والفســـاد
إن أقـــل مـــا نـــرى أن هانـــا	مـــن حســـب الإســـاءة الإحســـانا
وادفـــع العـــدى بالحســـنى	ولا تخـــل يســـراك مـــثل الـــيمنى
وللـــرجال فعـــل مـــن مكائـــد	وخـــدع منكـــر مـــع شـــدائد
والـــنذل لا يخضـــع للشـــدائد	قـــط ولا يحـــتاط للمكائـــد
فـــرقع الخـــرق بلطـــف واجـــتهد	وامكـــر إذا لم يـــنفع الصـــدق وكـــد
فهكـــذا الحـــازم إذ يكـــيد	يـــبلغ في الأعـــداء مـــا يـــريد
وهـــو بـــريء مـــنهم في الظاهـــر	وغـــيره مختضـــب الأظافـــر
والشـــهم مـــن يصـــلح أمـــر نفســـه	ولـــو يقـــتل ولـــده وعرســـه
فـــإن مـــن يقصـــد قلـــع ضرســـه	لم يعـــتمد إلا علـــى صـــلاح نفســـه
وأن مـــن خـــص اللئـــيم بالـــندى	وجدتـــه كمـــن يـــربي أســـدا
ولـــيس في الطـــبع اللئـــيم شـــكر	ولـــيس في الأصـــل الـــدنى نصـــر
وأن مـــن ألـــزمه وكلفـــه	ضـــد الـــذي في طـــبعه مـــا أنصـــفه
كـــذاك مـــن يصـــنع الجهـــال	ويؤثـــر الأرذال والأنـــذال
لـــو أنكـــم أفاضـــل أحـــرار	مـــا بهـــرت بيـــنكم أســـرار
إن الأصـــول تجـــذب الفـــروعا	والعـــرق دســـاس إذا أطـــيعا
مـــا طـــاب فـــرع أصـــله خبـــيث	ولا ذكـــا مـــن مجـــده حـــديث
قـــد يـــبلغون رتـــبًا في الدنـــيا	ويدركـــون وطـــرًا مـــن بغـــيا
لكـــنهم لم يـــبلغوا في الكـــرم	مـــبلغ مـــن كـــان لـــه فـــيها قـــدم
وكـــل مـــن تماثلـــت أطـــرافه	في طيـــبها وكـــرمت آلافـــه

كان خليقًا بالوفاء والكرم وبرعت أصله حسن الشيم

لولا بني آدم بين العالم ما بان للعقول فضل العالم

فواجد يعطيك جود وكرم فذاك من يكفره فقد ظلم

وواحد يعطيك للمصانعة أو حاجة له إليك واقعة

لا تشرهن إلى حطام عاجل كم أكلة أودت بنفس الآكل

وبئست العادة فاحذرها الشره وقس بما رأيته ما لم تره

فليس من عقل الفتى وكرمه إفساد شخص كامل لقومه

والبغي داء ما له دواء وليس لملك معه بقاء

والبغي فاحذره وخيم المرتع والعجب فاتركه شديد المصرع

والغدر بالعهد قبيح جدا شر الورى من ليس يرعى العهدا

عند تمام المرء يبدو نقصه وربما ضر الحريص حرصه

وربما ضرك بعض مالك واسأل المحسن من رجاء ذلك

ولا تعصين شيئًا بغير فائدة فإنها من السخايا الفاسدة

هذا الذي ألفت واخترته من رجز الشريف وانتخبته

والحمد لله على تمامه وأفضله والصلاة والسلام على النبي المصطفى المختار وآله وصحبه الأبرار.

تم بحول الله وقوته كتاب الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود تأليف سيدنا، ومولانا العارف بالله تعالى الشيخ عبد الرءوف المناوي الشافعي ﷺ وكان الفراغ من هذه النسخة المباركة في يوم الأربعاء المبارك خامس عشر من شهر ذي الحجة المباركة سنة سبعة وأربعين وألف وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فهرس المحتويات

المستجاد من فعلات الأجواد

المقدمة ٣
ترجمة مختصرة لصاحب المستجاد ٥
ترجمة مختصرة للمناوي ٦
ترجمة مختصرة لأبي هلال العسكري ٧
الأخبار ١٠
حكاية(١) ١٠
حكاية (٢) ١٠
حكاية (٣) ١١
حكاية (٤) ١٢
حكاية (٥) ١٢
حكاية (٦) ١٢
حكاية (٧) ١٢
حكاية (٨) ١٣
حكاية (٩) ١٣
حكاية (١٠) ١٣
حكاية (١١) ١٣
حكاية (١٢) ١٣
حكاية (١٣) ١٤
حكاية (١٤) ١٤
حكاية (١٥) ١٤
حكاية (١٦) ١٤
حكاية (١٧) ١٥
حكاية ظريفة (١٨) ١٦
حكاية (١٩) ١٧
حكاية (٢٠) ١٨
حكاية ظريفة (٢١) ١٨

حكاية إبراهيم بن سليمان (٢٢) ٢١
حكاية ظريفة (٢٣) ٢٢
حكاية ظريفة (٢٤) ٢٢
حكاية (٢٥) ٢٦
حكاية ظريفة للثوري (٢٦) ٢٦
حكاية الحجاج (٢٧) ٢٦
حكاية الإسكندر (٢٨) ٢٧
حكاية ظريفة (٢٩) ٢٩
حكاية ظريفة (٣٠) ٣٠
حكاية (٣١) ٣٤
حكاية (٣٢) ٣٥
حكاية (٣٣) ٣٦
حكاية (٣٤) ٣٧
حكاية (٣٥) ٣٨
حكاية (٣٦) ٣٨
حكاية (٣٧) ٣٩
حكاية (٣٨) ٤٠
حكاية (٣٩) ٤٠
حكاية (٤٠) ٤١
حكاية (٤١) ٤٢
حكاية (٤٢) ٤٣
حكاية (٤٣) ٤٤
حكاية (٤٤) ٤٥
حكاية (٤٥) ٥١
حكاية (٤٦) ٥٣
حكاية (٤٧) ٥٤

حكاية (٤٨) ٥٤
حكاية (٤٩) ٥٥
حكاية (٥٠) ٥٧
حكاية (٥١) ٥٧
حكاية (٥٢) ٥٨
حكاية (٥٣) ٥٨
حكاية (٥٤) ٥٩
حكاية (٥٥) ٦٠
حكاية (٥٦) ٦١
حكاية (٥٧) ٦٢
حكاية (٥٨) ٦٣
حكاية (٥٩) ٦٤
حكاية (٦٠) ٦٤
حكاية (٦١) ٦٨
حكاية (٦٢) ٦٨
حكاية لطيفة (٦٣) ٦٩
حكاية (٦٤) ٧٠
حكاية (٦٥) ٧١
حكاية (٦٦) ٧٢
حكاية (٦٧) ٧٤
حكاية (٦٨) ٧٥
حكاية (٦٩) ٧٧
حكاية (٧٠) ٧٧
حكاية (٧١) ٧٧
حكاية (٧٢) ٧٨
حكاية (٧٣) ٨٠

حكاية (٧٤) ٨١
حكاية (٧٥) ٨٢
حكاية (٧٦) ٨٣
حكاية ظريفة (٧٧) ٨٥
حكاية (٧٨) ٨٥
حكاية (٧٩) ٨٦
حكاية (٨٠) ٨٧
حكاية (٨١) ٨٧
حكاية (٨٢) ٨٧
حكاية (٨٣) ٨٧
حكاية (٨٤) ٨٨
حكاية (٨٥) ٨٨
حكاية (٨٦) ٨٩
حكاية (٨٧) ٨٩
حكاية (٨٨) ٩١
حكاية (٨٩) ٩٤
حكاية (٩٠) ٩٥
حكاية (٩١) ٩٦
حكاية (٩٢) ٩٧
حكاية (٩٣) ٩٨
حكاية (٩٤) ٩٨
حكاية (٩٥) ٩٨
حكاية (٩٦) ٩٨
حكاية (٩٧) ٩٨
حكاية (٩٨) ٩٩
حكاية (٩٩) ٩٩
حكاية (١٠٠) ٩٩

حكاية (١٠١) ٩٩
حكاية (١٠٢) ١٠٠
حكاية (١٠٣) ١٠٠
حكاية (١٠٤) ١٠١
حكاية (١٠٥) ١٠١
حكاية ظريفة (١٠٦) ١٠٢
حكاية (١٠٧) ١٠٣
حكاية (١٠٨) ١٠٣
حكاية (١٠٩) ١٠٣
حكاية (١١٠) ١٠٣
حكاية (١١١) ١٠٤
حكاية (١١٢) ١٠٥
حكاية عجيبة (١١٣) ١٠٥
حكاية (١١٤) ١٠٦
حكاية (١١٥) ١٠٦
حكاية (١١٦) ١٠٦
حكاية (١١٧) ١٠٧
حكاية (١١٨) ١٠٧
حكاية (١١٩) ١٠٨
حكاية ظريفة (١٢٠) ١٠٩
حكاية لطيفة (١٢١) ١١٠
حكاية (١٢٢) ١١١
حكاية (١٢٣) ١١١
حكاية لطيفة (١٢٤) ١١٢
حكاية لطيفة (١٢٥) ١١٢
حكاية (١٢٦) ١١٤
حكاية ظريفة (١٢٧) ١١٥

حكاية (١٢٨) ١١٨
حكاية (١٢٩) ١١٨
حكاية (١٣٠) ١٢٠
حكاية (١٣١) ١٢١
حكاية (١٣٢) ١٢١
حكاية (١٣٣) ١٢٣
حكاية (١٣٤) ١٢٣
حكاية (١٣٥) ١٢٣
حكاية (١٣٦) ١٢٣
حكاية (١٣٧) ١٢٤
حكاية (١٣٨) ١٢٤
حكاية (١٣٩) ١٢٥
حكاية (١٤٠) ١٢٥
حكاية (١٤١) ١٢٥
حكاية (١٤٢) ١٢٥
حكاية (١٤٣) ١٢٥
حكاية (١٤٤) ١٢٥
حكاية (١٤٥) ١٢٦
حكاية (١٤٦) ١٢٦
حكاية (١٤٧) ١٢٦
حكاية (١٤٨) ١٢٦
حكاية (١٤٩) ١٢٧
حكاية (١٥٠) ١٢٧
حكاية (١٥١) ١٢٧
حكاية (١٥٢) ١٢٧
حكاية (١٥٣) ١٢٧
حكاية (١٥٤) ١٢٧

حكاية (١٥٥) ١٢٧
حكاية (١٥٦) ١٢٨
حكاية (١٥٧) ١٢٨
حكاية (١٥٨) ١٢٨
حكاية (١٥٩) ١٢٨
حكاية (١٦٠) ١٢٨
حكاية (١٦١) ١٢٨
حكاية (١٦٢) ١٢٩
حكاية (١٦٣) ١٢٩
حكاية (١٦٤) ١٢٩
حكاية (١٦٥) ١٢٩
حكاية (١٦٦) ١٢٩
حكاية (١٦٧) ١٣٠
حكاية (١٦٨) ١٣٠
حكاية (١٦٩) ١٣٠
حكاية (١٧٠) ١٣٠
حكاية (١٧١) ١٣٠
حكاية (١٧٢) ١٣١
حكاية (١٧٣) ١٣١
حكاية (١٧٤) ١٣١
حكاية (١٧٥) ١٣١
حكاية (١٧٦) ١٣١
حكاية (١٧٧) ١٣٢

حكاية (١٧٨) ١٣٢
حكاية (١٧٩) ١٣٢
حكاية (١٨٠) ١٣٢
حكاية (١٨١) ١٣٢
حكاية (١٨٢) ١٣٢
حكاية (١٨٣) ١٣٢
حكاية (١٨٤) ١٣٣
حكاية (١٨٥) ١٣٣
حكاية (١٨٦) ١٣٣

فضل العطاء على العسر

مقدمة المؤلف ١٣٧

الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود

الباب الأول: في فضيلة السخاء ١٦٦
الفصل الأول: فيما جاء فيه من الأحاديث النبوية ١٦٦
الفصل الثاني: ما جاء في فضيلة السخاء والجود في الآثار وكلام الحكماء
الأخيار ١٧٤
الفصل الثالث: في بعض حكايات الأسخياء والأخيار ١٨٤
الباب الثاني: في ذم البخل ٢٢٩
الفصل الأول: فيما ورد في ذمه من الأحاديث وقد جعلتها ثلاثين حديثًا ... ٢٢٩
الفصل الثاني: فيما جاء في ذمه من الآثار وكلام الحكماء ٢٣٥

الفصل الثالث: في حكايات البخلاء وما ورد في ذلك من الأشعار ودقائق الأخبار ٢٣٨

الباب الثالث: في علاج البخل ليزول ٢٧٠

الخاتمة في حكم وأمثلة ملتقطة من كتاب الصلاة والباغم وقد نظمها بعضهم أرجوزة ٢٧٣

فهرس المحتويات ٢٧٩